الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية
في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين

د. محسن محمّد صالح



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت



الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية
في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين

تأليف

د. محسن محمد صالح



مركز الزيتونة
للدراسات والاستشارات

بيروت – لبنان

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine

Since the Time of the Prophets until Late Twentieth Century

By:

Dr. Mohsen Moh'd Saleh

الطبعة الخامسة

2012م – 1433هـ

بيروت – لبنان

ISBN 978-9953-572-13-0

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

تلفون: 44 36 80 1 961 +

تلفاكس: 43 36 80 1 961 +

ص.ب.: 14-5034، بيروت – لبنان

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net

الموقع: www.alzaytouna.net

تصميم وإخراج

ربيع مراد

فهرس المحتويات

الفصل الثالث: المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

الفصل الرابع: التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة في فلسطين

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

حظيت قضية فلسطين بأعداد هائلة من الدراسات والكتب والمصنفات في شتى المجالات، وما تزال محوراً لاهتمام الكتاب من عرب ويهود وأوروبيين، وأمريكان وغيرهم. غير أن إعداد الأبحاث والكتب في قضية فلسطين من وجهة نظر إسلامية هو مما ما تزال تفتقر إليه المكتبة الفلسطينية، بالرغم من أن عدداً من هذه الدراسات أخذت في الصدور خصوصاً منذ الثمانينيات من هذا القرن.

لقد كان الدافع الرئيس من إعداد هذا الكتاب هو محاولة تسليط الضوء على التجربة الإسلامية التاريخية على أرض فلسطين، وفق رؤية إسلامية علمية موضوعية، ووفق تصور ينبع من فهم المسلمين لهذه القضية المقدسة وبما يتوافق مع تراثهم وهويتهم الحضارية. وهي رؤية تستفيد من إسلامية المعرفة ومن النظر في سنن الله سبحانه في الكون والحياة والاعتبار منها.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب كتاب أكاديمي موثق من الناحية العلمية، إلا أن مؤلفه سعى ألا يحصر قرّاءه في المثقفين والأكاديميين فقط، فحرص على أن يكون أسلوبه سهلاً، وابتعد عن الجفاف والجمود قدر الإمكان، بحيث يطلع عليه، ويستفيد منه أكبر عدد من القراء، وهو مع ذلك حافل بالمعلومات بعيد عن الخطابة العاطفية والإنشاء.

ويأمل المؤلف أن يستجيب هذا الكتاب لرغبة الكثير من القراء الذي يودون التعرف على تاريخ فلسطين وقضيتها –من وجهة نظر إسلامية– في كتاب واحد مركز يجمع بين دفتيه مجمل الصورة المرادة. ولعله بذلك يكون مدخلاً مهماً لكل مبتدئ، وأساساً ينطلق منه كل من يرغب –بعد ذلك– في التخصص والتوسع. كما يرجو المؤلف أن يقدم هذا الكتاب تعريفاً شاملاً بقضية فلسطين وتاريخها وتجربتها الإسلامية، دونما حاجة إلى أن يقرأ كتباً كثيرة للوصول إلى الصورة المرجوة. ونحسبه –بذلك– مصدراً للمسلمين الذين لا يعايشون قضية فلسطين دائماً، ولا تشكل محور اهتمامهم الأساس اليومي.

لقد حاولنا في هذا الكتاب انتقاء المعلومات واختصارها والتركيز على مواطن العبرة والعظة، والشرح والتفصيل حيثما اقتضت المصلحة، والاختصار والإجمال –في مواطن أخرى– دون إخلال بالصورة العامة. ودار الكتاب حول محور أساس هو التجربة الإسلامية على أرض فلسطين ساعياً إلى إثبات عمقها وعراقتها وأصالتها، مبيناً أن الراية الإسلامية هي الراية التي نجح المسلمون تحت ظلّها في الحفاظ على مقدساتهم وتحريرها من كل غاصب.

وبعد، فنسأل الله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، والصدر مفتوح لكل اقتراح ونقد بنَّاء.

والحمد لله رب العالمين

د. محسن محمد صالح

١٩٩٥

مقدمة الطبعة الخامسة

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٩٥، حيث لقيت بفضل الله قبولاً واسعاً، فتبعتها طبعة ثانية ما لبثت نسخهما أن نفذت في بضعة أشهر. وبناء على رغبة العديد من الزملاء والقراء في التوسع في طرح التجربة المعاصرة وخصوصاً فترة الانتفاضة المباركة وما بعدها، فقد جاءت الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة حيث غطت بشيء من التفصيل الأحداث حتى شهر آب/ أغسطس ١٩٩٦. ولذلك يجد القارئ للفصل الرابع إضافات حول علاقة حركة الإخوان بفتح، وحول معسكرات الشيوخ، والانتفاضة، والتطورات السياسية، وموقف الإسلاميين من التسوية، ويجد توسعاً في الحديث حول حركة حماس وفكرها وتواجدها الشعبي وقيادتها السياسية وعملياتها الجهادية، كما يلحظ إضافات حول حركة الجهاد الإسلامي وفكرها وجهادها. بالإضافة إلى أن هناك مبحثاً حول علاقة التيار الإسلامي بالسلطة الفلسطينية في مناطق الحكم الذاتي.

وقد قام مركز الإعلام العربي في القاهرة بإعادة طباعة هذا الكتاب سنة ٢٠٠٢. أما هذه الطبعة فهي طبعة إلكترونية ظلت فيها معلومات الكتاب كما هي، مكتفية بالأحداث حتى صيف ١٩٩٦. غير أنه تمّ مراجعة النص نفسه، ومعالجة بعض الأخطاء المطبعية وتدقيق بعض المعلومات، كما أضيفت للكثير من الأسماء الأجنبية ما يقابلها باللغة الإنجليزية.

ولعل المؤلف لم يرغب بتعطيل نشر الكتاب إلكترونياً، بانتظار أن يجد وقتاً لتحديثه وتحريره، وهو وقت قد يطول. ثم إن هناك العديد من الدراسات المفصلة التي غطت أنشطة وأدوار الاتجاه الإسلامي الفلسطيني في السنوات الأخيرة. كما أن هناك مادة غنية في الفصول الثلاثة الأولى تعطي للكتاب قيمة مميزة.

والشكر الجزيل لكل من أسهم باقتراح أو نقد أو توجيه ولا زال الصدر مفتوحاً للمزيد.

والحمد لله رب العالمين

د. محسن محمد صالح

تقديم*

بقلم: أ. د. عماد الدين خليل

عندما قرأت كتاب "الطريق إلى القدس" للدكتور محسن محمد صالح في طبعته الثانية الصادرة في لندن سنة ١٩٩٥ ضمن منشورات "فلسطين المسلمة" لفتت انتباهي تلك التغطية الشاملة والمتوازنة للتاريخ الفلسطيني منذ عصور الأنبياء عليهم السلام وحتى أواخر قرننا العشرين هذا، والقدرة على الإمساك المنهجي بالبعد الإسلامي الأصيل عبر هذه المسيرة الطويلة، مما لا يكاد المرء يلحظه في معظم ما كتب في الموضوع.

إن الأخ المؤلف عبر كتابه هذا يضع الأمور في نصابها، سواء وهو يتحدث عن مرحلة ما قبل الفتح الإسلامي أو المراحل التي تلته، بعد أن عبثت بتاريخ هذه الأرض المباركة رياح التشريق والتغريب.

ومنذ الفصل الأول يجد المرء نفسه قبالة ما يمكن تسميته بالمنهج الإسلامي في التعامل مع التاريخ بحثاً ودراسة وتأليفاً، فهو يحيل المعطيات التاريخية بمروياتها وآثارها على الشاهد القرآني، ويجعله حاكماً عليه، وليس العكس، كما يفعل أنصاف المؤرخين والآثاريين ممن لا يملكون من الحقيقة التاريخية عشر معشارها، بينما تغيب الأعشار الأخرى عن الأنظار فلا يعلم بها إلا الله سبحانه.

ها هنا نحن بأمسّ الحاجة إلى هذا الأسلوب في التعامل مع التاريخ القديم، من أجل ألا نجعل الظن والهوى والعلم النسبي، الحكم الفصل في الواقعة التاريخية، ويكفي أن نتذكر، قبالة كل ادعاءات المؤرخين والآثاريين التقليديين تلك المحاولة القيمة التي نفذها العالم الفرنسي موريس بوكاي Maurice Bucaille في كتابه "التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة" La Bible, le Coran et la science: Les Écritures saintes examinées à la lumière des connaissances modernes والتي قارن فيها بين معطيات هذه الكتب المقدسة الثلاثة، وبين الكشوف المعرفية الحديثة في سياقات شتى من بينها التاريخ والآثار وبدايات الخلق.

* كتب أ.د. عماد الدين خليل مشكوراً هذا التقديم للطبعة الثالثة المزيدة والمنقحة التي صدرت في سنة ١٩٩٨.



وكانت النتيجة ارتطام العهدين القديم والجديد بهذه الكشوف، وتوافق مدهش بينهما وبين آيات الله البيّنات.

يمضي المؤلف في الفصول التالية لكي يتابع: الفتح الإسلامي لفلسطين، والمسلمين في مواجهة الصليبيين والتتار وصولاً إلى التجربة الإسلامية الحديثة والمعاصرة في فلسطين، وهو في طبعته الجديدة للكتاب يعيد صياغة الفصل الأخير، ويضيف إليه صفحات قيمة، تبلغ الستين، عن دور حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في الانتفاضة والجهاد، وهو بهذا يظلّ صادقاً مع نفسه، ومع المنهج الذي اعتمده في متابعة المعطيات التاريخية ذات الثقل الحقيقي في تاريخ فلسطين...

لقد تلقى الأخ المؤلف من إحدى المؤسسات العلمية الجائزة الأولى على كتابه هذا، ولكن ما هو أهم وأعمق دلالة في ظنّي هو أن يصدر الكتاب في طبعة ثالثة، ولم يمضِ على الطبعة الأولى سوى أقل من سنتين... ومعنى ذلك أنه قُبل لدى جماهير القراء والمهتمين بالقضية...

وتلك هي الجائزة الحقيقية التي يتلقاها، ويطمح إليها أي مؤلف في كل مكان.

الفصل الأول

صراع الحق والباطل
على أرض فلسطين قبل الفتح الإسلامي

صراع الحق والباطل
على أرض فلسطين قبل الفتح الإسلامي

أولاً: شرعية ميراث الأنبياء:

قدّر الله سبحانه وتعالى أن تكون فلسطين أرضاً للرسل والأنبياء الذين حملوا راية التوحيد، ودعوا أقوامهم إلى الالتزام بها. وقد شهدت فلسطين في تاريخها القديم نماذج من قيادة الأنبياء وحكمهم لأقوامهم، وخاضوا عليهم السلام صراعات عنيفة في سبيل تثبيت راية الحق على الأرض المباركة.

وقبل أن نخوض في التفاصيل، يجب أن نثبت حقيقة مهمة، وهي أن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء، ويعدّون تراث الأنبياء تراثهم، ويعدّون رسالتهم الإسلامية امتداداً لرسالات الأنبياء الذين جاؤوا من قبلهم، وأن الدعوة التي دعا إليها الأنبياء هي الدعوة نفسها التي دعا إليها محمد ﷺ، وبالتالي فإن رصيد تجربة الأنبياء في دعوتهم للحق، وعبادة الله وحده لا تنفصم عن دعوة المسلمين، ورصيد تجربتهم.

وانظر إلى قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1]، فهي رسالة التوحيد التي يدعو إليها كل رسول. وعندما كان يكذّب أي قوم رسولهم، فقد كان ذلك تكذيباً لجميع المرسلين، وتأمل قوله تعالى في ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾[2].

ويغرق العديد من المؤرخين عند مواجهتهم لادعاءات اليهود المعاصرين بحقهم في فلسطين في الانشغال بعلوم الآثار، وذكر الشعوب التي استوطنت أو حكمت أو مرّت على فلسطين، وكم حكم كل منها هذه الأرض، ليخرجوا في النهاية بنتيجة مؤداها ضآلة الفترة والمساحة التي حكم فيها اليهود عبر التاريخ مقارنة بالعرب والمسلمين. وبالرغم من أن هذا الجانب مفيد في ردّ ادعاءات اليهود من النواحي التاريخية والعقلية والمنطقية، إلا أن كثيراً من هؤلاء الكتّاب والمؤرخين يقعون في خطأين كبيرين حسبما يظهر لنا:

الأول: اعتبار تراث الأنبياء الذي أرسلوا إلى بني إسرائيل أو قادوهم تراثاً خاصاً باليهود فقط، وهذا ما يريده اليهود!!

الثاني: الإساءة إلى سيرة عدد من أنبياء بني إسرائيل باستخدام الاستدلالات المستندة إلى توراة اليهود المحرفة نفسها...، وهم عندما يستخدمونها فإنما يقصدون الإشارة إلى "السلوك المشين" لمن كفر وفسق من بني إسرائيل وقادتهم عندما حلُّوا في فلسطين، ليضعفوا من قيمة دولتهم ويبينوا انحطاط مستواهم الحضاري...، ويُدخلون في الاستدلالات ما ذكرته الإسرائيليات من اتهام للأنبياء بالغش والكذب والزنى واغتصاب الحقوق وقتل الأبرياء، في محاولات لتشويههم وتشويه صورة حكمهم ودولتهم في ذلك الزمان.

لقد كفانا القرآن الكريم مؤونة التعرف على أخلاق من كفر وفسق من اليهود وفسادهم وإفسادهم، غير أن أنبياءهم وصالحيهم أمر آخر، فالأنبياء خير البشر، ولا ينبغي الإساءة إليهم، والانجرار خلف الروايات الإسرائيلية المحرفة، التي لا تسيء للأنبياء فقط، وإنما إلى الله تبارك وتعالى**. وعلى سبيل المثال تذكر التوراة المحرفة والتلمود أن الله (تعالى عما يقولون علواً كبيراً) يلعب مع الحوت والأسماك كل يوم ثلاث ساعات، وأنه بكى على هدم الهيكل حتى صغر حجمه من سبع سموات إلى أربع سموات، وأن الزلازل والأعاصير تحدث نتيجة نزول دمع الله على البحر ندماً على خراب الهيكل...[3] هذا فضلاً عما ذكره القرآن من ادعاءاتهم ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾[4]، ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾[5]، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾[6]....

كما ينسب من حرَّف التوراة من اليهود إلى سيدنا يعقوب عليه السلام سرقة صنم ذهبي من أبيه، وأنه صارع الله!! قرب نابلس وسمي لذلك بإسرائيل، كما تنسب له رشوة أخيه وخدعة أبيه، وأنه سكت عن زنا ابنتيه، وأنه أشرك بربه...!! وقِسْ على ذلك ما ذكروا عن باقي الأنبياء عليهم السلام[7].

** نحن هنا نعرض الفهم الإسلامي لليهود وسلوكهم، وإنَّ طرح أي من المسلكيات الخاطئة لا يعني إطلاقاً عداءً لليهود لمجرد كونهم يهوداً، أو ما يعرف بالمصطلحات المعاصرة "العداء للسامية"؛ لأن الفهم الإسلامي يميز بين أنبياء اليهود وصالحيهم وبين من فسد وكفر وانحرف منهم؛ ولأنه يتعامل معهم كبشر، يصيبون ويخطئون، ويؤمنون ويكفرون، وينجحون ويفشلون...؛ ويتعامل معهم بحسب أوضاعهم كأهل ذمة أو كمعاهدين أو كمحاربين؛ ولكلٍّ أحكامه التي يبنيها الإسلام على أسس العدل والتسامح وحرية الاعتقاد، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقه، بغضِّ النظر عن دينه أو لونه أو جنسه.

إن أولئك الذين حرَّفوا التوراة من اليهود، قد ساروا على نهجها المحرف في أخلاقهم وفسادهم وإفسادهم، محتجين بما نسبوه إلى أنبيائهم كذباً وزوراً. ومن الواجب على المؤرخين وخصوصاً المسلمين ألا يندفعوا في استقرائهم لتاريخ فلسطين إلى اتهام أنبياء الله ورسله بما افتراه عليهم هؤلاء اليهود، وذلك في سبيل إثبات حقّ الأقوام الأخرى في فلسطين.

وإذا كانت رابطة العقيدة والإيمان هي الأساس الذي يجتمع عليه المسلمون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فإن المسلمين هم أحق الناس بميراث الأنبياء، بما فيهم أنبياء بني إسرائيل، لأن المسلمين هم الذين ما يزالون يرفعون الراية التي رفعها الأنبياء، وهم السائرون على دربهم وطريقهم، وهؤلاء الأنبياء هم مسلمون موحدون حسب الفهم القرآني.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[8]، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[9]، وقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[10]. هذه الآيات من الوضوح بما لا يحتاج معه إلى الشرح. وفي المقابل فإن الإسلام يعدّ الإيمان بالأنبياء والرسل أحد أركان الإيمان، تأمل قوله تعالى ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[11].

وبشكل عام فأمة التوحيد هي أمة واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأنبياء الله ورسله وأتباعهم هم جزء من أمة التوحيد، ودعوة الإسلام هي امتداد لدعوتهم، والمسلمون هم أحق الناس بأنبياء الله ورسله وميراثهم.

فرصيد الأنبياء هو رصيدنا، وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المباركة المقدسة، هي دلالة على شرعيتنا وحقنا في هذه الأرض وحكمها.

نعم، لقد أعطى الله سبحانه هذه الأرض لبني إسرائيل عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانوا يمثلون أمة التوحيد في الأزمان الغابرة. ولسنا نخجل أو نتردد في ذكر هذه الحقيقة، وإلا خالفنا صريح القرآن، ومن ذلك قول موسى عليه السلام لقومه ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[12]. غير أن هذه الشرعية ارتبطت بمدى التزامهم بالتوحيد، والالتزام بمنهج الله، فلما كفروا بالله وعَصوا رسله وقتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم وميثاقهم، ورفضوا اتباع الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، وهو النبي الذي بشَّر به أنبياء بني إسرائيل قومهم ﴿ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴾[13] وقوله تعالى ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾[14]، فلما فعلوا ذلك حلَّت عليهم لعنة الله وغضبه ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ ﴾[15] وقال تعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[16].

وبذلك تحولت شرعية حكم الأرض المقدسة إلى الأمة التي سارت على منهج الأنبياء، وحملت رايتهم وهي أمة الإسلام. فالمسألة في فهمنا ليست متعلقة بالجنس والنسل والقوم، وإنما باتباع المنهج.

واستطراداً في مناقشة الادعاءات اليهودية بحقهم في فلسطين وفق نصوص التوراة، نشير إلى ما يذكرونه في التوراة المحرفة من إعطاء هذه الأرض لإبراهيم عليه السلام ونسله. ومما جاء فيها "وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك... فذهب إبراهيم كما قال الرب... فأتوا إلى أرض كنعان... وظهر الرب لإبراهيم، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض"[17]. وجاء في التوراة المحرفة أيضاً "وسكن [إبراهيم عليه السلام] في أرض كنعان، فقال له الرب: ارفع عينيك، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً؛ لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد"[18]. وجاء فيها أيضاً "قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض. من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات"[19].

وللرد على ذلك -فضلاً عن فهمنا للمسألة في أصلها الشرعي- نقول:

١. إذا كان هناك عهد، فقد أعطي لإبراهيم عليه السلام ولنسله، وليس بنو إسرائيل وحدهم نسل إبراهيم، فالعرب المستعربة هم من نسله أيضاً (أبناء إسماعيل عليه السلام) ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

٢. إذا كانت المسألة مرتبطة بالنسل والتناسل، فالدلائل تشير إلى أن الأغلبية الساحقة لليهود في عصرنا ليست من نسل إبراهيم عليه السلام، وذلك أن معظم يهود اليوم هم من يهود الخزر Khazars، الذين دخلوا هذا الدين في القرنين: التاسع والعاشر الميلاديين!!

٣. إن القرآن الكريم يوضح مسألة إمامة سيدنا إبراهيم وذريته في شكل لا لبس فيه، وتأمل قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٢٠].

فعندما سأل إبراهيم الله تعالى أن تكون الإمامة في ذريته بيَّن الله له أن عهده لذريته بالإمامة لا يستحقه، ولا يناله الظالمون، وأي ظلم وكفر وصدٍّ عن سبيل الله، أكبر مما فعله بنو إسرائيل بحسب ما تشير مصادرهم نفسها، وبحسب ما يشير القرآن الكريم؟!

أما ما يتعلق بادعاءات اليهود التاريخية، فقد كفانا الكثير من المؤرخين مؤونة الرد عليها، ففترة حكم فلسطين تحت راية الإسلام هي أطول الفترات التاريخية، والشعوب التي استوطنت فلسطين قبل مجيء اليهود بأكثر من ألف عام ظلّت مستقرة فيها حتى الآن، وقد اندمجت بها الهجرات العربية قبل وبعد الفتح الإسلامي، وهي التي يتشكل منها شعب فلسطين الحالي بدينه الإسلامي ولغته وسماته العربية[٢١].

ثانياً: نظرة تاريخية:

تشوب دراسة التاريخ القديم الكثير من الصعوبات، وعادة ما يلجأ المؤرخون إلى دراسة الآثار، وفكِّ رموز اللغات القديمة التي تمت الكتابة بها على بعض الآثار، كما يستفيدون مما يكتشفونه من لفائف وأوراق وجلود وعظام عليها بعض الكتابات، وكذلك مما يستحصلونه من مخطوطات وكتب التاريخ والتراث القديمة. وفي دراستهم لتاريخ فلسطين القديم كانوا كثيراً ما يلجأون إلى ما كتبته التوراة، وما تناقله اليهود، غير أن الاعتماد تزايد في هذا العصر على الآثار... . ونحن في دراستنا المختصرة سنحاول

الاستفادة مما ذكره القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم نحاول استكمال الصورة بما لدينا من أخبار وآثار، لا تتعارض مع صحيح ما نعتقده. وسنلتزم هنا بالاختصار غير المخل بالمعنى المراد، وفي حدود دراستنا للتجربة الإسلامية على أرض فلسطين.

سكن الإنسان أرض فلسطين منذ العصور الموغلة في القدم، وهناك آثار تعود إلى العصر الحجري القديم (٥٠٠ ألف – ١٤ ألف ق.م) والعصر الحجري الوسيط (١٤ ألف – ٨ آلاف ق.م) حيث يطلق على هذا العصر في فلسطين الحضارة النطوفية نسبة إلى مغائر النطوف شمال القدس، وأصل النطوفيين غير معروف حتى الآن، تركزت حضارتهم على الساحل وعاشوا في المغائر والكهوف كمغائر جبل الكرمل.

وفي العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠–٤٥٠٠ ق.م) انتقلت حياة الإنسان في فلسطين إلى الاستقرار، وتحول من جمع الغذاء إلى إنتاجه، وفي أريحا ظهرت أول الدلائل على حياة الاستقرار، وهي تعدّ، حتى الآن، أقدم مدن العالم؛ حيث أنشئت نحو ٨٠٠٠ ق.م.

وامتد العصر الحجري النحاسي من ٤٥٠٠–٣٣٠٠ ق.م، وقد كشف عن مواقع حضارية أثرية تعود إلى تلك الفترة في منطقة بئر السبع، وبين جبال الخليل والبحر الميت، والخضيرة على السهل الساحلي.

وتميزت بداية الألف الثالث ق.م بظهور الإمبراطوريات القديمة في الشرق، وقد رافق ذلك التوصل إلى الكتابة والبدء بتدوين التاريخ، ومن هنا تبدأ العصور التاريخية في فلسطين.

ويطلق على الفترة الممتدة من ٣٢٠٠–٢٠٠٠ ق.م اسم العصر البرونزي القديم، وقد تميزت هذه الفترة بظهور المدن التحصينية الدفاعية التي قامت على هضاب مرتفعة، وانتشرت بأعداد كبيرة، وكانت غالبيتها في وسط وشمال فلسطين، ومن أهم المواقع بيسان ومجدُّو والعفولة ورأس الناقورة وتلّ الفارعة غربي نابلس، وفي الألف الثالث ق.م زاد عدد سكان فلسطين، ونمت المدن، وأصبح لها قوة سياسية واقتصادية مما يمكن تسميته عصر "دويلات المدن".

وخلال الألف الثالث ق.م هاجر إلى فلسطين العموريون "الأموريون" والكنعانيون، وكذلك اليبوسيون والفينيقيون (وهما يُعدان من البطون الكنعانية)، وعلى ما يظهر فقد كانت هجرتهم إلى فلسطين حوالي ٢٥٠٠ ق.م، حيث استقر الكنعانيون في سهول

فلسطين، وتركز العموريون في الجبال، واستقر اليبوسيون في القدس وما حولها، وهم الذين أنشأوا مدينة القدس وأسموها "يبوس" ثم "أورسالم"، أما الفينيقيون فاستقروا في الساحل الشمالي لفلسطين وفي لبنان.

ويرى ثقات المؤرخين أن العموريين والكنعانيين واليبوسيين والفينيقيين قد خرجوا من جزيرة العرب، وأن سواد أهل فلسطين الحاليين، وخاصة القرويين هم أنسال تلك القبائل والشعوب القديمة أو من العرب والمسلمين الذين استقروا في البلاد إثر الفتح الإسلامي لها.

لقد كانت هجرة الكنعانيين واسعة في تلك الفترة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، واسم أرض كنعان هو أقدم اسم عرفت به أرض فلسطين، وقد أنشأ الكنعانيون معظم مدن فلسطين، وكان عددها، حسب حدود فلسطين الحالية، لا يقل عن ٢٠٠ مدينة خلال الألف الثاني ق.م وقبل قدوم العبرانيين اليهود بمئات السنين، ومن المدن القديمة فضلاً عن أريحا والقدس مدن شكيم "بلاطة، نابلس" وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر وبئر السبع وبيت لحم... .

ثم جاء العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠–١٥٥٠ ق.م) حيث شهد النصف الأول من الألف الثاني ق.م حكم الهكسوس الذين سيطروا على فلسطين خلال القرون ١٨–١٦ ق.م.

وبدأ العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠–١٢٠٠ ق.م) بانزواء حكم الهكسوس ودخول فلسطين تحت سيطرة الحكم المصري المطلق، أما العصر الحديدي (١٢٠٠–٣٣٠ ق.م) فيظهر أنه في بدايته (١٢٠٠ ق.م تقريباً) استقبلت فلسطين مجموعات مهاجرة من مناطق مختلفة أبرزها هجرات "شعوب البحر" التي يظهر أنها جاءت من غرب آسيا ومن جزر بحر إيجه (كريت وغيرها) وقد هاجمت هذه الشعوب في البداية سواحل الشام ومصر، ولكن فرعون مصر، رعمسيس الثالث، صدها عن بلاده في معركة بلوزيون "قرب بور سعيد" وأذن لها أن تستقر في الجزء الجنوبي من فلسطين، وورد في النقوش الأثرية اسمها "ب ل س ت"، ومنها جاءت تسميتهم "فلسطيون" ثم زيدت النون إلى اسمهم (ربما على اعتبار الجمع) فأصبحوا فلسطينيين، وقد أقام الفلسطيون خمس ممالك هي مدن غزة، وأشدود، وجت، وعقرون، وعسقلان، وهي مدن المرجح أنها كنعانية قديمة، غير أنهم وسعوها ونظموها، ثم أنشأوا مدينتين

جديدتين هما اللد وصقلغ، واستولوا على بقية الساحل حتى جبل الكرمل، كما استولوا على مرج ابن عامر...، وسرعان ما اندمج الفلسطيون بالكنعانيين، واستعملوا لغتهم وعبدوا آلهتهم "داجون وبعل وعشتار". وبالرغم من أن الفلسطيين ذابوا في السكان إلا أنهم أعطوا هذه الأرض اسمهم فأصبحت تعرف بفلسطين[٢٢].

ويظهر من الدلائل التاريخية المقارنة أن موسى عليه السلام قاد بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة في النصف الأخير من القرن ١٣ ق.م، أي أواخر العصر البرونزي المتأخر، الذي شهد هو وبداية العصر الحديدي بداية الدخول اليهودي إلى فلسطين، ثم قيام مملكة داود وسليمان عليهما السلام (١٠٠٤-٩٢٣ ق.م)، التي انقسمت إلى مملكة إسرائيل (٩٢٣-٧٢٢ ق.م)، ومملكة يهودا (٩٢٣-٥٨٦ ق.م)، والتي حكمت كل منها جزءاً محدوداً من أرض فلسطين، ومنذ ٧٣٠ ق.م دخلت فلسطين بشكل عام تحت النفوذ الآشوري القادم من العراق حتى ٦٤٥ ق.م. ثم ورثهم البابليون في النفوذ حتى ٥٣٩ ق.م، وكان الآشوريون والبابليون يتداولون النفوذ على فلسطين مع مصر. ثم إن الفرس غزوا فلسطين وحكموها خلال الفترة ٥٣٩-٣٣٢ ق.م.

ثم دخلت فلسطين في العصر الهلينستي اليوناني، حيث حكمها البطالمة حتى ١٩٨ ق.م، ثم ورثهم السلوقيون Seleucid حتى ٦٤ ق.م. عندما جاء الرومان، وسيطروا على فلسطين، وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، ظلّت فلسطين تتبع الإمبراطورية الرومانية الشرقية "دولة الروم" وعاصمتها القسطنطينية حتى جاء الفتح الإسلامي، وأعطاها صبغتها العربية الإسلامية سنة ٦٣٦م[٢٣].

ثالثاً: دعوة الحق ومسيرة الأنبياء على الأرض المقدسة:

كان **إبراهيم** عليه السلام أول الأنبياء الذين نعلم أنهم عاشوا في فلسطين، وماتوا فيها، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، فمن نسله جاء الكثير من الأنبياء كإسحق ويعقوب ويوسف وإسماعيل ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ولد إبراهيم عليه السلام، حسبما ورد من آثار، في "أور" في العراق[٢٤] وعاش هناك ردحاً من الزمن؛ حيث قام بتحطيم الأصنام، ودعا إلى التوحيد، وواجه النمرود، وألقمه الحجة، وألقي في النار عقاباً له على تحطيم الأصنام فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وهاجر إبراهيم ومعه ابن أخيه لوط في سبيل الله[٢٥] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[٢٦].

ويظهر أن إبراهيم في البداية هاجر ومن معه إلى حرَّان (الرها) وهي تقع الآن في جنوب تركيا إلى الشمال من سورية، ومن هناك هاجر ومعه ابن أخيه لوط إلى أرض كنعان "فلسطين" نحو ١٩٠٠ ق.م[٢٧]، قال تعالى ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[٢٨]. وكان هذا التاريخ بالنسبة لتاريخ العراق القديم يمثل نهاية عهد "أور الثالثة" التي حكمها السومريون وبداية العصر البابلي القديم الذي سيطرت فيه العناصر السامية القادمة من جزيرة العرب "العموريون". وهناك في فلسطين ولد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام.

نزل إبراهيم عليه السلام في شكيم قرب نابلس، ومنها انتقل إلى جهات رام الله والقدس، ومرّ بالخليل ثم ببئر السبع؛ حيث استقر حولها زمناً، ثم ارتحل إلى مصر، وكان ذلك يوافق تقريباً عهد الأسرة الـ ١١ أو الـ ١٢ لفراعنة مصر، وعاد من مصر ومعه "هاجر" التي أهداها الزعيم المصري له، وذكر في رواية أنها ابنة فرعون أو إحدى الأميرات، ثم عاد إلى فلسطين، فمرّ بجوار غزة؛ حيث التقى أبا مالك أمير غزة، ثم تجوّل بين بئر السبع والخليل، ثم صعد إلى القدس. ثم إن لوطاً عليه السلام انتقل إلى جنوب البحر الميت؛ حيث أُرسل لأهل تلك المنطقة، بينما مكث إبراهيم عليه السلام في جبال القدس والخليل. وقد ولد إسماعيل عليه السلام لإبراهيم من زوجته هاجر، ثم رزق بإسحق بعد ذلك بـ ١٣ عاماً من زوجته سارة[٢٩]. ويبدو أن إبراهيم رزق بأبنائه وهو في سنٍّ كبيرة نستشف ذلك من قوله تعالى على لسان سارة ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾[٣٠].

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام تردد على الحجاز أكثر من مرة، فقد أحضر إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، وقصة سعي هاجر بين الصفا والمروة، وتفجر ماء زمزم مشهورة، ثم إن إبراهيم عاد فبنى مع إسماعيل الكعبة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣١]. غير أن مركز استقرار إبراهيم كان في ظلّ فلسطين، وفيها توفي حيث دفن في مغارة المكفيلة قرب "الخليل"، وهي المدينة التي سميت باسمه عليه السلام وقيل إنه عمَّر ١٧٥ سنة[٣٢].

عاصر إبراهيم عليه السلام حاكم القدس "ملكي صادق" وكان على ما يبدو موحَّداً، وكان صديقاً له[٣٣]، وفي تلك الفترة كان المؤمنون بالله قلة نادرة، فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم قال لزوجته سارة عندما أتى على جبار من الجبابرة "ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك"[٣٤]، ويظهر أن ذلك حدث عندما ذهبا لمصر. ولعلنا نستشف هذا المعنى

من قوله تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾[٣٥]. وعلى كل حال فإن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل كان رسولاً من أولي العزم من الرسل، وكان له دوره الدعوي في نشر رسالة التوحيد في فلسطين؛ حيث كان يؤسس المساجد، ويقيم المحاريب لعبادة الله في كل مكان ذهب إليه. ويظهر أنه لم يجِد عناء أو عنتاً من أهل فلسطين، ولم يضطر لتركها بسبب دينه ودعوته، فظل مستقراً يتنقل بحرية فيها حتى توفاه الله.

أما لوط عليه السلام فقد استقر جنوب البحر الميت؛ حيث أرسل إلى قرية "سدوم" وهؤلاء كانوا يفعلون الفاحشة بالرجال "اللواط" وقد نهاهم لوط عن هذا، فأعرضوا واستكبروا، فانتقم الله منهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[٣٦]، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾[٣٧].

ويشير القرآن الكريم إلى أن إبراهيم عليه السلام قد عاصر رسالة لوط وهلاك قومه. فقد جاءته الملائكة، وبشروه بإسحق، وأخبروه بأنهم مرسلون لتدمير قوم لوط، فقال لهم ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾[٣٨]. وهكذا نصرَ الله سبحانه رسوله لوطاً، وطهّر أرضه المباركة من ﴿ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ ﴾[٣٩]، وجاءت البشرى لإبراهيم بإسحق ليحمل راية التوحيد من بعده على الأرض المباركة، وليتواصل انتشار النور الإلهي فيها.

وعاش **إسحق** في أرض فلسطين، ورزقه الله سبحانه يعقوب عليه السلام (إسرائيل) والذي يعدّه اليهود أباهم، وكان إسحق ويعقوب منارات للهدى بعد إبراهيم عليه السلام، وانظر إلى البيان القرآني في إيجازه وروعته ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[٤٠].

ولد **يعقوب** عليه السلام في القرن ١٨ ق.م (حوالي ١٧٥٠ ق.م) في فلسطين، غير أنه هاجر على ما يظهر إلى حرّان "الرها" وهناك تزوج وولد له ١١ ابناً، منهم يوسف عليه السلام

بينما ولد ابنه الـ ١٢ بنيامين في أرض كنعان "فلسطين". وقد رجع يعقوب عليه السلام وأبناؤه إلى فلسطين وسكن عند "سعّير" قرب الخليل[٤١]، وقصته وقصة ابنه **يوسف** مشهورة ومفصلة في سورة يوسف من القرآن الكريم. وهي التي تحكي تآمر إخوة يوسف على يوسف، وإلقاءه في البئر، واكتشاف قافلة له وبيعهم إياه في مصر، حيث شبّ هناك ودعا إلى الله، وصمد أمام فتنة النساء، وصبر في السجن حتى أكرمه الله بأن يوضع على خزائن مصر بعد تأويله الرؤيا وثبوت براءته. ثم إن يوسف استقدم أباه يعقوب وإخوته إلى مصر؛ حيث رد الله البصر إلى يعقوب بعد أن ابيضت عيناه على فراق يوسف، كما عفا يوسف عن إخوته. وتذكر بعض الروايات أن يعقوب عاش في مصر ١٧ سنة غير أنه دفن عليه السلام إلى جوار جده وأبيه إبراهيم وإسحق في الخليل[٤٢].

ويبدو أن تلك الفترة التي عاش فيها يعقوب وأبناؤه في مصر كانت توافق حكم الهكسوس لمصر، وهم أصلاً من غير المصريين، ويمثل حكمهم الأسرتين الـ ١٥ و١٦ من الأسر التي حكمت مصر، واللتين امتد حكمهما لمصر خلال الفترة ١٧٧٤–١٥٦٧ ق.م.

وعلى كل حال، يظهر أن يوسف وإخوته أبناء يعقوب نعموا بحرية العمل والعبادة في مصر، وكان لهم دورهم في الدعوة إلى التوحيد، غير أن الأمر لم يستمر على حاله في أجيالهم المتعاقبة، فوقع بنو إسرائيل تحت الاضطهاد الفرعوني حتى أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون لإخراج بني إسرائيل منها إلى الأرض المقدسة.

لقد كان بنو إسرائيل في تلك الفترة هم أهل الحق وحملة راية التوحيد، وكان فرعون مصر ذلك الزمان متكبراً متعجرفاً يدّعي الألوهية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[٤٣] وكان مفسداً يضطهد بني إسرائيل، فيذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٤٤]. وقد ولد **موسى** عليه السلام في هذا الجو وتربى، في بيت فرعون في تدبير رباني محكم، وهو الذي كان يجب أن يُقتل، وقصة موسى ونشأته ودعوته لفرعون وخروجه ببني إسرائيل وهلاك فرعون أشهر من أن تروى، وهي من أكبر وأكثر قصص القرآن ذكراً وتكراراً لما فيها من الدروس والعبر، ومن التعريف ببني إسرائيل وطبائعهم....

قدّر الله سبحانه أن يعطي تلك الفئة المؤمنة في ذلك الزمان أرض فلسطين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ

فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[45]. وأرسل موسى عليه السلام إلى فرعون بهذا الأمر، يعاونه في ذلك أخوه هارون الذي بُعث رسولاً أيضاً ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[46]. غير أن فرعون يأبى ويتكبر ولا يؤمن بالآيات والمعجزات التي جاء بها موسى. ويؤمن السحرة الذين حشدهم فرعون بدعوة موسى، ويسقط في يد فرعون[47]. ويبدو أن الذين أظهروا إيمانهم، وانضموا إلى بني إسرائيل كانوا عدداً محدوداً من فتيان بني إسرائيل، وكان إيمانهم مقروناً بخوف من أن يفتنهم فرعون ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[48]. ثم إنّ موسى عليه السلام قاد من آمن من قومه شرقاً فأتبعهم فرعون وجنوده، وحدثت قصة انشقاق البحر، وإنقاذ الله سبحانه لبني إسرائيل، وهلاك فرعون وجنوده ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[49].

ونقف هنا عند بعض الآراء والروايات التاريخية التي يظهر منها أن عدد من خرج مع موسى من مصر كان حوالي ستة آلاف فقط أو ١٥ ألفاً على بعض الروايات. أما تلك الفترة من الناحية التاريخية فكانت على ما يبدو خلال القرن الـ ١٣ قبل الميلاد. وكان خروج بني إسرائيل من مصر تحديداً في حوالي الثلث الأخير من ذلك القرن. وهي فترة توافق حكم "رعمسيس الثاني" المشهور في هذا العصر بـ"رمسيس الثاني"[50]، ومن تقدير الله أن جثة هذا الفرعون معروضة في أحد المتاحف المصرية الآن، وهذا يذكرنا بقوله سبحانه ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾[51]. بل وتؤخذ جثته بين فترة وأخرى لتعرض في متاحف البلاد الغربية، والناس الذين يزورون جثته ينشغلون بالتأمل في علم التحنيط دون أن يذكروا آيات الله في هذا الفرعون!! فارجع لتقرأ مرة أخرى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾[52].

وبعد إنقاذ الله سبحانه لبني إسرائيل تبرز فصول معاناة موسى وهارون معهم، ويظهر من صفات هؤلاء ضعف الإيمان والجهل والجبن، فما كادوا يخرجون من البحر حتى أتوا على قوم يعبدون أصناماً ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ ﴾[53]!!، ثم

عندما يذهب موسى لميقات ربه، يعبد قومه العجل على الرغم من وجود هارون بينهم!! ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾[54] ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾[55]، وكادوا يقتلون هارون عندما نهاهم عن كفرهم، وهو الذي قال لأخيه موسى ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾[56] وغيرها من المواقف.

ثم يقود موسى بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة، ويقول لهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾[57]، ولكنهم يختارون الارتداد على أدبارهم!! ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾[58]، ولا ينفع فيهم النصح فيكررون ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[59]!!....

ويعلق سيد قطب، رحمه الله، على موقف بني إسرائيل هذا فيقول: "إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل...، إن الخطر ماثل قريب، ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب الأرض، وأن الله قد كتبها لهم. فهم يريدون نصراً رخيصاً، لا ثمن له، ولا جهد فيه، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى" .... "وهكذا يخرج الجبناء فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم، هكذا في وقاحة العاجز لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مدّ اللسان... ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾! فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لا نريد ملكاً، ولا نريد عزاً، ولا نريد أرض ميعاد... ودونها لقاء الجبارين، هذه نهاية المطاف بموسى عليه السلام، نهاية الجهد الجهيد، والسفر الطويل، واحتمال الرذالات، والانحرافات، والالتواءات من بني إسرائيل!"[60].

ويتألم موسى عليه السلام ويلجأ إلى ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[61]، ويستجيب الله لنبيه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[62] وهكذا يحكم عليهم بالتيه بعد أن كانوا على أبواب الأرض المقدسة، ويظهر أن الله سبحانه قد حرمها على هذا الجيل من بني إسرائيل حتى ينشأ جيل غيره يصلب عوده في جوٍّ من خشونة الصحراء، فهذا الجيل "أفسده الذل، والاستعباد، والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل"[63].

وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يستطيع دخول الأرض المقدسة، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن موسى عندما حان أجله قال: "رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر" قال رسول الله ﷺ "والله لو أني عنده لأريتكم مكان قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر"[٦٤].

وبعد أن نشأ جيل صلب جديد، وبعد سنوات التيه قاد بني إسرائيل نبي لهم هو **يوشع بن نون** عليه السلام Joshua son of Nun ويسميه اليهود "يشوع" وهو الذي عبر بهم نهر الأردن، وانتصر على أعدائه، واحتل مدينة أريحا، وكان عبوره نهر الأردن حوالي ١١٩٠ ق.م، ثم غزا "عاي" بجوار رام الله، وحاول فتح القدس، ولكنه لم يستطع، وكان عدد اليهود قليلاً بحيث يصعب عليهم الانتشار، واحتلال كافة المناطق، والسيطرة عليها[٦٥]. ومما نعلمه عن يوشع من حديث رسول الله ﷺ أن يوشع التقى أعداءه في معركة طالت حتى كادت الشمس أن تغيب، فدعا الله ألا تغيب الشمس حتى تنتهي المعركة، وينتصر، فاستجاب الله لدعوته، فأخر غروب الشمس حتى انتصر يوشع[٦٦].

وبعد يوشع عليه السلام تولى قيادة اليهود زعماء عرفوا بـ"القضاة" وعرف عصرهم بـ"عصر القضاة". وعلى الرغم من محاولاتهم إصلاح قومهم فقد ساد عصرهم الذي دام حوالي ١٥٠ سنة الفوضى والنكبات والخلافات والانحلال الخلقي والديني بين بني إسرائيل. وقد استوطنوا في تلك الفترة في الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس وفي السهول الشمالية في فلسطين[٦٧].

ولما شعر بنو إسرائيل بحالهم المتردي طلب الملأ منهم من نبيّ لهم، يقال أن اسمه "صموئيل"، أن يبعث عليهم ملكاً يقاتلون تحت رايته في سبيل الله، ولكن نبيهم الذي يعرف طباعهم قال لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ﴾ وأخبرهم نبيهم أن الله قد بعث عليهم طالوت ملكاً فاعترضوا بأنهم ﴿أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ وأنه ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ﴾ فقال لهم نبيهم إن الله اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم.

وتولى القائد المؤمن طالوت المُلك على بني إسرائيل، وكان ذلك حوالي ١٠٢٥ ق.م، وتسميه الروايات الإسرائيلية "شاؤول"، وتساقط أتباعه في الاختبار عندما ابتلاهم

الله بنهر، ومنعهم من الشرب منه ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ ثم تساقط الكثير من القليل الذي بقي في الاختبار التالي عندما رأوا جالوت وجنوده فقالوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ولم تثبت في النهاية إلا ثلة قليلة مؤمنة، أعطاها الله سبحانه النصر، وقتل داود عليه السلام –وكان فتى في هذه المعركة– جالوت بالمقلاع[68].

ولا نعرف بعد ذلك ما حصل يقيناً لطالوت، غير أن الروايات الإسرائيلية تذكر أنه في ١٠٠٤ ق.م تقريباً استطاع الفلسطيون الانتصار على طالوت "شاؤول" في معركة جلبوع، وأنهم قتلوا ثلاثة من أبنائه، وأكرهوه على الانتحار وقطعوا رأسه، وسمّروا جسده وأجساد أولاده على سور مدينة بيت شان "بيسان"[69].

وبتولي **داود** عليه السلام الحُكم بعد طالوت ١٠٠٤ ق.م، ينفتح فصل جديد في تاريخ بني إسرائيل وفي انتشار وسيطرة دعوة التوحيد على الأرض المباركة. إذ يُعدّ داود عليه السلام المؤسس الحقيقي لمملكة بني إسرائيل في فلسطين، فقد قضى اليهود الفترة التي سبقت داود دون أن يملكوا سوى سلطان ضئيل في أجزاء محدودة من فلسطين، ودون أن يستطيعوا أن يكونوا سادتها...، ومضى جميع عصر القضاة في القتال الجزئي بجماعات صغيرة، حيث تُدافع كل جماعة (قبيلة) بمشقة عن قطعة الأرض التي استولت عليها[70].

ولد داود عليه السلام في بيت لحم، واستمر حكمه أربعين عاماً تقريباً (١٠٠٤–٩٦٣ ق.م) وكانت عاصمة حكمه في البداية مدينة الخليل حيث مكث فيها سبع سنوات، ثم إنه فتح القدس حوالي ٩٩٥ ق.م فنقل عاصمته إليها، وواصل حربه ضدّ الأقوام الكافرة في الأرض المقدسة حتى تمكن من إخضاعها ٩٩٠ ق.م تقريباً، وأجبر دمشق على دفع الخراج، وأخضع المؤابيين والأيدوميين والعمونيين[71]. وهكذا سيطر أتباع التوحيد، في ذلك الزمان، على معظم أنحاء فلسطين. غير أن حدود مملكة داود عليه السلام في أغلب الظن لم تلامس البحر إلا من مكان قريب من يوبا "يافا"، ويبدو أن حدود المملكة الإسرائيلية في أوْجِها كانت ١٢٠ ميلاً (١٩١ كيلو متراً) في أطول أطوالها و٦٠ ميلاً (٩٧ كيلو متراً) في أعرض عرضها، وأقل من ذلك بكثير في أغلب الأحيان، أي أن مساحتها لم تزد عن ٧٢٠٠ ميل مربع أي حوالي ١٩ ألف كم٢، وهذا أقل من مساحة فلسطين الحالية بحوالي ثمانية آلاف كم٢. لقد سيطر اليهود على المناطق المرتفعة لكنهم أخفقوا في السيطرة على السهول وخصوصاً أجزاء كبيرة من الساحل الفلسطيني، وهي أجزاء لم تتم لدولتهم السيطرة عليها إطلاقاً طوال قيامها[72].

وإذا كان يهود هذا الزمان يفاخرون بداود عليه السلام ويعدّون أنفسهم حاملي لوائه وميراثه، فإن المسلمين يعدّون أنفسهم أحق بداود من بني إسرائيل، وهم يؤمنون به نبياً من أنبياء الله، ويحبونه ويكرمونه، ويفاخرون به لأنه أنشأ دولة الإيمان القائمة على التوحيد في فلسطين، وهم السائرون على دربه الحاملون لرايته في هذا الزمان بعد أن نكص عنها بنو إسرائيل، وكفروا وأشركوا، ونقضوا عهودهم مع الله.

ونعلم من القرآن الكريم أن الله سبحانه قد رزق داود عليه السلام العلم والحكمة، وأنزل عليه الزبور، وأنه أوتي ملكاً قوياً، وأن الجبال والطيور كانت تسبح معه، وتذكر الله عندما كان يتلو مزاميره بصوته الخاشع المؤثر ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾[٧٣]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[٧٤]. وألانَ الله سبحانه لداود الحديد فكان بين يديه كالشمع أو كالعجين يشكله كيف شاء دون حاجة لصهره في النار، وهذه معجزة أعطاها الله لداود. وكان داود، بالرغم مما أوتي من ملك، يعمل بالحدادة، ولا يأكل إلا من عمل يده. وقد طور داود صناعة الدروع في زمانه، فبعد أن كان الدرع صفيحة واحدة تثقل حاملها، وتعيق حركته هداه الله إلى أن تكون حلقاً متداخلة تسهل الحركة، ولا تنفذ منها السهام... ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾[٧٥]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾﴾[٧٦].

وورث **سليمان** عليه السلام أباه داود في العلم والحكم والنبوة، وتشير الروايات إلى أن سليمان كان واحداً من ١٩ ابناً لداود، وأن سليمان ولد في القدس، وأن حكمه في الأرض المباركة استمر حوالي أربعين عاماً (٩٦٣-٩٢٣ ق.م)[٧٧]. وقد وهب الله سبحانه سليمان ملكاً لا يحصل لأحد بعده، فقد سخر الله له الجن لخدمته، كما سخر له الريح تجري بأمره، واشتهر سليمان بحكمته وعدله وقوة سلطانه، كما علمه الله لغة الطير والحيوانات.

لقد كان ملك سليمان بحد ذاته معجزة ربانية أعطاها الله له دلالة على نبوته، وقد نعمت فلسطين بهذا الحكم الإيماني المعجزة الذي تدعمه قوى الجن والإنس والطير

والريح، وكرم الله سليمان بمعجزة إسالة النحاس له حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض. وشهدت مملكة سليمان حركة بناء وعمران ضخمة، كما امتد نفوذه ليصل مملكة سبأ في اليمن.

ولقد جاء ذكر سليمان مرات عديدة في القرآن الكريم مشيراً إلى علمه وملكه ونبوته، قال تعالى متحدثاً عن سليمان ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٤٠)﴾[٧٨].

وقال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ (١٧)﴾[٧٩]، وقال تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٢) يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (١٣)﴾[٨٠]، وقال تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ (٨١) وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ (٨٢)﴾[٨١]. وقد عرفنا من القرآن قصص سليمان مع النملة[٨٢] ومع الهدهد[٨٣] ومع بلقيس ملكة سبأ[٨٤] حيث انتهى الأمر بإسلامها ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٨٥]، وقصته في القضاء ببعض الأمور[٨٦]، وقصته في حبه للخيل ورعايته لها[٨٧].

أما في حديث رسول الله ﷺ فنستشف منه أن سليمان كان ذا قوة بدنية هائلة، وأنه كان محباً للجهاد في سبيل الله، وأنه كان له زوجات كثيرات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين، وفي رواية: بمئة امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون"[٨٨].

وكانت وفاة سليمان عليه السلام آية من آيات الله ودرساً من الدروس للإنس والجن، بأن الجن لا يعلمون الغيب؛ إذ إن سليمان عليه السلام وقف يصلي في المحراب وهو متكئ على

عصاه فمات وهو كذلك، ومكث فترة طويلة والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة دون أن تدري بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط على الأرض، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[٨٩].

رابعاً: مملكتا إسرائيل ويهودا:

استمر حكم داود وسليمان حوالي ثمانين عاماً وهو العصر الذهبي الذي حُكمت فيه فلسطين تحت راية التوحيد والإيمان قبل الفتح الإسلامي لها.

وبعد وفاة سليمان انقسمت مملكته إلى قسمين شكلا دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان، وعانتا من الفساد الداخلي والضعف العسكري والسياسي والنفوذ الخارجي، فعند وفاة سليمان اجتمع ممثلو قبائل بني إسرائيل الـ١٢ في شكيم "قرب نابلس" لمبايعة رحبعام بن سليمان، ولكن ممثلي عشر قبائل اتفقوا على عدم مبايعته؛ لأنه لم يعدهم، حسب الروايات، بتخفيف الضرائب، وانتخبوا بدلاً منه "يربعام" من قبيلة أفرايم ملكاً، وأطلقوا اسم "إسرائيل" على مملكتهم، وعاصمتهم شكيم (ثم ترزة ثم السامرة). أما قبيلتا يهودا وبنيامين فقد حافظتا على ولائهما لرحبعام بن سليمان Rehoboam ben Solomon، وكوّنتا تحت حكمه مملكة "يهودا" وعاصمتها القدس[٩٠].

أما **مملكة "إسرائيل"** فقد استمرت خلال الفترة ٩٢٣– ٧٢١ ق.م، وقد سمتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء "المملكة الذيلية"، وقد خسرت بسبب غزو الدمشقيين كل الأراضي الواقعة شرقي الأردن وشمال اليرموك. وكان "عمري" أشهر ملوك مملكة إسرائيل ٨٨٥–٨٧٤ ق.م بني السامرة، وجعلها عاصمته، أما خليفته "آخاب" ٨٧٤–٨٥٢ ق.م، فقد سمح لزوجته "إيزابل" بنت ملك صيدا وصور بفرض عبادة الإله الفينيقي "بعل" مما أدى إلى ثورة قام بها أحد الضباط واسمه "ياهو" أطاحت بآخاب، وأعاد عبادة يهوه Yahweh.

وفي عهد "يربعام الثاني" ٧٨٥–٧٤٥ ق.م وهو الثالث من سلالة ياهو توسعت مملكته شمالاً على حساب الآراميين، لكن ذلك لم يستمر طويلاً؛ إذ أدى ظهور الملك الآشوري "تجلات بلسَّر الثالث" ٧٤٥–٧٢٧ ق.م إلى الحد من هذا التوسع، وقام خليفته "شلمنصر الخامس"، ومن بعده "سرجون الثاني" بتأديب "هوشع" آخر

ملوك إسرائيل، وقضى على دولته سنة ٧٢١ ق.م. وقام الآشوريون بنقل سكان إسرائيل إلى حران والخابور وكردستان وفارس وأحلوا مكانهم جماعات من الآراميين. ويظهر أن المنفيين الإسرائيليين اندمجوا تماماً في الشعوب المجاورة لهم في المنفى، فلم يبقَ بعد ذلك أثر للأسباط العشرة من بني إسرائيل[٩١].

أما **مملكة "يهودا"** ٩٢٣–٥٨٦ ق.م فحسب الروايات الإسرائيلية (وهي تؤخذ بتفحص وحذر؛ حيث لا يوجد بين أيدينا ما ينفي أو يثبت الكثير مما فيها) فقد انتشرت في حكم يربعام بن سليمان ٩٢٣–٩١٦ ق.م العبادة الوثنية، وفسدت أخلاق القوم بشيوع اللواط، وعندما خلفه ابنه "أبيام" ٩١٥–٩١٣ ق.م بقيت الأخلاق فاسدة...، وعندما حكم يهورام بن يهوشفاط Jehoram ben Jehoshafat ٨٤٩–٨٤٢ ق.م قَتَل إخوته الستة مع جماعة من رؤساء القوم...، أما يوحاز بن يوتام ٧٣٥–٧١٥ ق.م، فيُقال أنه علق قلبه بحب الأوثان حتى إنه ضحى بأولاده على مذابح الآلهة الوثنية، وأطلق لنفسه عنان الشهوات والشرور. وأما منسي بن حزقيا Manasseh ben Hezekiah الذي حكم ٦٨٧–٦٤٢ ق.م فيُقال أنه أضلّ قومه عن عبادة الله، وأقام معابد وثنية[٩٢].

ولسنا نستغرب هذا عن بني إسرائيل فتلك أخلاقهم مع موسى عليه السلام تشهد بذلك، كما أن القرآن الكريم يشير إلى أنهم غيروا وبدلوا وحرفوا كلام الله وقتلوا الأنبياء ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[٩٣]. ويحدثنا التاريخ أنهم قتلوا النبي "حزقيال" حيث قتله قاضٍ من قضاتهم، لأنه نهاه عن منكرات فعلها؛ وأن الملك منسي (بن حزقيا) قتل النبي أشعيا بن أموص، إذ أمر بنشره على جذع شجرة، لأنه نصحه ووعظه؛ وأن اليهود قتلوا النبي إرميا رجماً بالحجارة، لأنه وبخهم على منكرات فعلوها[٩٤].

ويظهر أن مملكة يهودا قد اعترتها عوامل الضعف والوقوع تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، فقد هوجمت مرات عديدة وهزمت، ودخل المهاجمون القدس نفسها، كما فعل شيشق فرعون مصر عندما دخل القدس واستولى على ما فيها (أواخر القرن ١٠ ق.م)، وهاجم الفلسطينيون والعرب القدس في عهد يهورام ٨٤٩–٨٤٢ ق.م فدخلوها واستولوا على قصر يهورام وسبوا بنيه ونساءه، أما الملك حزقيا ٧١٥–٦٨٧ ق.م فقد اضطر لإعلان خضوعه التام لملك الآشوريين سرجون الثاني بعد أن أسقط مملكة إسرائيل.

ودفع منسي بن حزقيا الجزية لـ"أسرحدون" Esarhaddon و"آشور بانيبال" Ashurbanipal ملكي آشور...، وقد قيد الآشوريون هذا الملك بسلاسل من نحاس، وذهبوا به إلى بابل، ثم عاد للقدس ومات بها. وأيام حكم "يوشيا بن آمون" ٦٤٠–٦٠٩ ق.م تقدم فرعون مصر "نخاو" إلى فلسطين، حيث هزم يوشيا، وأرسله لمصر أسيراً؛ حيث مات هناك، ووضع مكانه "يهوياقيم بن يوشيا" ٦٠٩–٥٩٨ ق.م، وقد أرهق هذا الحاكم الشعب بالضرائب ليدفع الجزية لسيده المصري، ورجع إلى عبادة الأوثان. وفي أيام يهوياقيم هزم نبوخذ نصر "بختنصر" Nebuchadnezzar البابلي "نخاو" المصري شمال سورية ٦٠٥ ق.م، وزحف إلى أن وصل للقدس، وأخضع يهوياقيم وأذله، وأدخل البلد تحت نفوذه، ولما ثار يهوياقيم على بختنصر دخل الأخير وجيشه القدس، وقيد يهوياقيم بسلاسل من نحاس؛ حيث مات بعد مدة[٩٥].

وعندما حكم يهوياكين ٥٩٨–٥٩٧ ق.م حاصر بختنصر القدس، وأَخَذَ الملك يهوياكين مع عائلته ورؤساء اليهود وحوالي عشرة آلاف من سكانها (فيما يعرف بالسبي الأول) وبعض خزائن الهيكل إلى بابل، ثم إن بختنصر عيَّن صدقيا بن يوشيا Zedekiah son of Josiah ٥٩٧–٥٨٦ ق.م حيث أقسم له يمين الولاء، غير أن صدقيا ثار في آخر حكمه على البابليين، الذين ما لبثوا أن زحفوا للقدس وحاصروها ١٨ شهراً حتى أسقطوها، وأُخذ صدقيا أسيراً وربط بسلاسل من نحاس وسيق إلى بابل؛ حيث يُذكر أنه قُتل أبناؤه أمامه وسُملت عيونه، وخرب نبوخذ نصر القدس، ودمر الهيكل ونهب الخزائن والثروات، وجمع حوالي ٤٠ ألفاً من اليهود وسباهم إلى بابل (السبي البابلي الثاني) وهاجر من بقي من يهود إلى مصر ومنهم النبي إرميا. وبذلك سقطت مملكة يهودا ٥٨٦ ق.م[٩٦].

ويسجل التلمود أن سقوط دولة اليهود وتدميرها لم يكن إلا "عندما بلغت ذنوب بني إسرائيل مبلغها، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذيرات إرميا". وبعد تدمير الهيكل، وجه النبي إرميا كلامه إلى نبوخذ نصر قائلاً: "لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الله المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب"[٩٧].

وتشير التوراة إلى آثام بني إسرائيل التي استحقوا بسببها سقوط مملكتهم، فتذكر على لسان أشعيا، وهو أحد أنبيائهم قوله "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الآثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل،

ارتدوا إلى وراء" سفر أشعيا – الإصحاح الأول (٤)، وتقول التوراة "والأرض تدنست تحت سكانها؛ لأنهم تعدوا الشرائع، غيروا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي" سفر أشعيا – الإصحاح ٢٤ (٥).

خامساً: تداول الهيمنة الفارسية والإغريقية والرومانية على فلسطين:

عاش اليهود بعد سقوط ملكهم في فلسطين مرحلة "السبي البابلي" في العراق، وهي الفترة التي يظهر أنهم بدأوا فيها بتدوين التوراة، أي بعد ما لا يقل عن ٧٠٠ سنة من ظهور موسى عليه السلام، ولم ينتهوا من تدوينها إلا أواخر القرن الثاني ق.م (بعد أكثر من ٤٠٠ سنة) وخلال هذه الفترة كان اليهود قد تركوا الالتزام بدينهم، وقلدوا الدول التي يعيشون فيها بعبادة الأوثان.

ولاحت الفرصة لليهود للعودة مرة أخرى إلى فلسطين عندما أسقط الإمبراطور الفارسي قورش الثاني Cyrus II الدولة البابلية الكلدانية ٥٣٩ ق.م بمساعدة يهودية، وانتصر على ميديا، ومدَّ نفوذه إلى فلسطين التي دخلت في عصر السيطرة الفارسية ٥٣٩–٣٣٢ ق.م، فقد سمح قورش بعودة اليهود إلى فلسطين كما سمح لهم بإعادة بناء الهيكل في القدس، غير أن القليل من اليهود انتهزوا الفرصة؛ لأن الكثير من السبي أعجبتهم الأرض الجديدة، ولكن القلة المتشددة التي عارضت الاندماج حفظت بني إسرائيل من الاندثار.

ويذكر أحد المؤرخين أن عدد الراجعين كانوا ٤٢ ألفاً وهم أقلية بالنسبة للعدد الحقيقي. وقام هؤلاء اليهود ببناء الهيكل؛ حيث اكتمل بناؤه في ٥١٥ ق.م، وفي منطقة القدس تمتع اليهود بنوع من **الاستقلال الذاتي تحت الهيمنة الفارسية، وهو حكم لم يكن يتجاوز نصف قطره عشرين كيلو متراً** في أي اتجاه (أي ما لا يزيد عن ١٢٥٧ كم^2، وهو أقل من ٥٪ من مساحة فلسطين)[٩٨].

وفي ٣٣٢ ق.م احتل الإسكندر المقدوني Alexander III of Macedon فلسطين في إطار حملته الشهيرة التي احتل خلالها بلاد الشام ومصر والعراق وإيران وأجزاء من الهند، وقد ترك الإسكندر اليهود دون أن يمسهم، ومنذ ذلك التاريخ دخلت فلسطين في عصر السيطرة **الهللينية الإغريقية** الذي استمر حتى ٦٣ ق.م.

وبعد موت الإسكندر نشب نزاع بين قادته أدى إلى توزيع مملكته بينهم فكانت فلسطين (وباقي سورية المجوفة من جنوب اللاذقية ولبنان وأجزاء من سورية كدمشق) ومصر وبرقة (ليبيا) وبعض جزر البحر الإيجي من نصيب القائد بطليموس الأول Ptolemy I Soter، وسمي حكمه وحكم خلفائه من بعده بـ"عصر البطالمة" وقد استمر في فلسطين من ٣٠٢–١٩٨ ق.م، وقد عطف البطالمة على اليهود الذين كان يدير شؤونهم "الكاهن الأكبر". ثم إن السلوقيين (الذين كان نصيبهم بعد وفاة الإسكندر سورية الشمالية وآسيا الصغرى والرافدين والهضبة الإيرانية) استطاعوا السيطرة على فلسطين إثر معركة بانيون Paneion التي حقق فيها الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث Antiochus III the Great نصراً كاملاً على البطالمة، وقد استمرت سيطرة السلوقيين على فلسطين حتى ٦٣ ق.م[٩٩].

وقد حاول السلوقيون صبغ اليهود بالصبغة الهللينية الإغريقية، فحاول أنطيوخوس الرابع Antiochus IV Epiphanes صرف اليهود عن دينهم وأرسل في ١٦٧ ق.م أحد قادته وكلفه إلغاء الطقوس الدينية اليهودية والاستعاضة بالإله زيوس Zeus الأوليمبي عن الإله يهوه، وعيَّن لهم كاهناً إغريقياً وثنياً في القدس، وحرَّم الختان، واقتناء الأسفار المقدسة، وأوجب أكل لحم الخنزير، وبموجب هذه الأوامر انقسم اليهود إلى قسمين: قسم انصرف عن الشريعة مقتنعاً أو مكرهاً وهم "المتهلنون" أو "المتأغرقون" وأقاموا في القدس والمدن الإغريقية، وقسم آخر أقل عدداً هربوا من القدس، وأطلق عليهم اسم "حزب القديسين". وبشكل عام تأثر اليهود بالإغريقية فحلت الآرامية محل العبرية، وأصبحت اليونانية لغة الطبقة المثقفة، ونشأ في اليهود جماعة تناصر اليونانيين تمكنوا من الوصول للحكم بقيادة كبير الكهنة جيسون Jason[١٠٠].

أما الذين هربوا من القدس "حزب القديسين" فقد اعتمدوا القيادتهم متاثياس (متاييه) كبير عائلة الأشمونيين، والذي مات بعد فترة قصيرة، فخلفه ابنه يهوذا الملقب "المكابي" أي المطرقة، وقد ثار على السلوقيين وانتصر عليهم أكثر من مرة ١٦٦–١٦٥ ق.م، وانضم إليه قسم كبير من المترددين اليهود. وهذا دفع أنطيوخوس الرابع لإيقاف اضطهاد اليهود فسمح لهم بممارسة دينهم جنباً إلى جنب مع أنصار التأغرق. وعاد "المكابيون" إلى القدس في ١٦٤/١/٢٥ ق.م، وما زال اليهود يحتفلون بهذه المناسبة تحت اسم عيد الأنوار "حانوكا" Hanukkah[١٠١].

تأسس لليهود بعد ذلك **حكم ذاتي** في القدس أخذ يتسع أو يضيق وتزداد مظاهر استقلاله أو تضعف حسب صراع القوى الكبرى على فلسطين (الرومان، البطالمة، السلوقيين...). وأصبح الحكم وراثياً في ذرية يهودا المكابي، وقد حكم المكابيون كـ"كبار كهنة"، وسرعان ما سموا أنفسهم ملوكاً على الرغم من أنهم كانوا تابعين، ويدفعون الخراج للسلوقيين، وفي ١٤٣ ق.م أعفى الإمبراطور ديمتريوس الثاني Demetrius II اليهود من الضرائب، وأعطى لقب حاكم لـ"سيمون" Simon واتفق اليهود على اعتباره ملكهم، وبذلك تأسس حكم ملكي اعترف به السلوقيون الذين "أعطوا سيمون أيضاً حق صك النقود"[١٠٢].

وفي عهد الملك اليهودي ألكسندر جانيوس Alexander Jannaeus ١٠٣–٧٦ ق.م شمل حكمه شرق الأردن الذي سماه اليهود بيريا، وتوغل إلى الساحل أيضاً، وكادت حدود مملكته تلامس حدود مملكة سليمان. وقد حكمت بعده أرملته سالوم ألكسندرا Alexandra Salome حتى ٦٧ ق.م، ثم تخاصم ابناها على الحكم، وتدخل العرب الأنباط في مساعدة هيركانوس الثاني Hyrcanus II ضدّ أخيه أريستوبولوس Aristobulus. وفي ٦٣ ق.م قضى القائد الروماني الشهير بومبي Pompey على "الدويلة" اليهودية، ونصَّب هيركانوس الثاني كبيراً للكهنة، وحطَّم أسوار القدس، وبتر الأجزاء الأخرى من أيدي اليهود، وأبقى على استمرار الأسرة المكابية في ظلّ الرومان[١٠٣].

وفي الفترة ٤٧–٤٠ ق.م دخلت "المستعمرة" اليهودية تحت سيطرة حاكم أيدومية "أنتي بيتر" Antipater I the Idumaean وفي ٤٠ ق.م هاجم الفرس فلسطين ونصبوا "أنتي جونوس" Antigonus أخو "هركانوس الثاني" حاكماً وكبيراً للكهنة، حيث استمر حكم "أنتي جونوس" ثلاث سنوات، وكان هو آخر حكام الأسرة المكابية.

وفي ٣٧ ق.م انتصر الرومان على الفرس، واستعادوا السيطرة على فلسطين، ونصبوا هيردوس Herod بن أنتي بيتر حاكماً، وبالرغم من أن هيردوس قد تهوّد، وحاول استرضاء اليهود إلا أنه كان مبغوضاً من قبلهم، وكان هو بشكل عام طاغية ظالماً شديد الولاء للرومان، وقد قام بتجديد الهيكل فضاعف مساحته ورفع سطحه وجعله على جانب عظيم من الإتقان والهندسة[١٠٤].

استمر حكم هيردوس حتى سنة ٤ ق.م، وعاصره من الأنبياء زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما عاصرته مريم بنت عمران عليها السلام، وفي آخر أيامه ولد المسيح عليه السلام.

كان **زكريا** عليه السلام يعمل نجاراً، وقد تولى كفالة مريم بنت عمران، ورزقه الله سبحانه ولداً هو **يحيى** عليه السلام، بعد أن بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً. وكان لزكريا ويحيى جهود كبيرة في دعوة بني إسرائيل للهداية والحق. وقد جاءت البشارة بيحيى بأنه سيكون ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[105]، أي يسود قومه ويفوقهم ويحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ويكون نبياً[106]. فلما ولد يحيى وبلغ السن الذي يؤمر فيه، قال له تعالى ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[107]، أي خُذ ما في كتاب الله بجد واجتهاد، وآتاه الله الحكمة ورجاحة العقل منذ صغره ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[108]. وقام يحيى بواجبه في الدعوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتهر في الأدبيات المسيحية باسم "يوحنا المعمدان"؛ والمعمدان نسبة إلى ما ذُكر أنه كان يُعمِّد الناس (يغسلهم بالماء) لتطهيرهم من الخطايا، وكان يحيى يبشر بقدوم المسيح عليه السلام.

وقد دفع يحيى عليه السلام حياته ثمناً لموقفه الصلب من رغبة هيردوس بالزواج من ابنة أخيه (وقيل ابنة أخته) حين أنكر ذلك، وكانت هذه الفتاة واسمها "هيروديا" بارعة الجمال، فحقدت أم الفتاة والفتاة على يحيى، وتزينت البنت، ودخلت على هيردوس فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فطلب منها أن تتمنى فتمنت رأس يحيى، فاستجاب لها وقتل يحيى وقدم رأسه على طبق هدية لها[109] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[110].

ولم يكتفِ هيردوس بجريمته هذه؛ إذ إنه قتل زكريا عليه السلام أيضاً؛ حيث نشره بالمنشار؛ لأنه دافع عن ابنه يحيى، وعارض صحة الزواج لمانع القرابة[111].

أما **مريم**، سيدة نساء العالمين، فقد ولدت قبل يحيى عليهما السلام، وكانت أمها قد نذرتها وهي جنين في بطنها في سبيل الله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[112] واصطفى الله مريم ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[113].

وقدر الله سبحانه أن يجري معجزته العظيمة بأن تلد مريم ابنها المسيح من دون أب، وأن يتم ذلك بكلمة من الله "كن"، ونقف هنا لنقرأ النص القرآني الموجز المعجز حول قصة المسيح ورسالته ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ

يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[١١٤].

ولد **عيسى** بن مريم حوالي ٤ ق.م في بيت لحم، وتذكر الروايات أن مريم هربت بعيسى مع يوسف "النجار" إلى مصر خوفاً على ابنها من ظلم هيرودس وبطشه، ثم ما لبثوا أن عادوا بسرعة إلى مدينة الناصرة؛ حيث عاش طفولته وشبّ على عوده هناك، ولذلك عرف باسم "يسوع الناصري" وسمي أتباعه "النصارى"[١١٥].

لقد كان عيسى بن مريم آية من آيات الله حسم حقيقة أمره أمام الناس وهو رضيع في مهده، فأكد أنه عبد الله وبشرهم بنبوته ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾[١١٦].

وهناك في الأرض المباركة فلسطين قام عيسى عليه السلام بواجب الدعوة إلى الله، وبذل جهوداً كبيرة في هداية بني إسرائيل، وبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾[١١٧]. وعلى الرغم من المعجزات التي أجراها الله على يديه وما تضمنته رسالته من حقّ ونور إلا أن بني إسرائيل جحدوا وأنكروا وناصبوه العداء، ولم يؤمن به إلا عدد ضئيل.

ويذكر التاريخ أنه لما جاء عيد الفصح في ٣٠م ذهب المسيح إلى أورشليم (القدس) وزار الهيكل واستنكر وجود الصيارفة والباعة[١١٨]، وفي إنجيل متى (١٢/٢١-١٣) "ودخل يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام، وقال لهم: مكتوب أن بيتي [هكذا النص] بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص"[١١٩].

وقد حقد زعماء اليهود والوجهاء على المسيح، وفي إنجيل لوقا (٤٧/١٩) "وكان يعلّم كل يوم في الهيكل وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه"[١٢٠]، وسارع مجلس اليهود الديني "السنهدرين" Sanhedrin إلى الاجتماع، وقرر القبض على المسيح، وأصدر في الحال حكماً بإعدامه بتهمة التجديف، والخروج عن الدين، ثم إنهم ساقوه إلى الوالي الروماني –في ذلك الوقت– بيلاطس البنطي Pontius Pilate، الذي

يحق له وحده تنفيذ الإعدام، ولم يجد هذا جرماً من المسيح يوجب قتله، فقامت قيامة خصومه من اليهود، وأخذوا يصرخون بصوت واحد: اصلبه، اصلبه "دمه علينا وعلى أولادنا"[121].

وقد اضطر كارهاً إلى الموافقة على إعدامه، غير أن الله سبحانه أدركه برحمته، فرفعه إليه في الوقت الذي ظنّ فيه اليهود أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[122].

وطويت هذه الصفحة من تاريخ الصراع بين الحق والباطل على الأرض المقدسة، فقد كذب بنو إسرائيل بآخر نبي أرسل إليهم، واتهموه بالسحر وتآمروا عليه.

وآمن بعيسى **الحواريون**، وأخذوا ينشرون دعوته من بعده، ويلاقون في سبيلها الاضطهاد والأذى، واستمر الحواريون في دعوة اليهود، وكانوا يخطبون في الهيكل، ولما تضاعف عدد النصارى بعد بضع سنوات خاف اليهود من انتشار الدعوة، وطلبوا القبض على بطرس Peter وغيره لمحاكمتهم أمام "السنهدرين" إلا أن المجلس اكتفى بجلدهم وأطلق سراحهم، وهرب المهتدون الجدد إلى السامرة وقيسارية وأنطاكية فأنشأوا الجماعات المسيحية. ووصل بطرس إلى روما؛ حيث أنشأ جماعة مسيحية، وكان يركز في دعوته على اليهود، أمّا بولس Paul فكان يدعو الوثنيين كما يدعو اليهود، واستخدم في دعوته المصطلحات والمفاهيم الفلسفية لتفسير المسيحية بما يتلائم مع الثقافة الهلنستية السائدة آنذاك.

وانتهى الأمر ببولس وبطرس بأن حكم عليهما بالإعدام في عهد الإمبراطور الروماني نيرون Nerone في ٦٤م، غير أن رسالة عيسى عليه السلام ما لبثت أن تعرضت للتشويه، وما لبث الإنجيل الذي جاء به أن تعرض للتحريف، وتأثر أتباعه من بعده بالحضارة الهلنستية ونظام الحكم الروماني، واختلطت دعوتهم بالكثير من التقاليد والطقوس والتعاليم السائدة في البلدان التي انتشرت فيها، فأصبح من السهل على الشعوب اعتناقها، غير أن المسيحية لم تنطلق من إطارها المحدود إلا بعد أن آمن بها الإمبراطور قسطنطين Constantine في ٣٢٥م وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية[123]، وقد اهتم قسطنطين بفلسطين، وبنى في القدس كنيسة الضريح المقدس التي أصبحت أعظم الكنائس المسيحية شأناً، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وعلى كل حال، فقد دخل أهل فلسطين في ذلك الوقت في النصرانية إلى أن جاء الفتح الإسلامي لها[124].

سادساً: نهاية الوجود السياسي اليهودي في فلسطين:

ونعود مرة أخرى لنرى أحوال بني إسرائيل في فلسطين بعد صعود المسيح، فقد كان الرومان قد بدأوا حكماً مباشراً على القدس وباقي فلسطين منذ ٦م، بعد أن خلعوا أرخيليوس الذي خلف أباه هيردوس لسوء حكمه، وفي عهد واليهم بيلاطس البنطي ٢٦–٣٦م حدثت وقائع السيد المسيح عليه السلام، وقد ثار اليهود على حكم الرومان في تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٦م في عهد الإمبراطور نيرون، واستطاع القائد العسكري الروماني تيتوس Titus إخماد هذه الثورة في أيلول/ سبتمبر ٧٠م بعد أن استمرت أربع سنوات فدخل القدس بعد حصار شديد، وأعمل القتل والنهب والحرق، ودمر الهيكل الذي بناه هيردوس حتى لم يبقَ حجر على حجر، وأصبحت مدينة القدس قاعاً صفصفاً، وبيع كثير من الأسرى عبيداً في أسواق الإمبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان، وكانت أمنية اليهودي أن يشتريه من يرفق به، فلا يرسله إلى حلقة المصارعة مع الوحوش التي اعتاد الرومان التلذذ بمنظرها وهي تلتهم الناس، وبنى هذا القائد قوساً في روما بمناسبة نصره على اليهود، وهو ما يزال قائماً إلى الآن، وعليه نقوش ذكرى ذلك الانتصار، ويُرى فيه الشمعدان ذو الرؤوس السبعة المشهور عند اليهود، والذي أخذه من الهيكل[١٢٥].

ثار اليهود مرة أخرى على الرومان بقيادة باركوخبا Bar Kokhba واسمه الأصلي سيمون Simon واستمرت ثورتهم ثلاث سنوات ١٣٢–١٣٥م، واجتمع تحت لوائه عدد كبير من اليهود، واستطاع احتلال القدس، غير أن الإمبراطور الروماني هادريان Hadrian أرسل جيشاً كبيراً بقيادة جوليوس سيفروس Julius Severus الذي احتل القدس ثانية وهزم اليهود، الذين هربوا إلى بتِّير؛ حيث ما تزال خرائب القلعة التي تحصن فيها اليهود، وهزموا، وسماها العرب "خربة اليهود". وقد نكَّل هادريان بالثائرين أشد تنكيل، ودمر "أورشليم" وحرث موقعها الذي كانت قائمة عليه، وقتل وسبى أعداداً كبيرة من اليهود، ثم منع اليهود من دخول القدس والسكن فيها، بل والدنوّ منها، وسمح للمسيحيين بالإقامة فيها على ألا يكونوا من أصل يهودي. وأقام هادريان مدينة جديدة فوق خرائب "أورشليم" سماها إيليا كابيتولينا، حيث عرفت بعد ذلك بـ"إيلياء" وهو اسم هادريان الأول، وأقام هيكلاً وثنياً لإله الرومان جوبيتر Jupiter على مكان الهيكل القديم نفسه[١٢٦].

واستمر حظر دخول القدس على اليهود حوالي ٢٠٠ سنة تالية[١٢٧]، وندر دخولهم إليها وإقامتهم فيها طوال القرون التالية حتى القرن الـ ١٩. وتشرد بنو إسرائيل في الأرض، ولم يعد لهم في فلسطين سوى الذكريات التي أكثرها كفر وفسق وبغي وقتل للأنبياء، فكان جزاؤهم غضب الله عليهم ولعنته وحرمانهم من الأرض المقدسة وتشردهم في الأرض.

وفي نهاية هذا الفصل نذكر أهم الخلاصات:

- إن سكان فلسطين قد جاء معظمهم من جزيرة العرب، وإنهم ظلّوا سكان هذه البلاد حتى عصرنا هذا.
- إن الله قد وعد بني إسرائيل الأرض المقدسة عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانت تسوسهم الأنبياء، فلما بدلوا وأعرضوا وكفروا ذهب هذا الحق من أيديهم.
- إن المسلمين هم أولى من بني إسرائيل بأنبيائهم، وهم الورثة الحقيقيون لتراثهم، ودعوة الإسلام هي استمرار لدعوة هؤلاء الأنبياء، وإن الحق الذي سعوا لتكريسه هو الحق الذي يسعى المسلمون لتكريسه.
- إن مُلك بني إسرائيل لم يشمل في أي يوم من الأيام كل فلسطين المعروفة بحدودها الحالية، وإن المدة التي حكموا فيها بشكل مستقل تماماً هي مدة ضئيلة قياساً إلى تاريخ فلسطين، وإنهم حتى عندما كانت لهم مملكتان كانوا في كثير من الأحيان خاضعين لنفوذ قوى أكبر منهم.
- إن الحكم الذاتي الذي تمتع به اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي كان ضعيفاً ومحدوداً بمنطقة القدس وضواحيها، ولم يتمتعوا بعد ذلك إلا باستقلال محدود في عهد المكابيين.
- إن اليهود بعد ذلك تشردوا في الأرض، ولم تعد لهم صلة بفلسطين لفترة استمرت حوالي ١٩٠٠ سنة متصلة.

وفي الختام نذكر قول هـ.ج. ولز H.G. Wells في كتاب موجز تاريخ العالم A Short History of the World حول تجربة بني إسرائيل في فلسطين بعد السبي البابلي: "كانت حياة العبرانيين [في فلسطين] تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقية، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم"[١٢٨].

ويذكر المؤرخ المشهور جوستاف لوبون Gustave Le Bon أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين "لم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعارتها وخرافاتها، فقربوا لجميع آلهة آسيا، قربوا لعشتروت ولبعل ولمولوخ من القرابين ما هو أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم يهوه العبوس الحقود، الذي لم يثقوا به إلا قليلاً" ويقول: "اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات..." ..."إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر... و(هم) لم يستحقوا أن يعدوا من الأمم المتمدنة بأي وجه"، ويقول غوستاف لوبون أيضاً "وبقي بنو إسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدواً أفّاقين مفاجئين مغيرين سفاكين... مندفعين في الخصام الوحشي"، ويقول: إن مزاج اليهود النفسي "ظلّ على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب ابتدائية فقد كان اليهود عُنُداً مندفعين غفلاً سذجاً جفاة كالوحوش والأطفال"... "ولا تجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود"[١٢٩].

هوامش الفصل الأول

[1] **القرآن الكريم**، سورة النحل: ٣٦.

[2] **القرآن الكريم**، سورة الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١، ١٦١، ١٧٦.

[3] انظر: عمر سليمان الأشقر، **العقيدة في الله**، ط ٥ (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٤)، ص ٢٥٦-٢٦١.

[4] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٦٤.

[5] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ١٨١.

[6] **القرآن الكريم**، سورة التوبة: ٣٠.

[7] انظر: محمد علي الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية** (بيروت: بدون ناشر، ١٩٦٨)؛ وانظر أيضاً: بولس حنا سعد، **همجية التعاليم الصهيونية** (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩).

[8] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ٦٧-٦٨.

[9] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: ١٢٧-١٢٨.

[10] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: ١٣٠-١٣٣.

[11] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: ١٣٦.

[12] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢١.

[13] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: ١٥٧.

[14] **القرآن الكريم**، سورة الصف: ٦.

[15] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ١٣.

[16] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٦٠.

[17] **سفر التكوين** (١/١٢) نقلاً عن: سمير أيوب، **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني** (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٤)، ج ١، ص ٢٩.

[18] **سفر التكوين** ١٤/١٣، نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ج ١، ص ٣١-٣٢.

[19] **سفر التكوين** ١٥، نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ج ١، ص ٣٢.

[20] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: ١٢٤.

[21] انظر مثلاً: محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ** (صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٢).

[22] حول الفقرات التاريخية السابقة، انظر: **المرجع نفسه**، ص ١٦-١٧، و٢٩، و٦٤، و٧٣-٧٤، و٨٤، و٨٦، و٩٦-٩٧.

[23] سنشير بالتفصيل إلى هذه التفاصيل لاحقاً.

[24] **الموسوعة الفلسطينية**، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ج ١، ص ٣٧.

[25] انظر في **القرآن الكريم** حول ما سبق من قصة إبراهيم عليه السلام: **سورة البقرة: ٢٥٨**، و**سورة الأنبياء: ٥١-٧١**.

[26] **القرآن الكريم**، سورة الصافات: ٩٩؛ وانظر قصة إبراهيم عليه السلام بالتفصيل في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ط ٥ (بيروت: مكتبة دار المعارف، ١٩٨٣)، ج ١، ص ١٤٦-١٧٥.

[27] محمد العامري، **مرجع سابق**، ص ٩٥؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٣٧.

[٢٨] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٧١.

[٢٩] محمد العامري، **مرجع سابق**، ص ٩٦-٩٨؛ ومصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق ٢ في بيت المقدس (١) (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٩٦-٩٧.

[٣٠] **القرآن الكريم**، سورة هود: ٧٢.

[٣١] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: ١٢٧.

[٣٢] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٣٧.

[٣٣] **المرجع نفسه**؛ والدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق ٢ (١)، ص ٢٥-٢٦.

[٣٤] متفق عليه.

[٣٥] **القرآن الكريم**، سورة النحل: ١٢٠.

[٣٦] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: ٨٠-٨٤.

[٣٧] **القرآن الكريم**، سورة هود: ٨٢-٨٣.

[٣٨] **القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: ٣٢.

[٣٩] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٧٤.

[٤٠] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٧٢-٧٣.

[٤١] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٦٣٢-٦٣٣.

[٤٢] **المرجع نفسه**.

[٤٣] **القرآن الكريم**، سورة القصص: ٣٨.

[٤٤] **القرآن الكريم**، سورة القصص: ٤.

[٤٥] **القرآن الكريم**، سورة القصص: ٥-٦.

[٤٦] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: ١٠٤-١٠٥؛ انظر قصة موسى عليه السلام بالتفصيل في: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١، ص ٢٣٧-٣١٩.

[٤٧] انظر مثلاً في: **القرآن الكريم**، سورة طه: ٤٢-٧٦.

[٤٨] **القرآن الكريم**، سورة يونس: ٨٣.

[٤٩] **القرآن الكريم**، سورة الشعراء: ٦٣-٦٦.

[٥٠] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٣٩٠-٣٩١.

[٥١] **القرآن الكريم**، سورة يونس: ٩٢.

[٥٢] **القرآن الكريم**، سورة يونس: ٩٢.

[٥٣] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: ١٣٨.

[٥٤] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: ١٤٨.

[٥٥] **القرآن الكريم**، سورة طه: ٨٨.

[٥٦] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: ١٥٠.

[٥٧] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢١.

[٥٨] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢٢.



[٥٩] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢٤.

[٦٠] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط ٧ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧١)، ج ٢، ص ٦٩٥-٦٩٧.

[٦١] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢٥.

[٦٢] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢٦.

[٦٣] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج ٢، ص ٦٩٨.

[٦٤] نقلاً عن: محمد عبد الله الخطيب التبريزي، **مشكاة المصابيح**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥)، ج ٢، ص ١٥٩.

[٦٥] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق ٢ (١)، ص ١٢١-١٢٢، و١٢٤، و١٣٨.

[٦٦] حديث رواه أحمد على شرط البخاري، وبنفس معناه دون ذكر اسم يوشع حديث رواه مسلم وآخر رواه البزار، انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٣٠٢-٣٠٣.

[٦٧] محمد العامري، **مرجع سابق**، ص ١٣٨.

[٦٨] انظر: قصة بني إسرائيل مع نبيهم ومع طالوت في: **القرآن الكريم**، سورة البقرة: ٢٤٦- ٢٥١.

[٦٩] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ١٨٤.

[٧٠] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم ١٢٢٠ ق.م -١٣٥٩م: منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي** (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤)، ص ٣٥.

[٧١] **المرجع نفسه**، ص ٤٣.

[٧٢] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٤٨-٤٩.

[٧٣] **القرآن الكريم**، سورة ص: ١٧-٢٠

[٧٤] **القرآن الكريم**، سورة ص: ٢٦.

[٧٥] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٨٠.

[٧٦] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: ١٠-١١.

[٧٧] انظر: ظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٤٥؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ١٨٤-١٨٥.

[٧٨] **القرآن الكريم**، سورة ص: ٣٥-٤٠.

[٧٩] **القرآن الكريم**، سورة النمل: ١٦-١٧.

[٨٠] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: ١٢-١٣.

[٨١] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٨١-٨٢.

[٨٢] **القرآن الكريم**، سورة النمل: ١٨.

[٨٣] **القرآن الكريم**، سورة النمل: ٢٠-٢٨.

[٨٤] **القرآن الكريم**، سورة النمل: ٢٢-٤٤.

[٨٥] **القرآن الكريم**، سورة النمل: ٤٤.

[٨٦] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٧٨-٧٩.

[٨٧] **القرآن الكريم**، سورة ص: ٣١-٣٤.

[٨٨] متفق عليه.

[٨٩] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: ١٤.

[٩٠] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ١٨٥؛ وظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٤٦.

[٩١] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٢٣٨، وج ٣، ص ١٨٥–١٨٦؛ وظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٥٥.

[٩٢] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢ (١)، ص ٤١–٥١.

[٩٣] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٧٠.

[٩٤] انظر: محمد علي الزعبي، **مرجع سابق**، ص ٧٥.

[٩٥] انظر: الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢ (١)، ص ٤١–٥١.

[٩٦] **المرجع نفسه**، ص ٥١–٥٢؛ وظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٥٨–٥٩.

[٩٧] وظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٥٩.

[٩٨] **المرجع نفسه**، ص ٦٤–٦٧.

[٩٩] **المرجع نفسه**، ص ٦٨، و٧٤؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٢٦٦.

[١٠٠] ظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٧٥؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٢٦٦.

[١٠١] ظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٧٧؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٢٦٧.

[١٠٢] ظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٧٨–٧٩؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٢٦٧–٢٦٨.

[١٠٣] ظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٨٠–٨٤.

[١٠٤] **المرجع نفسه**، ص ٨٦–٨٧؛ والدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢ (١)، ص ٦٢.

[١٠٥] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ٣٩.

[١٠٦] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ط ٣ (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١)، ج ١، ص ٢٠١.

[١٠٧] **القرآن الكريم**، سورة مريم: ١٢.

[١٠٨] **القرآن الكريم**، سورة مريم: ١٢؛ وانظر: الصابوني، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ٢١٣.

[١٠٩] انظر: محمد علي الزعبي، **مرجع سابق**، ص ٧٦.

[١١٠] **القرآن الكريم**، سورة مريم: ١٥.

[١١١] ورد في الحديث أن زكريا نُشر بالمنشار. انظر قصة زكريا في: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٢، ص ٤٧–٥٥.

[١١٢] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ٣٧.

[١١٣] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ٤٢.

[١١٤] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ٤٥–٤٩.

[١١٥] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٢١٤.

[١١٦] **القرآن الكريم**، سورة مريم: ٣٠–٣١.

[١١٧] **القرآن الكريم**، سورة الصف: ٦.

[١١٨] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٢١٦.

[١١٩] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢ (١)، ص ٦٦.

[١٢٠] نقلاً عن: **المرجع نفسه**.

[١٢١] نقلاً عن: **المرجع نفسه**.

[١٢٢] **القرآن الكريم**، سورة النساء: ١٥٧–١٥٨.

[١٢٣] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٢١٧.

[١٢٤] **المرجع نفسه**، ج ٣، ص ٥٧٣.

[١٢٥] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢ (١)، ص ٦٨-٧٠.

[١٢٦] **المرجع نفسه**، ص ٧١-٧٢؛ وظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٩١-٩٣.

[١٢٧] ظفر الإسلام خان، **مرجع سابق**، ص ٩٣.

[١٢٨] **المرجع نفسه**، ص ٩٨.

[١٢٩] انظر: **المرجع نفسه**، ص ١١٧-١٢٤.

الفصل الثاني

الفتح الإسلامي لفلسطين

الفتح الإسلامي لفلسطين

أولاً: مكانة فلسطين الإسلامية:

تتمتع أرض فلسطين بمكانة خاصة في التصور الإسلامي، وهي المكانة التي جعلتها محط أنظار ومهوى أفئدة المسلمين، وسنشير هنا باختصار إلى أهم النقاط التي جعلتها تحظى بهذه المكانة:

- في أرض فلسطين المسجد الأقصى المبارك، وهو أول قبلة للمسلمين في صلاتهم، كما يعدّ ثالث المساجد مكانة ومنزلة في الإسلام بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي، ويُسنُّ شدّ الرحال إليه وزيارته، والصلاة فيه بـ ٥٠٠ صلاة عما سواه في المساجد.
  فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى"[١].
  وقال ﷺ: "الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة"[٢].
- أرض فلسطين أرض مباركة بنص القرآن الكريم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[٣]، وقال تعالى ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[٤]، قال ابن كثير: بلاد الشام[٥]، وقوله تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾[٦]، قال ابن كثير: بلاد الشام[٧]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾[٨]، قال ابن عباس: القرى التي باركنا فيها هي بيت المقدس[٩].
  والبركة هنا حسية ومعنوية... لما فيها من ثمار وخيرات، ولما خُصت به من مكانة، ولكونها مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة الأطهار[١٠].
- هي أرض مقدسة بنص القرآن الكريم، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[١١]. قال الزجاج: المقدسة هي الطاهرة، وقيل سماها مقدسة لأنها طهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين، قال الكلبي: الأرض المقدسة هي دمشق وفلسطين وبعض الأردن، وقال قتادة: هي الشام كلها[١٢].

- فلسطين أرض الأنبياء ومبعثهم عليهم السلام فعلى أرضها عاش إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، ولوط، وداود، وسليمان، وصالح، وزكريا، ويحيى وعيسى عليهم السلام، ممن ورد ذكرهم في القرآن الكريم، كما عاش على أرضها الكثير من أنبياء بني إسرائيل الذين كانت تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي جاءهم نبي، وممن ورد ذكرهم في الحديث الصحيح: نبي الله يوشع عليه السلام.
- عندما يقرأ المسلمون القرآن الكريم يشعرون بارتباط عظيم بينهم وبين هذه الأرض؛ لأن ميدان الصراع بين الحق والباطل تركز على هذه الأرض، ولأنهم يؤمنون بأنهم حاملو ميراث الأنبياء، ورافعو رايتهم.
- المسجد الأقصى هو مسرى رسول الله ﷺ ومنه كان معراجه إلى السماء، وفي هذا المسجد جمع الله لرسوله الأنبياء من قبله، فأمّهم دلالة على انتقال الإمامة والريادة وأعباء الرسالة إلى الأمة الإسلامية.
- الملائكة تبسط أجنحتها على أرض فلسطين، التي هي جزء من الشام، ففي الحديث الصحيح عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يا طوبى للشام، يا طوبى للشام، قالوا: يا رسول الله وبمَ ذلك؟ قال: تلك ملائكة الله باسطة أجنحتها على الشام"[١٣].
- هي أرض المحشر والمنشر، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ميمونة بنت سعد مولاة النبي ﷺ قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس فقال: "أرض المحشر والمنشر"[١٤].
- هي عقر دار الإسلام وقت اشتداد المحن والفتن، فعن سلمة بن نفيل قال: قال رسول الله ﷺ: "عقر دار الإسلام بالشام"[١٥]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "قال رسول الله ﷺ: إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا نور ساطع عمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام"[١٦].
- المقيم المحتسب فيها كالمجاهد والمرابط في سبيل الله، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أهل الشام وأزواجهم وذرياتهم وعبيدهم وإماؤهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون في سبيل الله، فمن احتل مدينة من المدائن فهو في رباط، ومن احتل منها ثغراً من الثغور فهو في جهاد"[١٧].
- الطائفة المنصورة الثابتة على الحق تسكن الشام، وخصوصاً بيت المقدس وأكنافها، وذلك في أحاديث يفسر ويقوي بعضها بعضاً؛ فعن أبي أمامة مرفوعاً إلى

رسول الله ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قيل يا رسول الله أين هم؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس"[18].

هذه مكانة فلسطين من الناحية الدينية، وهي مكانة جعلتها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم. وقد تعمقت هذه المكانة بالفتح الإسلامي لفلسطين، ووقوع عدد من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي على أرضها كأجنادين، وفحل – بيسان، واليرموك، وحطين، وعين جالوت. وباختلاط دماء الصحابة والتابعين والمجاهدين بثراها المبارك، وبهجرة وإقامة الكثير من الصحابة والتابعين والعلماء وأنسالهم فيها، وببروز عدد من أبنائها كعلماء وقادة ورجال حكم.

وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى أحد معالم الحل الإسلامي المنشود لتحرير الأرض المباركة، وهو توسيع دائرة الصراع لتشمل كافة المسلمين المؤمنين بحقهم فيها، وعدم التفريط بأي جزء منها باعتبارها أرضاً إسلامية مقدسة، وباعتبارها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم. وإن استشعار المسلمين بواجبهم تجاه تحرير أرض الإسراء، وقيامهم بخطوات عملية في هذا الإطار هو ضمانة حقيقية للسير بخطوات جادة لتحقيق آمال المسلمين باستعادة أرضهم ومقدساتهم.

ثانياً: أنظار المسلمين تتجه إلى فلسطين:

استمرت الهيمنة الرومانية على فلسطين بعد أن رفع الله سبحانه المسيح إليه، وفي عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦–٣٣٧م) تمّ الاعتراف رسمياً بالمسيحية في المرسوم الشهير بمرسوم ميلان Edict of Milan الصادر سنة ٣١٣م، وقد تنصر قسطنطين نفسه، وأقام في مدينة القدس "في المكان الذي يعتقد النصارى أن السيد المسيح دفن فيه" كنيسة الضريح المقدس التي أصبحت أعظم الكنائس شأناً عند النصارى، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وقسطنطين نفسه هو الذي بنى مدينة القسطنطينية "إسطنبول" ٣٣٠م.

وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي، وذلك بعد موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I في ٣٩٥م، فتكونت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية

الرومانية الغربية، وعاصمتها روما، وما لبثت الإمبراطورية الغربية أن سقطت في ٤٧٦م لكن الإمبراطورية الشرقية التي عرفها العرب بدولة الروم حافظت على الهيمنة على فلسطين باستثناء فترات ضئيلة حتى جاء الفتح الإسلامي[١٩].

ولد رسول الله ﷺ سنة ٥٧٠م وبعد أربعين سنة نزل عليه الوحي، وتحمل أمانة الرسالة والدعوة، ولقي في الفترة المكية التي استمرت ١٣ سنة الكثير من العنت والإيذاء[٢٠]، ومنذ هذه الفترة وقبل أن تتشكل دولة الإسلام في المدينة كانت أنظار المسلمين الأوائل ترنو إلى المسجد الأقصى في فلسطين فقد كان قبلتهم الأولى في الصلاة[٢١]، وجاءت معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم المعراج إلى السماء في السنة العاشرة[٢٢] للبعثة النبوية لتؤكد عمق الارتباط بين الإسلام وبين أرض فلسطين المقدسة؛ حيث يوجد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وبعد أن تشكلت الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وعندما وقعت غزوة الخندق ٥هـ وفي غمرة الموقف العصيب من تآلب قوى الشرك على المسلمين وحصارهم ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[٢٣] في هذا الموقف ضرب رسول الله ﷺ صخرة تطاير منها شرر، فبشر المؤمنين بفتح بلاد الروم، كما بشرهم بفتح اليمن وفارس[٢٤]، وهكذا فإن نفوس المؤمنين لم تكن لتفارقها الآمال والثقة بالله في النصر وتحرير الأرض من كل سلطان غير سلطان الله حتى من تلك القوى الكبرى التي كان يبعث مجرد ذكرها الرعب في النفوس.

وبعد أن أخذت أركان الدولة الإسلامية تتوطد في جزيرة العرب أرسل رسول الله ﷺ رسائله إلى الحكام والملوك يدعوهم إلى الإسلام باعتباره رسولاً إلى كل البشرية، فكانت رسائله سنة ٧هـ إلى كسرى فارس، وقيصر الروم هرقل Heraclius، وإلى المقوقس حاكم مصر، أما كسرى فمزق كتاب رسول الله، فدعا عليه الرسول ﷺ أن يمزق الله ملكه، وأما قيصر الروم فيظهر من الروايات أنه مال إلى الإسلام، ورغب في الدخول فيه، غير أنه خاف من الروم على نفسه وملكه[٢٥]، وكان هرقل في تلك الفترة قد انتصر على الفرس، وأجلاهم عن الشام، ولعله عاد إلى القدس ليشكر الله على نصره[٢٦]، وهو النصر الذي أشار إليه القرآن الكريم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾[٢٧].

وكان فتح خيبر وفدك ٧هـ إلى الشمال من جزيرة العرب مقدمة للتطلع إلى الشام، فكانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ٧هـ – أيلول/ سبتمبر ٦٢٨م والتي

حدثت إثر قتل أحد زعماء الغساسنة "شرحبيل بن عمرو الغساني" لرسول رسول الله "الحارث بن عمير الأزدي" إلى ملك بصرى. كان جيش المسلمين مكوناً من ثلاثة آلاف رجل واجهوا حسب الروايات ١٠٠ ألف رجل من جند الروم، و١٠٠ ألف أخرى من العرب المناصرين للروم بقيادة مالك بن رافلة.

وقد وقعت المعركة في شرق الأردن جنوب مدينة الكرك بحوالي ١١ كيلومتراً وفيها استشهد أمراء المسلمين الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وتمكن خالد بن الوليد الذي تولى الزمام من تحقيق انسحاب كريم موفق، وقتل في المعركة مالك بن رافلة الزعيم العربي الموالي للروم[٢٨].

ثم كانت غزة تبوك ٩هـ التي قادها رسول الله بنفسه، وتحت قيادته ٣٠ ألفاً بعد أن بلغه أن الروم ومن يواليهم أعدوا العدة ضده، ولكنه عندما وصل تبوك (شمال جزيرة العرب على مشارف الشام) استبان له أنه ليس للروم جموع هناك، غير أنه ﷺ وطَد سلطة المسلمين في تلك المناطق، وأرسل خالد بن الوليد ففتح "دومة الجندل" وصالحه أهل أيلة (على خليج العقبة) وأذرح وتيماء وجرباء على أداء الجزية[٢٩].

ومع نهاية العهد النبوي كانت بطون بعض القبائل في شرق الأردن قد أسلمت، ومن ذلك إسلام أهل تبالة وجرش وبطون من قضاعة، وقبيل وفاته ﷺ كان يعد العدة لخروج جيش أسامة؛ حيث أمره بالانطلاق إلى الجهاد؛ حيث قتل أبوه زيد بن حارثة، وعقد له اللواء آخر يوم من صفر ١١هـ – ٢٨ أيار/ مايو ٦٣٢م، ولكن مرض رسول الله ووفاته في ١٢ ربيع الأول أخّر خروج هذا الجيش حتى أمره الخليفة أبو بكر الصديق بذلك، فخرج في أول ربيع الثاني ١١ هـ – ٢٧ حزيران/ يونيو ٦٣٢م، وثبَّت جيش أسامة شوكة الإسلام على تخوم الشام، وعاد سريعاً إلى المدينة في وقت انشغل فيه المسلمون بحرب الردّة[٣٠].

وما نريد أن نخلص إليه هنا أن أنظار المسلمين وقلوبهم ظلّت سنوات طويلة معلقة ببيت المقدس والمسجد الأقصى حتى قبل أن يتم لهم فتح فلسطين. فضلاً عما سبقت الإشارة إليه، فإن كثيراً من سور القرآن وآياته التي كانت تتنزل تباعاً على رسول الله ﷺ كانت تتحدث عن قصص الأنبياء، وكان ميدان العديد منها هو أرض فلسطين (يعقوب ولوط وزكريا ويحيى وداود وسليمان وعيسى... عليهم السلام) مما عمق الارتباط النفسي والإيماني بهذه الأرض.

ثالثاً: وقفات مع منهج الفتح ودوافعه:

قبل أن نستطرد في الحديث عن فتح الأرض المقدسة، لا بدّ من وقفات لاستجلاء المنهج الذي بنيت على أساسه فكرة الفتوحات، والدوافع التي دفعت إليها:

الوقفة الأولى: في الإشارة إلى حقيقة الجهاد؛ فلقد كان من الواضح –لأي باحث منصف– أن القيام بواجب الجهاد في سبيل الله، وتبليغ دعوة الإسلام إلى البشرية، والسعي إلى الفوز بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، هي الأهداف الحقيقية التي دفعت المسلمين لتحقيق أعظم وأرحم حركة فتح لبقاع الأرض في التاريخ. ولم تكن حركة الفتوح هذه مبنية على المنافع المادية أو المصالح الشخصية أو بسبب جدب الأرض وضيق العيش، كما لم تكن هذه الفتوح عملاً عدوانياً أو إكراهاً للناس على اتباع الإسلام تحت تهديد السيوف... . بل كان الجهاد هو ضدّ تلك الأنظمة والسلطات التي تحول بين الإسلام وبين دعوته للناس، ونشر نوره في الأرض.

يقول سيد قطب "إن هذا الدين موضوعه الإنسان ومجاله الأرض وهو إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله، وهو إعلان حركي واقعي إيجابي يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله".... "إن الإسلام ليس مجرد عقيدة، فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر بحيث يكون النظام الذي يحكم البشر قاعدته العبودية لله وحده، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده، ثم ليعتنق كل فرد في ظلّ هذا النظام العام ما يعتنقه من عقيدة".... "إن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه أو أن تسالمه بجملتها، فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه فإن فعل ذلك كان على الإسلام أن يقاتله ..."[٣١].

ثم إن الجهاد في سبيل الله لا يكون جهاداً إلا إذا قصد به وجه الله، وأن يكون وفق ما شرع الله، يقول حسن البنا:

> فرض الله الجهاد على المسلمين لا أداة للعدوان ولا وسيلة للمطامع الشخصية، ولكن حماية للدعوة، وضماناً للسلم، وأداء للرسالة الكبرى التي حمل عبئها المسلمون، رسالة هداية الناس إلى الحق والعدل. والمسلم يخرج للقتال، وفي نفسه أمر واحد أن يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، وقد فرض

> دينه عليه أن لا يخلط بهذا القصد غاية أخرى، فحب الجاه عليه حرام، وحب الظهور عليه حرام، وحب المال عليه حرام، والغلول من الغنيمة عليه حرام، وقصد الغلب بغير حق عليه حرام، والحلال أمر واحد أن يقدم دمه وروحه فداء لعقيدته، وهداية للناس[٣٢].

فالجهاد في الفهم الإسلامي مربوط بأنه "في سبيل الله" أما ثمنه فهو "الجنة" وليس لحظ النفس فيه في الدنيا نصيب، لأنه بذل للمال والنفس، وانظر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[٣٣].

الوقفة الثانية: في الإشارة إلى أن عملية فتح بلاد الشام –وغيرها– بنيت وتمت على الرغبة الصادقة في الجهاد في سبيل الله، وعلى هذا الأساس انطلقت، وقام المسلمون بالتطبيق العملي لمعاني الجهاد أثناء فتوحاتهم، فعندما يقّلب أي باحث منصف صفحات التاريخ والسِّير يجد التزاماً حقيقياً كاملاً لدى الصحابة والفاتحين بمعاني الجهاد الإسلامي وأهدافه وغاياته وضوابطه، وفي الإشارة إلى هذه الحقيقة سنقتصر على بعض ما ورد في فتوح الشام.

فعندما بعث أبو بكر أنس بن مالك في ربيع الثاني ١٢هـ – حزيران/ يونيو ٦٣٣م لأهل اليمن لفتح الشام، كتب أبو بكر لهم:

> ... أما بعد: فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وقال: جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا، وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا –عباد الله– إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسنيين، إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة، فإن الله لم يرض عن عباده القول دون العمل، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون...[٣٤].

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان عند خروجه بجيشه إلى الشام قائلاً: "عليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله..."[٣٥]، وفي وصية أخرى من أبي بكر ليزيد قال له:

يا يزيد إني أوصيك بتقوى الله وطاعته، والإيثار له، والخوف منه، وإذا لقيت العدو فأظفركم الله بهم فلا تغلل، ولا تمثِّل، ولا تغدر، ولا تجبن، ولا تقتلوا وليداً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تحرقوا نخلاً، ولا تعرفون [تقشروه وتفسدوه] ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تعقروا بهيمة إلا لمأكلة، وستمرون بقوم في الصوامع يزعمون أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، فإذا لقيتم العدو من المشركين، فادعوهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوكم فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، ادعوهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا أن يدخلوا الإسلام فادعوهم إلى الجزية، فإن هم فعلوا، فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، فإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله، ولينصرن الله من ينصره ورسله بالغيب[٣٦].

ومن وصية أبي بكر لخالد بن سعيد "... وقد خرجت في هذا الوجه العظيم الأجر، وأنا أرجو أن يكون خروجك فيه **لحسبة ونية صادقة** إن شاء الله"[٣٧].

وقال أبو بكر في وداعه لأبي عبيدة عندما خرج بجيش للشام "اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أمر به، إنك تخرج في أشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحمية وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنية الحسنة، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، اخرج من غد إن شاء الله"[٣٨].

وفي اليوم التالي جاءه أبو بكر وقال له عند فراقه "يا أبا عبيدة، اعمل صالحاً، وعش مجاهداً، وتوفَّ شهيداً يعطك الله كتابك بيمينك، ولتقر عينك في دنياك وآخرتك، فوالله إني لأرجو أن تكون من التوابين الأوابين المخشعين الزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة. إن الله قد صنع بك خيراً وساقه إليك؛ إذ جعلك تسير في جيش من المسلمين إلى عدوه من المشركين تقاتل من كفر بالله، وأشرك به، وعبد معه غيره"[٣٩].

وفي وداعه لعمرو بن العاص قال أبو بكر له: "اتق الله في سرك وعلانيتك، واستحيه في خلواتك، فإنه يراك في عملك، وأرد بعملك وجه الله، واتق الله إذا لقيت العدو"[٤٠].

وعندما صرف الصديق خالداً إلى غزو الشام كان فيما كتب له: "وإن الجموع لم تشج بعون الله شجيك، فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدلَّ بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء"[٤١].

هذه بعض المختارات المنتقاة في بدء مسيرة الفتوح، ولولا خشية الإطالة لخرج من الجعبة الكثير، ولن نُفصِّل في الشروح والتعليقات لوضوح النصوص وقوتها، ويكفي أنها أكدت على الأسس التي انطلقت من أجلها حركة الفتح والجهاد، أما كيف نفذ الصحابة هذه التوجيهات في معاركهم ودعوتهم وانتشارهم فهو ما سنتركه لذكر بعض أمثلته في حينه.

الوقفة الثالثة: ونركز فيها أيضاً على جانب مهمّ تضمنته وصايا أبي بكر لقادة الجيوش الإسلامية التي ذهبت لفتح الشام، ألا وهي فن قيادة الجيش المسلم، وبعض أساليب التعامل. ونذهب إلى أنها من أرقى وأروع ما ذكر في فن إدارة الجيوش، غير أنها تعطي للجيش المسلم بعداً رسالياً إيمانياً، يميزه في سلوكه الفردي والقيادي، وتجمع بين الانضباط والطاعة عن حب واقتناع، وتمنع تسلط القائد على الأفراد، وتوجب الشورى، والتعبئة المعنوية، وتراعي أصول السرية، وتؤكد على أن الجهاد عبادة وعمل خالص لله.

ففي وصية أبي بكر ليزيد عند خروجه إلى الشام:

وإذا قدمت على جندك، فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدهم إياه، وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام يُنسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تُرينَّهم فيروا خللك، ويعلموا علمك، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرَّك لعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك. واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل من محرسه، فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مُدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالسن العباثين، وجالس أهل الصدق والوفاء. واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرِّب الفقر ويدفع النصر...[٤٢].

وفي رواية أخرى مما ذكره أبو بكر ليزيد في وداعه: "وإذا وعدت فأنجز...، وإذا بلغك عن العدوّ عورة فاكتمها حتى تعاينها...، واصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك"[٤٣].

ومن وصية أبي بكر لعمرو بن العاص: "...وكن والداً لمن معك، وارفق بهم في السير، فإن فيهم أهل ضعف....، وإياك أن تكون واهناً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن أن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به...." وأمره ببرّ المهاجرين والأنصار ثم قال:

ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول إنما ولاني أبو بكر لأني خيرهم، وكن كأحدهم، وشاورهم فيما تريد من أمرك، والصلاة ثم الصلاة أذن بها إذا دخل وقتها....، وإذا وعظت فأوجز، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك....، وألزم أصحابك قراءة القرآن، وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها، فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض عن زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك....[٤٤].

وعندما أوصى أبو بكر خالد بن سعيد كان مما ذكره:

... فثبِّت العالم، وعلّم الجاهل، وعاتب السفيه المترف، وانصح لعامة المسلمين، واخصص الوالي على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق لله وللمسلمين عليك، واعمل لله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واعلم أنا عما قليل ميتون ثم مبعوثون ثم مساءلون ومحاسبون، جعلنا الله وإياك لأنعمه من الشاكرين ولنقمه من الخائفين"[٤٥].

رابعاً: الخطوات الأولى:

استمرت عمليات المسلمين في القضاء على الردة التي انتشرت في جزيرة العرب إثر وفاة رسول الله ﷺ حتى نهاية ١١هـ، ومع بداية ١٢هـ زحف خالد بن الوليد ومعه جيش عدده ١٨ ألفاً على العراق، وأخذ يحقق انتصارات متوالية هناك (ذات السلاسل محرم ١٢هـ، المذار صفر ١٢هـ، والولجة صفر ١٢هـ، أُلَّيس صفر ١٢هـ، أمغيشيا صفر ١٢هـ، فتح الحيرة ربيع الأول ١٢هـ)[٤٦]. وجاء شرحبيل بن حسنة من العراق مبشراً أبا بكر بفتح الحيرة، ورأى شرحبيل رؤيا أولها بفتح الشام، وحدث بها أبا بكر الذي أخبره أن نفسه تحدثه أيضاً بفتح الشام[٤٧].

وفي ٣٠ ربيع الأول ١٢هـ – ١٤ حزيران/ يونيو ٦٣٣م جمع أبو بكر كبار الصحابة، واستشارهم في فتح الشام، فوافقوه على رأيه ثقة منهم بأنه ناصح للدين، حريص على المسلمين، ثم إن أبا بكر قام فدعا الناس للجهاد "فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم، وشدة شوكتهم" وقام عمر بن الخطاب فحضهم على الجهاد، وتقدم خالد بن سعيد فأحسن الحديث فأمَّره أبو بكر، وأعلن خالد بن سعيد أنه وأهله حبساء في سبيل الله، وعقد أبو بكر لخالد بن سعيد لواء، فكان أول لواء عقد لغزو الشام، ٢ ربيع الثاني ١٢هـ – ١٦ حزيران/ يونيو ٦٣٣م، وأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بألا يولي خالد بن سعيد قيادة الجيش لعدم أهليته، فاكتفى أبو بكر بجعله على رأس قوة محدودة، وأمره أن ينزل تيماء كقوة احتياطية[٤٨].

ثم إن أبا بكر أرسل إلى يزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فأخبرهم أنه باعثهم ومؤمرهم على الجنود، فإذا اجتمعت قواتهم فأميرهم أبو عبيدة، وأرسل أبو بكر كتاباً إلى اليمن يستنفرهم للجهاد مع أنس بن مالك، وأخذت أفواج المسلمين تتجمع وتتجهز للجهاد من كل حدب وصوب[٤٩].

كان جيش يزيد بن أبي سفيان أول الجيوش خروجاً إلى الشام، وكان ذلك تقريباً في ٢٣ رجب ١٢هـ – ٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٦٣٣م، وكان مكوناً من حوالي سبعة آلاف رجل، ثم تبعه جيش شرحبيل بعد ذلك بحوالي أربعة أيام، ثم جيش أبي عبيدة بعد شرحبيل بحوالي عشرة أيام، وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة، كما ألحق أبو بكر خالد بن سعيد بجيش أبي عبيدة[٥٠].

خرج إمبراطور الروم هرقل من فلسطين بعد أن بلغته تحركات المسلمين حوالي ٢٣ شعبان ١٢هـ – ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٣٣م إلى دمشق، ثم إلى حمص، ثم إلى أنطاكية، فبلغها حوالي ٦٣٣/١١/١٨م واتخذها مقره، ومن هناك أخذ ينظم الجيوش، ويحشد الحشود لملاقاة المسلمين[٥١].

نزل جيش يزيد منطقة البلقاء شرق الأردن، ونزل جيش شرحبيل نواحي بصرى، أما جيش أبي عبيدة فنزل الجابية، وأمّر أبو بكر عمرو بن العاص على جيش رابع من ألفين إلى ثلاثة آلاف، وقد التحق بهذا الجيش سادات قريش وأشرافها مثل عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام، وسلك عمرو طريق المعركة إلى أيلة متجهاً إلى فلسطين[٥٢].

وبعد أن بلغت أبا بكر حشود الروم الهائلة، وبعد أن بلغته انتصارات خالد بن الوليد الكبيرة في العراق، أرسل إلى خالد في ٢١ محرم ١٣هـ - ٢٨ آذار/ مارس ٦٣٤م تقريباً يطلب إليه الذهاب للشام غوثاً للمسلمين، وخرج خالد من العراق حوالي ٨ صفر ١٣هـ - ١٤ نيسان/ أبريل ٦٣٤م بمدد من تسعة آلاف رجل ليصبح مجموع عدد القوات الإسلامية في الشام ٣٣ ألفاً[٥٣].

استعداد للنزال:

في الوقت الذي أخذت فيه جيوش المسلمين بالزحف لفتح الشام، كان هرقل في أنطاكية يعد الجيوش والإمدادات لملاقاة المسلمين، وبلغ أبا عبيدة عظم الحشود الرومية، فأرسل إلى أبي بكر بذلك، فردَّ عليه برسالة في شوال ١٢هـ - كانون الأول/ ديسمبر ٦٣٣م جاء فيها:

> فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم، وما كان قوم ليدعوا سلطانهم ويخرجوا من ملكهم بغير قتال. وقد علمت والحمد لله قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم للحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم، وعقائل أموالهم، والرجل منهم عند الفتح خير من ألف رجل من المشركين، فالقهم بجندك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين فإن الله معك، وأنا مع ذلك ممدك بالرجال حتى تكتفي، ولا تريد أن تزداد إن شاء الله[٥٤].

أول المعارك:

كانت أولى المعارك على أرض الشام بعد سرية أسامة بن زيد هي موقعة العربة وداثنة (٢٤ ذي الحجة ١٢هـ - آذار/ مارس ٦٣٤م) فقد دفع الروم قوة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى مدينة غزة، ولعلها توجهت إلى وادي عربة جنوب البحر الميت، وهناك التقت بقوة من المسلمين، فهزمها المسلمون وقتلوا قائداً من قوادها، وانسحبت القوة فلاحقها المسلمون؛ حيث التقوا مرة أخرى عند الداثنة قرب غزة، وهزم الروم مرة أخرى[٥٥].

خالد بن الوليد يتولى القيادة العامة:

ويبدو أن موقعة العربة وداثنة كانت أقرب إلى اختبار القوة، ويظهر أن الروم قد أخذوا يشعرون بشكل أكبر بخطورة الموقف، فأخذوا يتجمعون ويحشدون، فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد لينجد المسلمين بالشام، فوصل خالد على عجل في صفر ١٣هـ – نيسان/ أبريل ٦٣٤م وتولى القيادة العامة للجيوش الإسلامية في بلاد الشام مكان أبي عبيدة[٥٦].

خامساً: معركة أجنادين:

كانت معركة أجنادين أولى المعارك البارزة المهمة في فتوح الشام، وقد وقعت على أرض فلسطين، وبالرغم من أن أجنادين لا يظهر لها ذكر في الخرائط، إلا أنها حسب استنتاج أحمد عادل كمال تبعد ١١ كم إلى الشمال من بيت جبرين و٣٩ كم إلى الجنوب من الرملة[٥٧].

التقت جيوش المسلمين الخمسة (أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، وشرحبيل، وعمرو) في منطقة أجنادين تحت قيادة خالد بن الوليد، وكان عددهم يقدر بـ ٣٣ ألف رجل، أما قوات الروم فوصل عددها إلى حوالي ١٠٠ ألف رجل[٥٨].

وفي يوم المعركة نهار يوم السبت ٢٧ جمادى الأولى ١٣هـ – ٣٠ تموز/ يوليو ٦٣٤م، أخذ معاذ بن جبل، قائد ميمنة المسلمين، يقول: "يا معشر المسلمين اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبداً مع رضوان الله والثواب العظيم من الله"[٥٩]، وتحت هذه المعاني الإيمانية الربانية خاض المسلمون معركتهم على أرض فلسطين.

هاجم الروم ميمنة المسلمين ثم ميسرتهم، فصمد المسلمون، ثم رموا المسلمين بالنشاب...، ثم إن المسلمين هاجموهم فهزموهم بسرعة كبيرة، وروى الطبري عن ابن إسحق أن قائد الروم قال لهم: "لفوا رأسي بثوب، قالوا: ولم؟ قال: يوم بئيس لا أحب أن أراه!! ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا، فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لمُلَفّف"[٦٠].

وقتل من الروم في هذه المعركة حوالي ثلاثة آلاف، وتفرقت فلولهم إلى القدس وقيسارية ودمشق وحمص، واستشهد من المسلمين أبان بن سعيد ابن العاص، وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص، وطليب بن عمير بن وهب وهو ابن أروى بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ[٦١].

مثلت هذه المعركة انتصاراً كبيراً للمسلمين، وتحطمت هيبة الروم، وشعر المسلمون عملياً بفضل الإيمان والصبر والاحتساب على الأعداد والعتاد التي يملكها عدوهم...، وانطلقوا لاستكمال فتوحهم بعزيمة وثبات صقلتها الخبرة والتجربة.

ويظهر أن المسلمين لم يستكملوا فتوحاتهم داخل فلسطين بعد هذه المعركة، فلم تتجه قواتهم شمالاً داخلها، وإنما توجهوا إلى دمشق ملتفين من جنوب البحر الميت مارِّين بشرق الأردن.

وفي **مرج الصُّفر** إلى الجنوب من دمشق بحوالي ٣٨ كم التقى المسلمون بقوات الروم وهزموها في ١٧ جمادى الثانية ١٣هـ – ١٨ آب/ أغسطس ٦٣٤م، وجاءت البشارة لأبي بكر الصديق بهذا النصر وهو في الرمق الأخير؛ إذ توفي رضي الله عنه مساء الثلاثاء ٢١ جمادى الثانية ١٣هـ – ٢٣ آب/ أغسطس ٦٣٤م[٦٢].

سادساً: عزل خالد:

تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة بعد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأمر بعزل خالد عن قيادة جيوش الشام، وأرسل إلى أبي عبيدة حوالي ٢٦ جمادى الثانية ١٣هـ – ٢٨ آب/ أغسطس ٦٣٤م يوليه مكان خالد، ولعل الخبر وصل إلى أبي عبيدة بعد حوالي أسبوع، وجاء في كتاب عمر إلى أبي عبيدة:

> فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي، فإن الله لا يستحي من الحق، وإني أوصيك بتقوى الله الذي أخرجك من الكفر إلى الإيمان ومن الضلال إلى الهدى، وقد استعملتك على جند خالد فاقبض جنده واعزله عن إمارته، ولا تقد المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنفذ سرية إلى جمع كثير، وغض عن الدنيا عينيك وألْهِ قلبك، وإياك أن تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم، وإن بينك وبين الآخرة ستر الخمار وكأني بك منتظراً سفراً من دار قد مضت نضارتها، وذهبت زهرتها، وأحزم الناس من يكون زاده التقوى....[٦٣].

هذه كتب التعيين في زمن الصحابة!! أمر واضح محدد، وحرص ورحمة بالجند المؤمنين، ودعوة إلى تعليق القلب بالآخرة والتزود بالتقوى، واتساق متوازن بين التكليف والعمل والعبادة.

ولسنا بصدد مناقشة عزل خالد، ولكننا نقف لحظة أمام مشهد لأولئك الصحابة العظام الذين فتحوا أرض فلسطين. فقد علم خالد بأمر عزله دون أن يخبره أبو عبيدة، وكان خالد ما يزال يتصرف كأمير، وأبو عبيدة يصلي خلفه...، فعاتبه خالد عتاباً رقيقاً لِمَ لم يخبره والسلطان سلطانه... فكان مما رد عليه أبو عبيدة:

> وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل... وإنما نحن أخوان قوامان بأمر الله عز وجل، وما يضر الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ولا دنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة، وأوقعهما في الخطيئة لما يعرض من الهلكة إلا من عصم الله عز وجل وقليل ما هم[٦٤].

إن من أهم المزايا التربية الإسلامية، التي تنعكس إيجابياً على نجاح الحل الجهادي الإسلامي، تجاوز المسائل المتعلقة بهوى وحظوظ النفس، وتعليق القلب والعمل بالآخرة، وبالتالي تضييق هامش التنازع والصراع على المناصب والألقاب، والتنافس في ميدان البذل والعطاء، وبهذا تتحقق بركة العمل، ويتم الإنجاز في أفضل الظروف النفسية. وأن أصحاب التجارب الإسلامية المعاصرة مطالبون، على مستوى القيادة قبل مستوى الأفراد، أن يكونوا النموذج والقدوة في هذا الإطار، ولو استرشد المجاهدون في أفغانستان، وفي غيرها، بصدق بمقولة أبي عبيدة لتجاوزوا مشاكلهم، ولبنوا دولتهم.

سابعاً: معركة فحل - بيسان:

تعدّ معركة فحل – بيسان من أبرز المعارك التي خاضها المسلمون في فتحهم لبلاد الشام، وقد وقعت هذه المعركة على ضفاف نهر الأردن، فقد عسكر المسلمون في فحل شرقي نهر الأردن، وعسكر الروم عند بيسان غربي نهر الأردن (إلى الشمال الغربي من فحل)، غير أن ميدان المعركة كان في فلسطين المعروفة بحدودها الحالية إلى الجنوب من بيسان، وكان عدد الروم ٥٠ ألفاً وقيل ٨٠ ألفاً، أما المسلمون فكانوا ٢٦ ألفاً تقريباً، ولا يصل عددهم إلى ٣٠ ألفاً[٦٥].

وقبيل المعركة أرسل الروم إلى أبي عبيدة أن "اخرج أنت ومن معك من أصحابك وأهل دينك من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب والثمار، فلستم لها بأهل، وارجعوا إلى بلادكم، بلاد البؤس والشقاء، وإلا أتيناكم فيما لا قِبل لكم به، ثم لم ننصرف عنكم وفيكم عين تطرف"[٦٦].

فرد عليهم أبو عبيدة:

> أما قولكم: اخرجوا من بلادنا فلستم لها ولما تنبت بأهل، فلعمري ما كنا لنخرج منه وقد أذلكم الله بما فيها وأورثناها، ونزعها من أيديكم وصيّرها لنا، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، والله مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء...، فلا تحسبونا تاركيها ولا منصرفين عنها حتى نفنيكم ونخرجكم عنها، فأقيموا فوالله لا نجشمكم إن أنتم لم تأتونا أن نأتيكم، وإن أنتم أقمتم لنا فلا نبرح حتى نبيد خضراءكم، ونستأصل شأفتكم إن شاء الله[٦٧].

هكذا كان جواب القيادة المسلمة: عزة وكرامة واستعلاء، مقرون بفهم عميق لطبيعة الرسالة الإسلامية وحركة التاريخ اختصر بخمس كلمات فقط "فلستم لها ولما تنبت بأهل"، وحرب نفسية ردت على التهديد بتهديد أقوى، وأكدت الإصرار على الفتح ونشر الرسالة.

ثم إن الروم طلبوا رجلاً يفاوضونه فأرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل إليهم، فأقبل عليهم فإذا هم على فرش ووسائد في أبهة وفخامة تغشي الأبصار، فأبى معاذ أن يجلس على البسط مع رؤسائهم... وجلس إلى جانبها على الأرض، فقالوا له: "لو دنوت فجلست معنا كان أكرم لك...، إن جلوسك على الأرض منتحياً صنيع العبد بنفسه فلا نراك إلا قد أزريت بنفسك" فقال معاذ لهم إن هذه المكرمة التي يدعونه إليها قد استأثروا بها على ضعفائهم... "ولا حاجة لنا في شرف الدنيا ولا في فخرها، ولا في شيء يباعدنا عن ربنا"، ورد على قولهم إنه صنع صنيع العبد "أنا عبد من عبيد الله جلست على بساط الله، ولا أستأثر بشيء من الله على إخواني من أولياء الله...، فلست أبالي كيف كانت منزلتي عندكم إذا كانت عند الله على غير ذلك...".

وحاول الروم إبراز قوتهم لمعاذ قائلين: "إن ملكنا حي، وإن جنودنا عظيمة كثيرة...، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض" وسألوه عما يطلبه المسلمون، فدعاهم معاذ إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب، ورد عليهم قائلاً: "وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عز وجل الذي خلقنا، وأميرنا رجل منا إن عمل فينا بكتاب الله وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا، وإن هو سرق قطعنا يده، وإن زنى جلدناه، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه، وإن جرحه أقاده من نفسه، ولا يحتجب منا ولا يتكبر علينا، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاءه الله علينا، وهو كرجل منا"...

"وأما قولكم: جنودنا كثيرة فإنها إن عظمت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض، فإنا لا نثق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها، ولكنا نتبرأ من الحول والقوة، ونتوكل على الله عز وجل ونثق بربنا...، فكم من فئة قليلة قد أعزها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها".

فعرض الروم على معاذ أن يعطوا المسلمين البلقاء وما إلى أرض العرب من سواد الأردن، ودعوهم إلى قتال أهل فارس ووعدوهم بالمساعدة. فقال معاذ: "هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم نظهر عليه، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وضعت لكم ما فعلنا" فغضبوا منه وقالوا: "نتقرب إليك وتتباعد عنا؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً" فقال معاذ: "أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون"[٦٨].

وإذا كان لنا من وقفة هنا مع هذا المشهد التفاوضي الزاخر، فلعلنا نختار الإشارة السريعة إلى النقاط التالية:

- يعاني الكثير من زعمائنا ومفاوضينا في هذا العصر من عقدة النقص تجاه الآخرين، ومن ضعف الثقة بأنفسهم أو قضيتهم، ويحاولون التعويض عن ذلك بتقليد الآخرين "الخصوم" في اللباس والوجاهة والمظاهر، فتكون هذه أول نقاط الانهزام لديهم.
- عندما حاول الروم أن يزروا بسلوك معاذ بن جبل الشخصي، استخدم ذلك في الرد عليهم بتأكيد معاني الرسالة الإسلامية من عبودية الله، وعدم الاهتمام بزخرف الدنيا، وكذلك في كشف عيوب سلوكهم الاجتماعي – القيادي من ظلم وأنانية واستعلاء على الضعفاء، فكان رده الأقوى؛ لأنه استعلى عليهم بإيمانه وسلوكه ومنهجه.
- وعندما هددوه بملكهم وأعدادهم، رد الملك إلى الله سبحانه، ثم طعن في أسلوبهم القيادي واستعلاء ملوكهم بغير حق، مشيراً إلى منهجية وطبيعة القيادة الإسلامية، بحيث يتمنى الروم أن يعاملوا أميرهم كما يعامل المسلمون أمراءهم، كما رد على مسألة العدد بإرجاع الأمر إلى الله الذي بيده كل شيء.
- كل ذلك في قالب من العزة والقوة والتواضع، وإصرار على الدعوة إلى إحدى الخصال الثلاثة، ورد التهديد بما هو أقوى وأوقع في النفس.

ترى ما هو شعور المسلم عندما يقرأ هذا الموقف للصحابة الذين فتحوا فلسطين، وبين أولئك الذين يساومون عليها الآن في عصرنا (غزة – أريحا...؟!).

ويبعث الروم رجلاً منهم إلى أبي عبيدة ليفاوضه، ويتكرر موقف شبيه لما حدث مع معاذ؛ إذ إن الرجل لما دنا من المسلمين لم يعرف الأمير!! فسأل عنه، فقالوا: ها هو ذا!! فنظر إذا هو بأبي عبيدة جالس على الأرض، وهو منتكب القوس، وفي يده أسهم وهو يقلبها، فتعجب منه وسأله لم يجلس على الأرض؟ فكان مما قاله أبو عبيدة: "ما أصبحت أملك ديناراً ولا درهماً، وما أملك إلا فرسي وسلاحي وسيفي... ولو كان عندي بساط أو وسادة ما كنت لأجلس عليه دون إخواني وأصحابي..."، فعرض الرومي على أبي عبيدة أن يعطي كل مقاتل مسلم دينارين وثوباً ويعطي أبا عبيدة ألف دينار، ويعطي الخليفة عمر ألفين، ويعطي المسلمين أرض البلقاء وسواد الأردن على أن يرجعوا وتكتب بذلك المواثيق، فرفض أبو عبيدة وقال: إن الله أمرهم أن يعرضوا على العدو إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب.... فانصرف الرومي[٦٩]. كان على الروم أن يدركوا أن المسلمين أصحاب رسالة، وأنهم لا يبيعون رسالتهم بعرَضٍ من الدنيا، وهو درس أيضاً لأولئك المؤرخين الذين يتشدقون بالدافع الاقتصادي وعوامل الجوع والعطش التي يزعمون أنها دفعت المسلمين للقيام بحركة الفتح الإسلامي.

كان قائد الروم في المعركة هو سَقِلار بن مخراق، وقائد المسلمين أبو عبيدة، وفي الثلث الأخير من ليلة الإثنين ٢٨ ذي القعدة ١٣هـ – ٢٣ كانون الثاني/ يناير ٦٣٥م تمَّت تعبئة المسلمين وترتيبهم، وصلّوا الفجر، وجعل أبو عبيدة على الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة هاشم بن عتبة، وعلى المشاة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وعبر بهم النهر باتجاه الروم[٧٠].

أما الروم فظنوا أن المسلمين في فحل لا يتوقعون عبورهم إليهم، وقدر قائدهم أنه إذا جاءهم وجدهم نياماً فيفاجئهم، فسار بجيشه نحو فحل[٧١].

وفي الصباح بدأت المعركة، وكان القتال فيها أشد قتال اقتتلوه قط، وقتل خالد بن الوليد بنفسه ١١ رجلاً من أشدائهم وبطارقتهم، وانتصر المسلمون، وقيل إن ٨٠ ألفاً أصيبوا لم يفلت منهم إلا الشريد[٧٢]، وذكر البلاذري أن قتلى الروم كانوا حوالي عشرة آلاف[٧٣].

وبهذه المعركة غلب المسلمون على أرض الأردن وأصابوا من ريفه أفضل ما ترك الروم فأصبحت أقواتهم ومادتهم موفورة، وأخذ الروم ينتقلون إلى الحصون، وأصابهم الرعب مما أصابهم فلجأ الكثير من فرسانهم وأغنيائهم إلى قيسارية والقدس[٧٤].

الاتجاه شمالاً:

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الروم هزيمتين كبيرتين على أرض فلسطين إحداهما في الجنوب "أجنادين" والأخرى في الشمال "فحل – بيسان" إلا أنهم لم يتابعوا طريقهم لفتح باقي فلسطين، وإنما اتجهوا شمالاً، فحاصروا دمشق أربعة أشهر حتى فتحوها يوم الأحد ١٥ رجب ١٤هـ – ٣ أيلول/ سبتمبر ٦٣٥م، ثم فتحوا بعلبك صلحاً أواخر ربيع الأول ١٥هـ – أوائل أيار/ مايو ٦٣٦م، ثم فتحوا حمص صلحاً بعد حصار استمر ١٨ ليلة في ٢١ ربيع الآخرة ١٥هـ – أول حزيران/ يونيو ٦٣٦م، وأرسل أبو عبيدة بعدها طلائع جنده إلى حلب، وإلى جهة الجزيرة، ولكن عمر بن الخطاب طلب منه أن يضم أجناده ويتوقف. ففي تلك الفترة كانت تجري الاستعدادات الكبرى لمعركة القادسية بين المسلمين والفرس، ثم إن الروم كانوا يعدون لمعركة حاسمة فاصلة، ولذلك دعا أبو عبيدة خالداً فبعثه إلى دمشق ليقيم بها في ألف من المسلمين، كما كلَّف عمرو بن العاص، أن يقيم بجيشه في فلسطين[٧٥].

ثامناً: معركة اليرموك:

كان هرقل خلال الهزائم السابقة المتكررة ما يزال مقيماً في أنطاكية يحشد قواته ويبعثها للقتال، ويبدو أنه عند سقوط دمشق، وربما قبلها، أراد أن يحشد حشداً ضخماً بأكبر قوة يستطيعها ليدخل بها معركة فاصلة. وقد اختلفت الروايات في أعداد الروم وذكر الرواة أنه أقبلت من الجموع ما لا تحمله الأرض، ووصفهم الأزدي قائلاً: "فطبقوا الأرض مثل الليل والسيل كأنهم الجراد السود"[٧٦]، أما تقديرات الرواة لأعدادهم فتراوحت بين ١٠٠–٤٠٠ ألف، ولعل الأقرب للصحة أنهم كانوا ٢٠٠ ألف بقيادة باهان Vahan، أما عدد المسلمين فكان ٣٦ ألفاً منهم ألف من الصحابة رضوان الله عليهم فيهم نحو مئة ممن شهدوا بدراً[٧٧].

ولما بلغت أبا عبيدة أخبار جموع الروم الهائلة، وكان المسلمون قد ساحوا في أرض الشام، قررت قيادة جيش المسلمين أن يتنحوا جانباً وينسحبوا من حمص، وردوا لأهلها جزيتهم؛ لأنهم غير قادرين على حمايتهم[٧٨]. وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب كره هذا الرأي إلا أنه رضي لإجماعهم عليه، وأمدهم بقوة عليها سعيد بن عامر وأوصى سعيداً: "إني قد وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم إلا أن تكون أتقى لله منه، فلا تشتم أعراضهم ولا تضرب أبشارهم، ولا تحقر ضعيفهم، ولا تؤثر قويهم، وكن للحق تابعاً، ولا تتبع هوى شاذاً..."[٧٩]. وهكذا فإن علاقة القيادة بالأفراد في الجيش

الإسلامي علاقة متميزة تقوم على احترام إنسانيتهم، ومراعاة مشاعرهم، والمساواة والعدل بينهم لا كما يحدث في بعض الجيوش؛ حيث يتفنن أصحاب كل رتبة في إذلال من دونهم بحجة الانضباط، فتقوم علاقة مبنية على الكراهية والخوف لا على الحب والاقتناع والولاء.

ورجع أبو عبيدة إلى دمشق، ورد المسلمون على أهلها ما جُبي منهم[٨٠]، وكان رأي المسلمين أن يتجمعوا لعدوهم وينتظروا قدوم الإمدادات لهم...، فخرج المسلمون باتجاه الأردن، وزحف جيش الروم، وانضم إليهم النصارى في المناطق التي في طريقهم...، وتجرأوا على المسلمين[٨١]. وأرسل أبو عبيدة إلى عمر أن "الروم قد نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا ورائهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا، وأخرجوا معهم القسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة..." وأخبره رأي المسلمين بالتنحي والتجمع حتى يأتي المدد... وقال "فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال، وإلا فاحتسب أنفس المسلمين إن هم أقاموا ودينهم منهم إن هم تفرقوا، فقد جاءهم ما لا قِبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله، والسلام عليك"[٨٢].

ولما وصل كتاب أبي عبيدة إلى عمر دعا المهاجرين والأنصار فقرأه عليهم، فبكوا بكاء شديداً وأشفقوا على إخوانهم، ولم يكن هناك مجال لإرسال غوث ومدد للمسلمين لقرب الروم منهم، فأرسل عمر يثبتهم ويشد من أزرهم، ويؤكد لهم في هذا الجو العصيب المعاني الإسلامية بما تحمله من إيمان وثقة بالله وموازين الصراع بين الحق والباطل... ومما جاء فيها "... فلا تهولنك كثرة ما جاء منهم فإن الله منهم بريء، ومن برئ الله منه كان قمناً [جديراً] ألا تنفعه كثرة، وأن يكله الله إلى نفسه ويخذله، ولا توحشك قلة المسلمين، فإن الله معك، وليس قليلاً من كان الله معه. فأقم بمكانك الذي أنت فيه حتى تلقى عدوك وتناجزهم وتستظهر الله عليهم، وكفى به ظهيراً وولياً ونصيراً..." "ولعمري إن أقام لهم المسلمون وصبروا فأصيبوا لما عند الله خير للأبرار"... ومما جاء في كتاب عمر لأبي عبيدة أيضاً:

> فأما قولك إنه قد جاءهم ما لا قِبل لهم به، فإن لا يكن لكم بهم قبل فإن لله بهم قبلاً، ولم يزل ربنا عليهم مقتدراً، ولو كنا والله إنما نقاتل الناس بحولنا وقوتنا وكثرتنا لهيهات ما قد أبادونا وأهلكونا، ولكن نتوكل على الله ربنا ونبرأ إليه من الحول والقوة ونسأله النصر والرحمة، وإنكم منصورون إن شاء الله على كل

حال، فأخلصوا لله نياتكم، وارفعوا إليه رغبتكم، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون" وأوصاه عمر أن يقرأ كتابه على الناس[٨٣].

وجاء الرسول بكتاب عمر يوم دخل سعيد بن عامر الجمحي بألف من المسلمين مدداً من قبل عمر في معسكر المسلمين باليرموك، واستبشر المسلمون بالمدد، كما استبشروا برأي عمر[٨٤].

كانت جيوش المسلمين قد اجتمعت بالجابية قبل أن تتجه إلى اليرموك، وفي الجابية اجتمع قادة المسلمين وتداولوا الأمر فكان رأي بعضهم الانسحاب جنوباً إلى أطراف الصحراء، أما خالد بن الوليد فقال: "أرى والله إن كنا نقاتل [بالكثرة والقوة] هم أكثر منا وأقوى منا وما لنا بهم إذن طاقة، وإن كنا نقاتلهم بالله ولله، فما [أرى] جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً أنها تغني عنهم شيئاً"[٨٥].

كان قادة المسلمين يدركون خطورة الموقف، ويستشعرون عظم المسؤولية، وفي هذا الموقف الذي تتزلزل فيه الأقدام، ويهرب منه عشاق المناصب تقدم خالد بن الوليد وقال لأبي عبيدة: "أتطيعني أنت فيما آمرك به؟" قال أبو عبيدة، أمين هذه الأمة، وكله ثقة بخالد: نعم، فقال خالد: "فولني ما وراء بابك وخلني والقوم فإني لأرجو الله أن ينصرني عليهم"، قال أبو عبيدة "قد فعلت"[٨٦].

وهكذا فوض أبو عبيدة خالداً بالقيادة الميدانية، بينما احتفظ لنفسه، كما يظهر، بالقيادة العليا الرسمية للجيش. وظلّ خالد متأدباً مع أبي عبيدة فاستشاره في قيادة الميمنة فرشح أبو عبيدة معاذاً فوافق خالد، وقال فولّها له، فولاها له أبو عبيدة، ورشح خالد قُباث بن أشيم على الميسرة، فأمره أبو عبيدة بذلك، وقال خالد: وأنا على الخيل، وولِّ على الرجالة من شئت، فاختار أبو عبيدة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص فوافق خالد، فأمر أبو عبيدة بذلك. ثم إن أبا عبيدة أرسل، بطلب من خالد، إلى أهل كل راية أن يطيعوا خالداً، ونقل الأمر الضحاك بن قيس، فسار على الناس وهو يقول: "إن أميركم أبا عبيدة، يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما يأمركم به"[٨٧].

انسحب المسلمون من الجابية إلى أذرعات؛ حيث نزلوا خلف نهر اليرموك وجعلوا أذرعات خلفهم، ونزل الروم بين اليرموك ووادي الرقاد "الواقوصة" فحُصروا من ثلاث جهات. وتحرك المسلمون من أذرعات وعسكروا مقابل الروم الذين لم يعد لهم طريق إلا على المسلمين[٨٨].

كان المسلمون، في المعارك السابقة، يقاتلون متساندين أي أن كل جيش وحدة مستقلة بذاتها تتعاون مع الجيوش الأخرى، وكان رأي خالد مزجها جيشاً واحداً، وإعادة تنظيمها بوحدات متناسقة على شكل كراديس، فاجتمع بأمراء الجيش واقترح لهم ذلك، وكان مما قاله: "إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم فإن هذا اليوم له ما بعده"... "فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند، ولا يزيده عليه إن دانوا له. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ....". وهكذا عالج خالد مسألة الإمارة الحساسة بصراحة ووضوح، وسد على النفوس منافذ الشيطان وسوء الظن، وتمت الاستجابة بسلاسة ويسر، وأعيد الترتيب بحيث يظهر كما يرى أحمد كمال أن أمراء الجيوش كانوا هيئة إدارة عليا للميدان بدليل وجود أسماء أخرى لقيادات الميمنة والميسرة والمشاة[٨٩].

وقبيل المعركة دعا باهان قائد الروم خالداً للتباحث، وفي المفاوضات التي جرت بينهما تحدث باهان عن قوة أمته ومَنَعتها ساخراً من ضعف ورقَّة حال العرب، وعرض عليه أن يعطي الأمير عشرة آلاف دينار، وأن يأخذ خالد عشرة آلاف، وكل رئيس ألف دينار، ولكل فرد مئة دينار!! وهكذا تتكرر مرة أخرى لدى الروم تلك العقلية المساومة التي تربط حركة الحياة بالمادة والمصلحة، ولم تستوعب أصول الرسالة الإسلامية وسموها ودوافع حركتها الجهادية النبيلة. ويرد خالد على طرح وعرض باهان فيؤكد له ما ذكره مما كان عليه العرب من فقر وضعف وفرقة وصراع ويبين له أن الذي استجد عليهم ليس الفقر والجوع، وإنما "خروج النبي ﷺ برسالة الإسلام وأمره لهم بقتال من اتخذ مع الله آلهة أخرى...." وعرض خالد على باهان إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال[٩٠].

ودعا الدرنجار قائد ميسرة الروم رجلاً من نصارى العرب، وأمره أن يذهب ليتجسس على المسلمين فذهب ومكث في معسكرهم ليلة حتى أصبح، فأقام عامة يومه، ثم عاد إلى الدرنجار فقال له: "جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أسد بالنهار، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى" فقال درنجار: "لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير –لمن يريد قتالهم– من ظهرها"[٩١]. هذا الوصف، هو الوصف الحقيقي لأي جيش مسلم يرفع راية الحل الإسلامي لتحرير الأرض المباركة، واستعادتها من أيدي الأعداء.

وفي يوم الإثنين ٥ رجب ١٥هـ - ١٢ آب/ أغسطس ٦٣٦م وقعت معركة اليرموك، ووضع باهان على ميمنته ابن قناطر، وعلى ميسرته الدرنجار، ومعه جرجير في جند أرمينية، وجبلة بن الأيهم الغساني على الأعراب الموالين للروم، وعددهم ١٢ ألفاً من قبائل لخم وجذام وبلقين وعاملة من قضاعة وغسان[٩٢].

وزحف الروم على المسلمين مثل "الليل والسيل" وكانوا حوالي ١٢٠ ألفاً من المشاة، و٨٠ ألفاً من الفرسان. وأخذ قادة المسلمين يحثون الجنود على الصبر والجهاد، وسار أبو عبيدة في المسلمين فقال "يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر ومرضاة للرب ومدحضة للعار، فلا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا [بالدُّرق] والزموا الصمت إلا من ذكر الله حتى آمركم إن شاء الله"[٩٣].

وكذا فعل معاذ بن جبل، وعمرو بن العاص الذي كان مما قاله: "فوالذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان، لقد بلغني أن المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لقد انذعروا انذعار أولاد الحجل"[٩٤].

وهكذا فعل أبو سفيان بن حرب، وجاءت نساء المسلمين فوقفن على مرتفع خلف الصفوف فرجع إليهنَّ أبو سفيان وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن، وقال لهن: "لا يرجع أحد من المسلمين إلا رميتنَّه بهذه الحجارة"[٩٥].

وزحف الروم، وقد رفعوا الصلبان، وأقبلوا معهم الرهبان والقسيسون والبطارقة، وتبايع عظماؤهم على الموت، ودخل ٣٠ ألفاً منهم بالسلاسل، كل عشرة في سلسلة حتى لا يفروا[٩٦].

ورجع خالد إلى نساء المسلمين فأمرهن أن يقتلن أي رجل أقبل إليهنَّ منهزماً من المسلمين، ونظم خالد الجيش بحيث كان الفرسان خلف المشاة، وبحيث ينكسر الهجوم الرومي أمام المشاة، وعندما يفقد الروم نظامهم يهاجمهم خالد بفرسانه وهي مرتاحة[٩٧].

وبدأ الهجوم الرومي على ميمنة المسلمين ثم الميسرة، وحدث التحام هائل، وأمام سيل الروم الجارف انكشف المسلمون في الميمنة والميسرة، لكن المسلمين صمدوا في القتال بين مد وجزر[٩٨]. وكان أشد القتال في الميمنة؛ حيث الأزد قوم أبي هريرة الذي أخذ يحمس المسلمين هناك، ويقول "تزينوا للحور العين، وارغبوا إلى جوار ربكم عز وجل في

جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم"[٩٩]. وهكذا فمن يتمعن في أقوال قادة المسلمين والصحابة في المعركة (أبي عبيدة، ومعاذ، وعمرو، وأبي هريرة...) لا يرى حثاً على الدنيا ولا وعوداً بالمغانم والمناصب، وإنما دعوات للإخلاص والصبر والذكر، وثقة بوعد الله ونصره، ورغبة في الشهادة والجنة.

وعندما حدث الاختراق الرومي للميمنة والميسرة، وثبت القلب، تدفقت قوات الروم نحو معسكر المسلمين بالخلف، وظلت هناك صفوف المسلمين تقاوم، ويعود إليها من جديد من كانت الروم قد اجتاحته.

وفي هذا الجو العصيب، قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منه اليوم؟! من يبايع على الموت؟! فبايعه ٤٠٠ من وجوه المسلمين وفرسانهم فيهم الحارث بن هشام وضرار بن الأزور فاستبسلوا أمام فسطاط خالد، حتى أصيبوا جميعاً بجراح خطيرة فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من برئ مثل ضرار بن الأزور[١٠٠]. وقاتلت نساء المسلمين في هذا اليوم قتالاً شديداً كخولة بنت الأزور، وأم حكيم ابنة حكيم ابن الحرث، وسلمى بنت لؤي، وأسماء بنت أبي بكر...، كما قامت نساء المسلمين بمداواة الجرحى وسقاية الماء[١٠١].

كان خالد بن الوليد في نصف فرسان المسلمين وقيس بن هبيرة في النصف الثاني لم يقاتلوا حتى تلك اللحظة، وعندما تكسرت صفوف الروم زحف خالد في فرسانه إلى الروم، وقد أنهكهم التعب واختلت صفوفهم. أما فرسان الروم الذين سبقوا المشاة إلى معسكر المسلمين فقد انقطعت أخبارهم، ويبدو أنهم استمروا في طريقهم هرباً من المعركة والحصار وعددهم حوالي ٣٠ ألف فارس، ولما رأى المسلمون خيل الروم كذلك فتحوا لها مهرباً فذهبت في حالة من الفوضى، وشدَّ خالد بفرسانه على المشاة وقتل ستة آلاف وقيل عشرة آلاف[١٠٢]، وقيل إنه تكسرت في يد خالد تسعة أسياف[١٠٣].

وأخذ المسلمون يزحفون مع هجوم خالد وقيس... وتراجع الروم وقد سدَّ المسلمون عليهم المنافذ...، واندفعوا متراجعين إلى الواقوصة (وهو نهر الرقاد من جهة التقائه باليرموك) وكانت حافته مرتفعة فتهاووا فيها، إذ كان الجو ضباباً، وقيل كان ليلاً وهو الأرجح؛ حيث قتل منهم في هذه الهاوية حوالي ٨٠ ألفاً، وقتل في المعركة ٥٠ ألفاً، واستطاع الفرار تحت جنح الليل حوالي ٤٠ ألفاً، بينما كان قد هرب حوالي ٣٠ ألف فارس[١٠٤]. أما المسلمون فقد استشهد منهم حوالي ثلاثة آلاف[١٠٥].

استعادة الشام:

وبانتهاء معركة اليرموك التي تعدّ إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ انكسرت شوكة الروم في الشام، وأصبح فتحها أكثر سهولة ويسراً على المسلمين. وقد استفاد المسلمون من هذه الفرصة، فقام خالد بسرعة كبيرة بمطاردة الروم واستعادة الشام حتى حمص[١٠٦]. وعادت القيادة المباشرة على الجيوش لأبي عبيدة الذي انتقل معسكره إلى مرج الصفر ومنها إلى دمشق[١٠٧].

وفي أواخر آب/ أغسطس ٦٣٦م جاء أمر عمر إلى أبي عبيدة بإعادة الجيش، الذي جاء مدداً من العراق مع خالد، فعاد إلى العراق ستة آلاف؛ ليدركوا معركة القادسية التي وقعت بعد اليرموك بأربعين يوماً[١٠٨].

وفي دمشق قسّم أبو عبيدة الشام على الأمراء فاستخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمرو بن العاص على فلسطين، وشرحبيل بن حسنة على الأردن، ومضى أبو عبيدة إلى حمص. ومن دمشق خرج يزيد، وفي مقدمته معاوية بن أبي سفيان ففتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وكان فتحاً يسيراً. أما شرحبيل ففتح باقي الأردن بيسر... ففتح سوسية، وأفيق، وجرش، وبيت راس، وقدس، والجولان، وذلك في النصف الثاني من ١٥هـ[١٠٩].

تاسعاً: فتح فلسطين:

وانفتح الطريق بعد اليرموك إلى فلسطين، فاتجه عمرو بن العاص إليها، ففتح سبسطية ونابلس، ثم اللد ونواحيها، ثم يبنة وعمواس وبيت جبرين، ثم هبط باتجاه الجنوب الغربي حتى فتح رفح، وفي رواية حتى أنه فتح يافا، وفي قول آخر أن معاوية هو الذي فتحها. ثم فتح عمرو عسقلان ثم انتقض أهلها فأعاد معاوية فتحها في ولايته[١١٠]. وذكر صاحب فتوح البلدان أن عمرو ابن العاص فتح غزة على عهد أبي بكر[١١١].

وهكذا فتحت فلسطين، ولم يبقَ إلا قيسارية وبيت المقدس، أما بيت المقدس فقد فتحت على الأرجح في ربيع الآخر ١٦هـ – أيار/ مايو ٦٣٧م. فقد اتجه عمرو بن العاص إلى القدس بعد أن أصبحت جيباً معزولاً وحاصرها، وبعد أن فرغ أبو عبيدة من تطهير شمال الشام (حلب، أنطاكية...) سار إلى عمرو وتولى الحصار بنفسه.

وكتب أهل القدس إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح على مثل ما صالحت عليه مدن الشام، غير أنهم اشترطوا أن يتولى العقد عمر بن الخطاب... .

استخلف عمر بن الخطاب عليَّ بن أبي طالب على المدينة، وسار إلى الشام؛ حيث وافاه أمراء جيوش المسلمين في الجابية. ومع قدوم عمر هرب قائد الروم (أرطبون) من القدس، فكان الذي صالح عن أهل فلسطين رجل من أهل إيلياء (القدس) والرملة يدعى العوَّام. وقد صالح عمر أهل القدس وهو بالجابية وكتب لهم هناك الصلح[١١٢]. وقد جاء في نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وله مثل ما على أهل إيلياء من الجزية... .

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر ١٥هـ[١١٣].

وهذا النص هو ما يعرف **بالعهدة العمرية**، وعلى أساسه فتحت القدس، وهو يعكس مدى التسامح الديني الذي تمتع به المسلمون؛ بحيث أصبح نموذجاً يحتذى في وقت كان التعصب الأعمى والإكراه على الدين يعم العالم.

وقبل أن نسرد دخول عمر إلى القدس نقف لحظات مع ذلك الجيل الرباني الذي فتح الأرض، وحطم القوى الكبرى في ذلك الزمان. نقف مع الخليفة القائد الزاهد عمر لنستلهم من سلوكه بعض المعايير التي يحتاجها أولئك الذين يتصدَّرون العمل الإسلامي، ويتحملون أمانة وتبعات الجهاد والتحرير. فقد روى ابن أبي الدنيا عن أبي الغالية الشامي أن عمر قدم إلى الجابية "على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا ركاب....، وعليه

قميص من كرابيس قد رَسم وتخرَّق جنبه....، فنزع قميصه وغسل ورقع" فقال له أحدهم: "أنت ملك العرب وهذه البلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا، وركبت بردوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم" فقال عمر: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً"[114].

ونقل ابن كثير عن طارق بن شهاب قال:

> لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع موقيه [حذاءه] فأمسكهما بيده، وخاض الماء ومعه بعيره. فقال أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكَّ في صدره وقال: أولو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله[115].

وهنا نقف لنقول: إن الشعور الذاتي بالعزة والكرامة الناتجة عن الإيمان، وتجاوز عُقد النقص، والتأكيد على ما يبذله الإنسان من عمل لا على ما يظهر عليه من لباس أو نعيم، هي من أحوج الحاجات لقادة المسلمين وأفرادهم.

لقد وضع عمر رضي الله عنه وهو في طريقه إلى القدس يده على القاعدة التي حكمت تاريخ المسلمين منذ فجر الدعوة وحتى عصرنا، وهي أن الله أعزّ المسلمين بالإسلام فمهما طلبوا العزّ بغيره أذلهم الله. وهي القاعدة التي أكدها رصيد التجربة، وهي القاعدة التي يستند إليها دعاة الحل الإسلامي لتحرير أرض الإسراء والمعراج.

رحمك الله يا عمر، كم من أناس وقادة يخجلون إذا لم يلبسوا البِذَل وربطات العنق، وإذا لم يلووا ألسنتهم ببعض الكلمات والمصطلحات الإنجليزية، ويخجلون أن يقوموا للصلاة إن حان وقتها،... ولكنهم لا يخجلون أن يفرِّطوا في أرض الإسراء والمعراج، وأن ينظروا للتسوية السلمية و"بركات" التطبيع...، كما لا يخجلون أن يتنكروا لتراث الأنبياء ودماء الشهداء!!

سار عمر من الجابية حتى وصل إلى القدس، وهو وغلامه يتبادلان الركوب على الجمل، ودخل عمر القدس وهو يمشي على قدميه وغلامه راكب!! ويذكر أنه شارك معه في فتح القدس أربعة آلاف من الصحابة، وهي المدينة الوحيدة التي استلم الخليفة عمر مفاتيحها بنفسه. وعندما دخل القدس صلى في محراب داود عليه السلام قارئاً سورة ص، حيث سجد سجدة داود، ثم قارئاً في الركعة الثانية سورة الإسراء، التي تحدثت فواتحها

عن حادث الإسراء ومباركة الله سبحانه لأرض فلسطين، ووعد الله سبحانه بظهور اليهود مرتين وانتصار المؤمنين عليهم[١١٦].

وسأل عمر عن مكان الصخرة المباركة التي كانت اختفت معالمها؛ لأنها اتُخذت مكاناً لإلقاء الأوساخ والقمامة من قبل سكانها النصارى، رداً على اليهود الذين اتخذوا مكان الشخص المصلوب بدل السيد المسيح (الذي شُبه للنصارى واليهود) مكاناً لإلقاء الأوساخ والقمامة، والذي أنشأت هيلانة Helena أم الإمبراطور قسطنطين في مكانه كنيسة "قمامة" التي عُرفت بعد ذلك بكنيسة "القيامة". وقد دلَّ كعب الأحبار عمر على المكان، فقام عمر بنفسه يشاركه الصحابة وأهل المنطقة بإزالة الأوساخ عنها وتنظيفها، ثم أمر عمر ببناء الحرم فبني من الخشب بما يتسع لحوالي ثلاثة آلاف من المصلين[١١٧].

أما **قيسارية** فقد فتحها معاوية بن أبي سفيان في شوال ١٩هـ - تشرين الأول/ أكتوبر ٦٣٩م، وبذلك تمّ للمسلمين فتح كل فلسطين. وقد كانت قيسارية مدينة عامرة ضخمة على البحر، ويبدو أن الروم أرادوا الاحتفاظ بها كموطئ قدم، وكان قد سبقت فتحها محاولات عدة لم يكتب لها النجاح. فقد كان أول من حاصرها عمرو بن العاص ١٣هـ، وكان يعود لمحاصرتها بعد أن يشارك في اجتماع الجيوش لمعارك أجنادين وفحل ومرج الصفر واليرموك، وحاصرها بعد فتح القدس ثم خرج إلى مصر، فولى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان، وأمره بغزوها فنهض إليها في ١٧ ألفاً وحاصرها، ومرِض آخر ١٨هـ فمضى لدمشق، واستخلف أخاه معاوية الذي تمّ له فتحها قسراً.

ويذكر البلاذري أن معاوية وجد فيها عندما فتحها ٧٠٠ ألف من المرتزقة، ومن السامرة ٣٠ ألفاً، ومن اليهود ٢٠٠ ألف، و٣٠٠ سوقٍ، وكان يحرس سورها ١٠٠ ألف، وقيل إن قتلى الروم عند فتحها كانوا حوالي ١٠٠ ألف، وسبي أربعة آلاف أرسلهم معاوية إلى عمر فأنزلهم الجرف[١١٨]. غير أنه، على ما يبدو، فإن هناك مبالغة كبيرة في ذكر أعداد المرتزقة واليهود والأسواق، ولعلها في الحقيقة أقل من ذلك بكثير.

وظلّ عمر بن الخطاب في القدس بضعة أيام، وقبل أن يغادر خطب في المسلمين "يا أهل الإسلام، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكَّن لكم في الأرض، فلا يكون جزاؤه منكم إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر بالنعم، وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفرغوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط الله عليهم عدوهم"[١١٩].

هذا ما قاله عمر، وهو الذي جعل الله الحق على لسانه، وهذه هي الحقيقة التي نعايشها اليوم، والتي عايشها المسلمون أيام الحروب الصليبية، كفر بالنعم وعمل بالمعاصي يتبعه سلب للعز وتسليط العدو على رقاب المسلمين.

عاشراً: الإسلام يترسخ في فلسطين:

وبعد الفتح الإسلامي لفلسطين أخذت هذه الأرض تكتسب من جديد هويتها الإسلامية؛ إذ دخل أهلها في الإسلام، وكان للصحابة الذين عاشوا فيها أثرهم في تعميق مفاهيمه ونشرها.

فمن الصحابة الذين استوطنوا في فلسطين عبادة بن الصامت (ت ٣٤هـ) وهو من الخزرج، شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان رضي الله عنه طويلاً جسيماً جميلاً[١٢٠].

ومنهم أيضاً شداد بن أوس (ت ٥٨هـ) رضي الله عنه وهو خزرجي، ابن أخي حسان بن ثابت، ولي إمارة حمص لعمر بن الخطاب، وكانت وفاته أواخر ولاية معاوية في القدس، وأسامة بن زيد بن حارثة (ت ٥٧هـ) رضي الله عنه سكن ناحية الرملة ومات بها، وواثلة بن الأسقع (ت ٨٥هـ) رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس ومات بها، وفيروز الديلمي رضي الله عنه وهو من فرس صنعاء وهو قاتل مدَّعي النبوة الأسود العنسي، ودحية الكلبي رضي الله عنه شهد كثيراً من الوقائع، كما شهد اليرموك، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم يدعوه للإسلام فلقيه في القدس وسلمه الرسالة، وسكن فلسطين وعاش فيها إلى خلافة معاوية، وتوفي في قرية "الدحي" التي نسبت إليه وجبلها القائمة عليه، وقبره معروف يُزار[١٢١]، والصحابي عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت ٧٨هـ) رضي الله عنه فقيه الشام وشيخ أهل فلسطين، كان ضمن البعثة التعليمية التي أرسلها ابن الخطاب، لتعليم أهل فلسطين أمور دينهم[١٢٢]، والصحابي علقمة بن مجزر الكناني، أرسله ﷺ في تبوك للاستطلاع إلى فلسطين، شهد اليرموك وحصار بيت المقدس، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب على القدس[١٢٣].

والصحابي أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، شهد بدراً والمشاهد كلها ومات بفلسطين وعمره ٨٥ سنة[١٢٤].

والصحابي مسعود بن أوس بن زيد، شهد بدراً وفتح مصر، وتوفي بالقدس.

والصحابي سلام بن قيس بن قيصر الحضرمي (وقيل سلامة أو سلمة)، كان والياً لمعاوية على بيت المقدس[١٢٥].

والصحابي زنباع بن روح الجذامي، وهو من أهل فلسطين قبل الإسلام[١٢٦]، ومالك السرايا مالك بن عبد الله الخثعمي رضي الله عنه ومنهم من يجعله في عداد التابعين، ولي الصوائف زمن معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك، وهو من أهل فلسطين[١٢٧].

ومن الصحابة أيضاً الذين عاشوا وتوفوا في فلسطين أبو ريحانة شمعون الأنصاري، وسويد بن زيد، وذو الأصابع التميمي، وأبو أبيّ بن أم حرام الأنصاري الخزرجي، وأنيف بن ملة الجذامي، وسويد بن زيد الجذامي، وسعد بن وائل بن عمرو العبيدي الجذامي، وأبو رويحة الفزعي واسمه ربيعة بن السكل رضي الله عنهم أجمعين[١٢٨].

وممن سكن بيت المقدس من الصحابة إبراهيم بن أبي علة العقيلي، ويزيد بن سلام، وعبد الله بن محيريز الجمحي، وزياد بن أبي سودة رضي الله عنه[١٢٩].

ورفع التابعون راية الصحابة على أرض فلسطين، وهناك الكثير ممن ولد فيها أو سكنها أو زارها، ومنهم رجاء بن حيوة الكندي (ت ١١٢هـ/٧٣٠م) وهو من أهل فلسطين من مواليد بيسان، وكان أميناً على بيوت أموال عبد الملك بن مروان، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز. ومن التابعين أيضاً عبادة بن نسي الكندي (ت ١١٨هـ/٧٣٦م) وكان جليل القدر، يُنعت بسيد أهل الأردن، تولى قضاء طبريا، ومنهم أيضاً مالك بن دينار، والأوزاعي، وروح بن زنباع، وهانئ ابن كلثوم بن عبد الله، وحميد بن عبد الله اللخمي، وسفيان الثوري، وابن شهاب الزهري[١٣٠].

ومن كبار الأئمة والفقهاء الذين عاشوا في فلسطين وزاروها الإمام الشافعي الذي ولد في مدينة غزة، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو بكر محمد الطرطوشي، وأبو بكر الجرجاني، وابن قدامة المقدسي. أما الإمام ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني فقد ولد وعاش في مصر بعد أن هاجر إليها أسلافه بعد خراب عسقلان ٦٦٩هـ[١٣١].

وإلى فلسطين ينتسب الفاتح الإسلامي الكبير موسى بن نصير اللخمي (١٩-٩٧هـ) فاتح الأندلس، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب، وكان جده من موالي بني عامر الذي دعي المرج باسمهم (مرج بني عامر) أصله من قيسارية، رئيس فنّ الكتابة وسيد الإنشاء وشيخ الدواوين صاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقتل معه سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م[١٣٢]. وإلى فلسطين أيضاً ينتسب أول علماء الكيمياء المسلمين الكبار خالد بن يزيد الأموي، وهو أول من نقل علوم الفرنج إلى العربية في دولة الإسلام[١٣٣].

ويمكن أن ينسب إلى فلسطين، حسب التقسيمات الجغرافية الإسلامية القديمة، أول ثلاثة خلفاء من دولة بني العباس؛ إذ ولد كل من أبي العباس السفاح، وأبي جعفر المنصور وابنه المهدي في الحميمة من جند فلسطين (الشام الأولى)، وهي تقع الآن شرق الأردن على يمين الطريق من معان إلى العقبة[١٣٤].

ومن الوزارء "الفلسطينيين" المشهورين الربيع بن يونس، الذي ينتسب إلى العائلة الكيسانية من جبل الخليل، كان حاجباً ثم وزيراً للمنصور، ثم وزيراً ومستشاراً للمهدي، أما ابنه الفضل بن الربيع فعمل حاجباً للمنصور، ثم وزيراً للمهدي، ثم وزيراً للهادي، ثم حاجباً لهارون الرشيد، ثم وزيراً للأمين بن هارون الرشيد[١٣٥]، ومن الوزراء أيضاً معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الطبراني استوزره المهدي، وفوض إليه أمر الدولة العباسية، وفي أيام وزارته علا شأن الوزارة لكفاءته ومقدرته[١٣٦]، وأحمد بن أبي خالد يزيد بن عبد الرحمن الكاتب الأحول، وكان من خيار الوزراء الذين استوزرهم المأمون[١٣٧].

ومن العلماء المعروفين عقيل بن خالد الأيلي (ت ١٤٤هـ) روى الحديث عن مالك بن أنس، وآدم بن أبي عباس العسقلاني (ت ٢٢٠هـ) روى عنه البخاري، والعباس بن محمد الجرجي (ت ٣٢٠هـ) محدث فلسطين ينسب إلى قرية بيت جرجا من أعمال غزة، وسليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت ٣٤٠هـ)، وهو رحالة ومحدث مشهور من مواليد طبريا[١٣٨].

وقد أحصى أحد الباحثين المعاصرين أعيان المتوفين في بيت المقدس فقط في العهود الإسلامية فوجد أنهم تسعة من الصحابة، و٦٠ من الملوك والأمراء وأرباب الحكم، و١٦٧ من العلماء و٦٦ من الأولياء والصالحين و٥٣ من القضاة... وأضاف أن هذا غيض من فيض من أعيان المدفونين في بيت المقدس؛ لأن هناك كثيراً ممن توفوا فيها ضاعت أسماؤهم...، هذا في القدس وحدها فكيف بأرض فلسطين كلها؟![١٣٩].

هوامش الفصل الثاني

[١] رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأبو داود، انظر: المناوي، **فيض القدير: شرح الجامع الصغير**، ط ٢ (لا مكان: دار الفكر، ١٩٧٢)، ج ٦، ص ٤٠٣.

[٢] حديث حسن رواه الطبراني، انظر: **المرجع نفسه**، ج ٤، ص ٢٢٨.

[٣] **القرآن الكريم**، سورة الإسراء: ١.

[٤] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٧١.

[٥] إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٩)، ج ٣، ص ١٨٤-١٨٥.

[٦] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: ٨١.

[٧] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص ١٨٧.

[٨] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: ١٨.

[٩] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص ٥٣٣.

[١٠] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ط ٤ (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٩٨)، ج ٢، ص ١٥١.

[١١] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: ٢١.

[١٢] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ١، ق ١، ص ٣٤٣.

[١٣] محمد ناصر الدين الألباني، **تخريج أحاديث "فضائل الشام ودمشق" للربعي** (دمشق: المكتب الإسلامي، لا تاريخ)، ص ٥.

[١٤] حديث صحيح رواه الإمام أحمد في مسنده ٤٦٣/٦، وابن ماجه في سننه ٤٢٩/١، نقلاً عن: محمد عثمان شبير، **بيت المقدس وما حوله** (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩)، ص ٢٤.

[١٥] حديث صحيح رواه الطبراني ورجاله ثقات، نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص ٢٦.

[١٦] حديث صحيح، أخرجه الحاكم وأبو نعيم في الحلية، نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص ٢٧.

[١٧] رواه الطبراني، وقال الهيثمي فيه أرطأة بن المنذر وبقية رجاله ثقات، نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص ٢٧.

[١٨] رواه الإمام أحمد، نقلاً عن: **المرجع نفسه**، ص ٣١.

[١٩] انظر حول الفترة من بعثة المسيح عليه السلام وحتى الفتح الإسلامي في: محمود سعيد عمران، **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١)، ص ١٩-٧٥؛ وجوزيف نسيم يوسف، **تاريخ الدولة البيزنطية** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، دون تاريخ)، ص ٣٥-١١١، وانظر:

Moses Hadas, *A History of Rome: from its Origins to* 529 *A.D* (US: Peter Smith, 1976); and A.H.M. Jones, *The Later Roman Empire 284-602* (Paltimore (US): Johns Hopkins, 1986).

[٢٠] حول ميلاد رسول الله (ﷺ) والفترة المكية انظر مثلاً: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط ٦ (بيروت والكويت: مؤسسة الرسالة و دار البحوث العلمية، ١٩٧٩)، ص ٣٦-١١٨؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٣، ص ٢-١٧٧.

[٢١] ظلّ المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى في الصلاة حتى السنة الثانية للهجرة، انظر: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص ١٣٥.

[٢٢] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٨٩-٩٢، وابن كثير؛ **البداية والنهاية**، ج ٣، ص ١٠٨-١١٨.

[23] **القرآن الكريم**، سورة الأحزاب: ١٠.

[24] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٤، ص ٩٩-١٠٢.

[25] انظر كتبه (ﷺ) إلى الملوك في: **المرجع نفسه**، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٧٣.

[26] أحمد عادل كمال، **الطريق إلى دمشق** (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٠)، ص ١٤٨.

[27] **القرآن الكريم**، سورة الروم: ٢-٤.

[28] انظر: عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ص ٢٣٨-٢٤٢؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ١٤٥-١٤٩.

[29] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٥، ص ٢-١٨.

[30] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٦، ص ٣٠٤-٣٠٥؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ١٥٢-١٥٦.

[31] سيد قطب، **الجهاد في سبيل الله**، ص ٩٩-١٠٦.

[32] حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا** (القاهرة: دار الشهاب، دون تاريخ)، ص ٨٥.

[33] **القرآن الكريم**، سورة التوبة: ١١١.

[34] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ١٧٣.

[35] علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ** (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ج ٢، ص ٤٠٤.

[36] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١١-١٢.

[37] **المرجع نفسه**، ص ٢٣-٢٤.

[38] **المرجع نفسه**، ص ١٧.

[39] **المرجع نفسه**، ص ١٨.

[40] محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام** (بيروت: دار الجيل، دون تاريخ)، ص ١٥-١٦.

[41] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٦، ص ٣٥٢.

[42] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٢، ص ٤٠٤.

[43] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط ٢ (مصر: مطبعة السعادة، ١٩٤٨)، ج ٢، ص ٣١٥.

[44] الواقدي، **مرجع سابق**، ص ١٥-١٦.

[45] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٣-٢٤.

[46] أحمد كمال، **الطريق إلى المدائن**، ط ٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦)، ص ٢١٢-٢٦٣؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ١٥٩.

[47] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ١٦١-١٦٢.

[48] **المرجع نفسه**، ص ١٦٢-١٧٠؛ والأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠)، ص ١-٦.

[49] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ١٧١.

[50] **المرجع نفسه**، ص ١٧٦-١٩٢.

[51] **المرجع نفسه**، ص ١٩٥-١٩٦؛ والأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٧.



[52] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٢٠٩، و٢١٥.

[53] **المرجع نفسه**، ص ٢٣٩–٢٤٠، و٢٤٧.

[54] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٣٠.

[55] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٢٠٨–٢١٠.

[56] **المرجع نفسه**، ص ٢٣٨–٢٤٢.

[57] **المرجع نفسه**، ص ٢٧٣.

[58] **المرجع نفسه**، ص ٢٦٣–٢٧٢؛ وانظر: البلاذري، **فتوح البلدان** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٢٠.

[59] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٩٠.

[60] محمد بن جرجير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩)، ج ٣، ص ٤١٨.

[61] البلاذري، **مرجع سابق**، ق ١، ص ١٣٥؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٢٨٠–٢٨١.

[62] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٢٩١–٢٩٨.

[63] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٠٢–١٠٣؛ وأيضاً: أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٣٠٥.

[64] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٣٠٥–٣٠٦؛ وحسب الأزدي فإن الكلامٍ الوارد في هذا النص على لسان أبي عبيدة كتبه عمر بن الخطاب بنفسه إلى أبي عبيدة ومعاذ بن جبل رداً على رسالتهما إليه، انظر: الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٠٢.

[65] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٣٣٤، و٣٤٦؛ والأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٣١.

[66] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١١٣–١١٤.

[67] **المرجع نفسه**.

[68] انظر نص مفاوضة معاذ للروم في: الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١١٥–١٢١.

[69] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٢١–١٢٥.

[70] **المرجع نفسه**، ص ١٣٠؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٣٣٢.

[71] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٣٣٣.

[72] **المرجع نفسه**، ص ٣٤٤؛ والأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٣٦.

[73] البلاذري، **مرجع سابق**، ص ١٢٢.

[74] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٣٤٤، و٣٤٩.

[75] **المرجع نفسه**، ص ٣٥٨–٤٠١.

[76] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٩٤.

[77] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٠٦–٤٠٧؛ وانظر: الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٥٢؛ والبلاذري، **مرجع سابق**، ص ١٤١.

[78] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٥٣–١٥٦.

[79] **المرجع نفسه**، ص ١٨٦.

[80] **المرجع نفسه**، ص ١٦٠.

[81] **المرجع نفسه**، ص ١٦٠–١٦٩.

[82] **المرجع نفسه**، ص ١٨٠-١٨٢.

[83] **المرجع نفسه**، ص ١٨٣.

[84] **المرجع نفسه**، ص ١٨٤.

[85] **المرجع نفسه**، ص ١٧٠؛ وفي النص المشار إليه بين القوسين ذكر الأزدي ويبدو أن الصحيح هو "بالكثرة والقوة"، انظر: أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٢٨-٤٢٩.

[86] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٧٠-١٧١.

[87] **المرجع نفسه**، ص ١٨٩.

[88] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٣٣، و٤٤٤.

[89] **المرجع نفسه**، ص ٤٤٥.

[90] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ١٩٩-٢٠٧.

[91] **المرجع نفسه**، ص ٢١١.

[92] **المرجع نفسه**، ص ٢١٠؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٦٦، و٤٧١.

[93] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢١٨؛ الكلمة المشار إليها بين القوسين ذكرت في نص الأزدي "بالورق".

[94] **المرجع نفسه**، ص ٢١٩.

[95] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٧٤.

[96] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٢٠.

[97] **المرجع نفسه**، ص ٢٢١؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٧٥.

[98] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٧٦-٤٨٠.

[99] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٢٥؛ والواقدي، **مرجع سابق**، ص ٢٠٦.

[100] الطبري، **مرجع سابق**، ج ٣، ص ٤٠١.

[101] الواقدي، **مرجع سابق**، ص ٢١٧-٢١٨.

[102] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٨٧-٤٨٩.

[103] الواقدي، **مرجع سابق**، ص ٢١٨.

[104] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٣١؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٩١-٤٩٤.

[105] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٤٩٦، وذكر الواقدي أن شهداء المسلمين كانوا أربعة آلاف، انظر: الواقدي، **مرجع سابق**، ص ٢٢٦.

[106] الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٣١.

[107] أحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٥٠٠.

[108] **المرجع نفسه**، ص ٥٠٩-٥١٠.

[109] **المرجع نفسه**، ص ٥١١-٥١٦.

[110] **المرجع نفسه**، ص ٥١٣.

[111] البلاذري، **مرجع سابق**، ص ١٤٤.

[112] حول فتح القدس، انظر: الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٤٦-٢٥٩؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٥٢٣-٥٢٧؛ والطبري، **مرجع سابق**، ج ٣، ص ٦٠٧-٦٠٨.

[113] الطبري، **مرجع سابق**، ج ٣، ص ٦٠٩.

[114] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٧، ص ٥٩-٦٠.

كرابيس: ثوب خشن غليظ.

[115] **المرجع نفسه**، ج ٧، ص ٦٠.

[116] انظر: الأزدي، **مرجع سابق**، ص ٢٤٦-٢٥٩؛ وانظر: مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس الجليل** (عمّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣)، ج ١، ص ٢٥٥.

[117] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٧، ص ٢٢٢.

[118] انظر: البلاذري، **مرجع سابق**، ص ١٤٥-١٤٨؛ وأحمد كمال، **الطريق إلى دمشق**، ص ٥٣٤-٥٣٥.

[119] مجير الدين الحنبلي، **مرجع سابق**، ج ١، ص ٢٥٨.

[120] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢، ص ٩٦.

[121] انظر: **المرجع نفسه**، ج ٩، ق ٢، ص٩٧؛ ومصطفى مراد الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩)، ص ٤٧-٤٨، و١٨٨.

[122] الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص ١٠٤.

[123] **المرجع نفسه**، ص ١٨٨.

[124] الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج ٩، ق ٢، ص ٩٧.

[125] انظر: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، **فضائل بيت المقدس**، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام رقم ٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥)، ص ٩٠-٩٢.

[126] الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص ١٠٤.

[127] **المرجع نفسه**، ص ٩٨-٩٩.

[128] ضياء الدين المقدسي، **مرجع سابق**، ص ٩٠-٩٢؛ والدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص ٩٨، و١١١-١١٣.

[129] شفيق جاسر أحمد محمود، **تاريخ القدس: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية** (عمّان: دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٤)، ص ١٢٥-١٢٦.

[130] مصطفى مراد الدباغ، **من هنا وهناك** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦)، ص ٨٠، و١٠٩.

[131] الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص ١٨٧؛ وشفيق محمود، **مرجع سابق**، ص ١٢٦-١٤٣.

[132] انظر: الدباغ، **من هنا وهناك**، ص ٨٠-٨١؛ والدباغ، **القبائل العربية وسلائلها**، ص ١٣٨-١٤٠.

[133] انظر: صالح مسعود أبو بصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**، ط ٣ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠)، ص ٢٤-٢٥.

[134] الدباغ، **من هنا وهناك**، ص ٨١.

[135] **المرجع نفسه**، ص ٨٢.

[136] **المرجع نفسه**.

[137] **المرجع نفسه**، ص ٨٣.

[138] **المرجع نفسه**، ص ١١٢.

[139] جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة تاريخية لمقابر القدس وتربها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها** (عمّان: مؤسسة آل البيت: المجموع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨١)، ص ١٥٠.

الفصل الثالث

المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

المسلمون في مواجهة الصليبيين والتتار

أولاً: سنن الله في النصر والهزيمة:

إن سنن الله سبحانه في نصر المسلمين ترتبط ارتباطاً لا ينفصم بمدى التزامهم بأحكام دينهم وشريعة ربهم، وهذا ما أثبتته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وما أكدته تجارب التاريخ، وما أصاب حياة المسلمين من مدٍّ وجزر.

- فالنصر لا يأتي إلا من الله، قال تعالى ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[1]، وقال سبحانه ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾[2].
- والله ينصر الفئة المؤمنة الصادقة ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾[3]، وقال سبحانه ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾[4].
- والنصر يتحقق للمؤمنين متى أحسنوا الصلة بالله سبحانه، والتزموا كتابه، وسنة نبيه، ونصروا دينه ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[5].
- وعوامل النصر الحقيقية تتمثل في: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله والذكر، وطاعة الله، وطاعة الرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، وقد ذكرها الله سبحانه فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾[6].

ومن طاعة الله ورسوله الاستجابة لما أمرنا به من بذل للأسباب في العدة والإعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[7]، وكذلك بيع النفس لله، والإنفاق والجهاد في سبيل الله.

- والمؤمنون العاملون هم سادة الأرض وحكامها، قال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[8].

- وعندما تقع الهزيمة للفئة المؤمنة، فلا بدّ أن تكون هناك ثغرة في حقيقة الإيمان، إما في الشعور وإما في العمل، وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين حين يوجدون، وبعد أن يسدوا ما بهم من ثغرات.
فمثلاً كانت الثغرة في "أحد" في ترك طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي الطمع في الغنيمة، وفي "حنين" في بدايتها، كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها...
- أما التخلي عن منهج الله سبحانه، فإنه يعني بالنسبة للمسلمين الضعف والذلة، والهزيمة، والضياع، قال تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[9].
وفي الأثر: "ما ترك قوم الجهاد إلا ذلّوا".

وهكذا فإن المد والجزر في تقدم المسلمين أو تأخرهم، في انتصارهم أو هزيمتهم، في حضارتهم، أو تخلّفهم، ترتبط ارتباطاً أساسياً بمدى التزامهم بشرع الله سبحانه، أو ابتعادهم عنه، ومن هذا المنطلق نتقدم لنفهم حقيقة حركة التاريخ في النصر أو الهزيمة عند المسلمين.

ودار الزمان:

قدمت أرض الإسلام في فلسطين على مرّ عصور الإسلام الزاهرة فيها أطيب الثمار وأينعها، ولكن هذا المد المعطاء من الحياة الإسلامية المشرقة لم يستمر....

وما فتئ الزمان يدور حتى ... مضى بالركب قوم آخرونا
وآلمـنـي وآلـم كـل حـرٍّ ... سؤال الدهر أين المسلمونا

فمنذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ بعد منتصف القرن الثالث الهجري، ودولة الخلافة الإسلامية في ضعف مستمر متزايد نتيجة ضعف الارتباط بالله سبحانه، وعدم التطبيق الدقيق لشرعه سبحانه، وضعف الحكام وانشغالهم بوسائل اللهو والترف، وانتشار الأفكار الضالة والفرق المنحرفة في دولة الإسلام، ودخول علماء المسلمين في مرحلة من الجمود والتقليد أبعدتهم عن حلّ كثير من مشاكل وقضايا العصر المتجدد التي تواجه المسلمين، وكثرة الخلافات الفقهية، وتزايد التعصب المذهبي، وتمزق دولة الإسلام، وتكوين ثلاث خلافات بدلاً من خلافة واحدة، فالخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في مصر وأجزاء من المغرب والشام، والخلافة الأموية في الأندلس،

وانشغال كثير من المسلمين بقشور الحضارة، ومباهجها، وجمع الأموال، والجواري والغلمان... .

في هذه الحالة من الترهل والضعف، التي أصابت المسلمين في تلك الفترة، حدثت الحروب الصليبية.

ثانياً: الخريطة السياسية للمنطقة قبيل الحروب الصليبية:

قبل بدء الحروب الصليبية بحوالي أربعين عاماً نجح السلاجقة الأتراك في بسط سيطرتهم على بغداد، وتولي الحكم تحت الخلافة الإسميّة للعباسيين. فقد استطاع السلاجقة بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس، وشمال العراق، وأرمينيا، وآسيا الصغرى حوالي سنة ١٠٤٠م، ثم سيطر السلطان السلجوقي طغرل بك على بغداد سنة ١٠٥٥م، وتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى، وفي ١٠٧١/٨/١٩م وقعت معركة ملاذكرد التي قادها السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وحلت فيها أكبر كارثة بالبيزنطيين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وفي ١٠٧١م سيطر السلاجقة على معظم فلسطين عدا أرسوف، وأخرجوا النفوذ الفاطمي منها، وتوسع السلاجقة على حساب الفاطميين في الشام فاستطاعوا الاستيلاء على معظمها[١٠].

وفي ٤٨٥هـ/١٠٩٢م توفي السلطان السلجوقي ملكشاه فتفككت سلطة السلاجقة، ودخلوا فيما بينهم في معارك طويلة طاحنة على السيطرة والنفوذ، وعلى حدِّ تعبير ابن الأثير "انحلت الدولة ووقع السيف"[١١]، وفي ١٠٩٦م أصبحت سلطتهم تتكون من خمس ممالك: سلطنة فارس بزعامة بركياروق، ومملكة خراسان وما وراء النهر بزعامة سنجر، ومملكة حلب بزعامة رضوان، ومملكة دمشق بزعامة دقاق، وسلطنة سلاجقة الروم بزعامة قلج أرسلان، وكانت معظم مناطق فلسطين تتبع الحكم في دمشق.

وفي ظلّ ضعف حاكمي الشام (رضوان ودقاق) ظهرت الكثير من البيوتات الحاكمة بحيث لا يزيد حكم كثير منها عن مدينة واحدة[١٢].

لقد بدأ الصليبيون حملتهم ٤٩١هـ/١٠٩٨م ومناطق المسلمين في الشام والعراق وغيرها تمزقها الخلافات والصراعات الدموية، فقد دخل الأخوان رضوان ودقاق ابنا تتش في حرب بينهما سنة ٤٩٠هـ، ووقعت معارك عديدة بين محمد بن ملكشاه وأخيه بركياروق في الصراع على السلطنة، تداولا فيها الانتصارات والخطبة لهما

بدار الخلافة (٤٩٢–٤٩٧هـ)، و"طالت الحرب بينهما، وعمّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين"[١٣]. وفي تلك الفترة كان الصليبيون قد ثبتوا ملكهم في فلسطين وأرجاء عديدة من الشام، واستطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الشام، واتفق لهم "اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال"[١٤].

ثالثاً: الحملة الصليبية الأولى ونتائجها:

وفي تلك الأثناء أخذت الأنظار في أوروبا تتجه نحو الأرض المقدسة بعد أن دعا البابا أوربان الثاني Pope Urban II (١٠٨٨–١٠٩٩م) في مجمع كليرومونت Council of Clermont في ١٠٩٥/١١/٢٦م "لاسترداد" الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ثم عقد عدة مجمعات دعا فيها للحروب الصليبية (ليموج Limoges، أنجرز Angers، مان Le Mans، تورز Tours، بواتييه Poitiers، بوردو Bordeaux، تولوز Toulouse، نيم Nîmes) خلال الفترة ١٠٩٥–١٠٩٦م، وقرر أن كل من يشترك في الحروب الصليبية تغفر له ذنوبه، كما قرر أن ممتلكات الصليبيين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وأن يخيط كل محارب صليباً من القماش على ردائه الخارجي[١٥].

وبدأت الحملات الصليبية بحملات العامة أو حملات الدعاة، وهي حملات تفتقر إلى القوة والنظام. وكان منها حملة بطرس الناسك، وهو رجل فصيح، مهلهل الثياب، حافي القدمين يركب حماراً أعرج، جمع حوله من فرنسا حوالي ١٥ ألفاً، وفي طريقهم أحدثوا مذبحة في مدينة مجرية لخلاف على المؤن فقُتل أربعة آلاف، وانضمت إليهم عند القسطنطينية جموع والتر المفلس، ودخلت حشودهم الشاطئ الآسيوي، وحدثت معركة مع السلاجقة انتصر فيها السلاجقة وقتلوا من الصليبيين ٢٢ ألفاً، ولم يبقَ من الصليبيين سوى ثلاثة آلاف. أما حملتا فولكمار وأميخ فقد أقامتا مذابح لليهود في الطريق، وتشتت الحملتان في المجر!![١٦].

ثم كان ما يعرف بالحملة الصليبية الأولى، وقد شارك فيها أمراء وفرسان أوروبيون محترفون، وبدأت الحملة سيطرتها على مناطق المسلمين منذ صيف ١٠٩٧م، وأسس الصليبيون إمارة الرها في آذار/ مارس ١٠٩٨م بزعامة بلدوين البولوني. وحاصر الصليبيون أنطاكية تسعة أشهر، وظهر من شجاعة صاحب أنطاكية باغيسيان "وجودة رأيه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج، ولو بقوا على كثرتهم التي

خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام"، غير أن أحد الأرمن المستحفظين على أسوار المدينة راسله الصليبيون، وبذلوا له "مالاً وإقطاعاً" ففتح للصليبيين الباب من البرج الذي يحرسه، فاحتل الصليبيون المدينة، وأسسوا فيها إمارتهم الثانية ٤٩١هـ - ٣ حزيران/ يونيو ١٠٩٨م، بزعامة بوهيموند النورماني Bohemond[١٧].

ونستطرد قليلاً مع أحد المواقف التي تستحق التسجيل، والتي تعكس مدى تشتت المسلمين، وتنازع أهوائهم، فبعد سقوط أنطاكية جمع المسلمون العساكر بقيادة كربوقا الذي وُلي الموصل، واجتمع معه عساكر الشام: تركها وعربها...، وسار المسلمون إلى أنطاكية فحاصروها وأقام الفرنج بأنطاكية ١٢ يوماً ليس لهم ما يأكلونه. وتقوت الأقوياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، وأصبح الرغيف بدينار، والبيضة بدينارين، وراسل الفرنج (الصليبيون) كربوقا يطلبون الأمان ليخرجوا من أنطاكية فرفض... . ومع بدء علائم النصر للمسلمين كانت قد بدأت علائم الخذلان وسط المسلمين؛ إذ إن كربوقا أساء السيرة فيمن معه من المسلمين، وتكبر على الأمراء فأغضبهم وأضمروا له الغدر.

وقرر الفرنج الخروج للقتال، فخرجوا متفرقين من خمسة أو ستة أبواب، فأشار المسلمون على كربوقا أن يقفوا عند كل باب فيقتلوا من يخرج، ولكنه رفض وقال: "لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم"، فلما تكامل خروجهم ولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا: أولاً من الاستهانة بهم، والإعراض عنهم، وثانياً لأنه منعهم من قتال الفرنج، وتمت الهزيمة، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم!! فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة؛ إذ لم يجرِ قتال ينهزم بسببه، وثبت جماعة من المجاهدين قاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما في المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم!![١٨].

هذا الوضع يعكس باختصار جانباً كبيراً من الأحوال في ذلك الزمان، زعامة سيئة السيرة، مستفردة برأيها، وقادة جعلوا الخصومة مع أميرهم أكبر من عداء الفرنج، وأعداد كبيرة من المسلمين دون قيادة كفوءة، وأعداد أقل من الفرنج أكثر تدريباً وانتظاماً واحترافاً، ومسلمون مجاهدون صادقون لا يخلو منهم أي زمان يقاتلون احتساباً في سبيل الله... .

وفي الوقت الذي كان السلاجقة يتعرضون فيه للزحف الصليبي شمال بلاد الشام، استغل الفاطميون الفرصة، فاحتلوا صور ١٠٩٧م، وسيطروا على بيت المقدس في

شباط/ فبراير ١٠٩٨م أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية. واستقل بطرابلس القاضي ابن عمار أحد أتباع الفاطميين، وقد أرسل الفاطميون للصليبيين في أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم، وعرضوا عليهم قتال السلاجقة بحيث يكون القسم الشمالي "سورية" للصليبيين وفلسطين للفاطميين...، وأرسل الصليبيون وفداً إلى مصر ليدللوا على "حسن نيَّاتهم"!!، وهكذا... فأثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان الفاطميون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة حتى إن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن شرقاً...!!

وظهرت الخيانات، وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و"كسب ودّ" الصليبيين أثناء توسعهم؛ ومن ذلك ما حدث من اتصال صاحب إقليم شيزر بالصليبيين، حيث تعهد بعدم اعتراضهم، وتقديم ما يحتاجون من غذاء ومؤن، بل وأرسل لهم دليلين ليرشداهم على الطريق!!، وقدمت لهم حمص الهدايا!! وعقدت معهم مصياف اتفاقية!! أما طرابلس فدفعت لهم الجزية، وأعانتهم بالأدلاء، ودفعت بيروت المال، وعرضت عليهم الدخول في الطاعة إذا نجحوا في احتلال بيت المقدس!![١٩].

تابع ريمون دي تولوز Raymond Toulouse (أمير إقليم بروفانس Provence وتولوز Toulouse بفرنسا) قيادة بقية الصليبيين إلى بيت المقدس، وكان عددهم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط!! وفي ربيع ١٠٩٩م، دخلوا مناطق فلسطين، فمروا بعكا التي قام حاكمها بتموين الصليبيين، ثم قيسارية ثم أرسوف، ثم احتلوا الرملة واللد وبيت لحم، وفي ١٠٩٩/٦/٧م بدأوا حصار بيت المقدس، وكان حاكمها قد نصبه الفاطميون، ويدعى افتخار الدولة، وتمّ احتلالها في ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ – ١٠٩٩/٧/١٥م. ولبث الفرنج أسبوعاً يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على ٧٠ ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم[٢٠]. أما الدولة الفاطمية فقد واجهت الخبر ببرود، كما أن الدولة العباسية لم تحرك ساكناً!!

تولى حكم بيت المقدس القائد الصليبي جود فري بوايون، وتَسمى تواضعاً بحامي بيت المقدس، واستسلمت نابلس، وتمّ للصليبيين احتلال الخليل[٢١].

ويقال إنه لم يبقَ من الصليبيين إلا ٣٠٠ فارس وألفين من المشاة، ولم يستطيعوا توسيع سيطرتهم، لأن كثيراً منهم عادوا إلى بلادهم بعد أن أوفوا قسمهم بالاستيلاء

على بيت المقدس[22]، وبذلك أصبحت ممالك الصليبيين كالجزر وسط محيط من الأعداء، ومع ذلك كُتب لها الاستمرار ٢٠٠ سنة حتى تمّ اقتلاع آخرها!! بسبب الإمدادات والحملات التي كانت تأتيهم بين فترة وأخرى، وبسبب ضعف المسلمين وتشرذمهم، وعدم استغلالهم لفرصة انسياب وانتشار الصليبيين على مساحات واسعة من الأرض بأعداد قليلة ليقضوا عليهم، ولكن المسلمين تأخروا حتى قويت شوكة الصليبيين، وأصبح من الصعب اقتلاعها.

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى، فقد كانت يافا قد سقطت أثناء حصار بيت المقدس على يد سفن جنوية في ١٠٩٩/٦/١٥م، وسيطر الصليبيون على شرق بحيرة طبريا "منطقة السواد" في أيار/ مايو ١١٠٠م، واستولوا على حيفا عنوة في شوال ٤٩٤هـ – آب/ أغسطس ١١٠١م بمساعدة أسطول كبير من البندقية، وملكوا أرسوف في نيسان/ أبريل ١١٠١ بالأمان وأخرجوا أهلها منها ثم ملكوا قيسارية في ١١٠١/٥/١٧م بالسيف، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها[23].

وهكذا فرض الصليبيون هيمنتهم على فلسطين، غير أن عسقلان ظلّت عصية عليهم، وكان المصريون (الفاطميون) يرسلون لها كل عام الذخائر والرجال والأموال، وكان الفرنج يقصدونها ويحاصرونها كل عام فلا يجدون لها سبيلاً، ولم تسقط عسقلان بأيدي الفرنج إلا في ٥٤٨هـ/١١٥٣م، وكان أهلها قد ردوا الفرنج مقهورين في ذلك العام، وعندما آيس الفرنج، وهموا بالرحيل أتاهم خبر أن خلافاً وقع بين أهلها فصبروا.

وكان سبب الخلاف أن أهلها لما عادوا قاهرين منصورين ادعت كل طائفة أن النصر كان من جهتها، فعظم الخصام بينهم إلى أن قُتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتد الخطب، وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى!! فطمع الفرنج، وزحفوا إلى عسقلان وقاتلوا "فلم يجدوا من يمنعهم فملكوها"[24]!! ترى... كم هي الهزائم التي تأتي من أنفسنا أو نصنعها بأنفسنا؟! ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[25].

وهكذا تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية، ونشير استطراداً إلى تأسيس الفرنج لمملكة صليبية رابعة هي طرابلس في ١١ ذي الحجة ٥٠٣هـ – ١٢ تموز/ يوليو ١١٠٩م بعد حصار دام سبعة أعوام[26].

رابعاً: استمرار الصراع (نظرة عامة):

من الصعب أن ندخل في تفصيل الأحداث سنة بسنة حادثاً بحادث، خصوصاً أن منهجنا يميل إلى الاختصار، ووضع اليد على النقاط المهمة الحساسة في سياق حديثنا عن التجربة التاريخية للحل الإسلامي على أرض فلسطين، غير أن استكمال الصورة، ومعرفة مجمل الظروف في تلك الفترة يقتضي الإشارة إلى المعطيات التالية، التي ظهرت خلال الثلاثين سنة التي تلت الاحتلال الصليبي لبيت المقدس:

- كان عدد الصليبيين محدوداً، وقد فرضوا هيمنتهم من خلال قلاع منتشرة كجزر معزولة في العديد من مناطق الشام.
- استمر الصراع والنزاع بين المسلمين، واستعان بعضهم بالصليبيين على خصومهم، مما أضعف الموقف الإسلامي، وجعل الصليبيين يلعبون في بعض الأحيان دور الشرطي، ويستفيدون من ذلك في زيادة نفوذهم، وتقوية شوكتهم.

ومن ذلك الصراع بين طغتكين وبكتاش بن تتش على دمشق؛ حيث استعان بكتاش سنة ٤٩٨هـ بالفرنج على خصمه، ولحق به "كل من يريد الفساد"، غير أن ملك الفرنج لم يعطِه سوى التحريض على الإفساد، ثم استقام الأمر لطغتكين[٢٧].

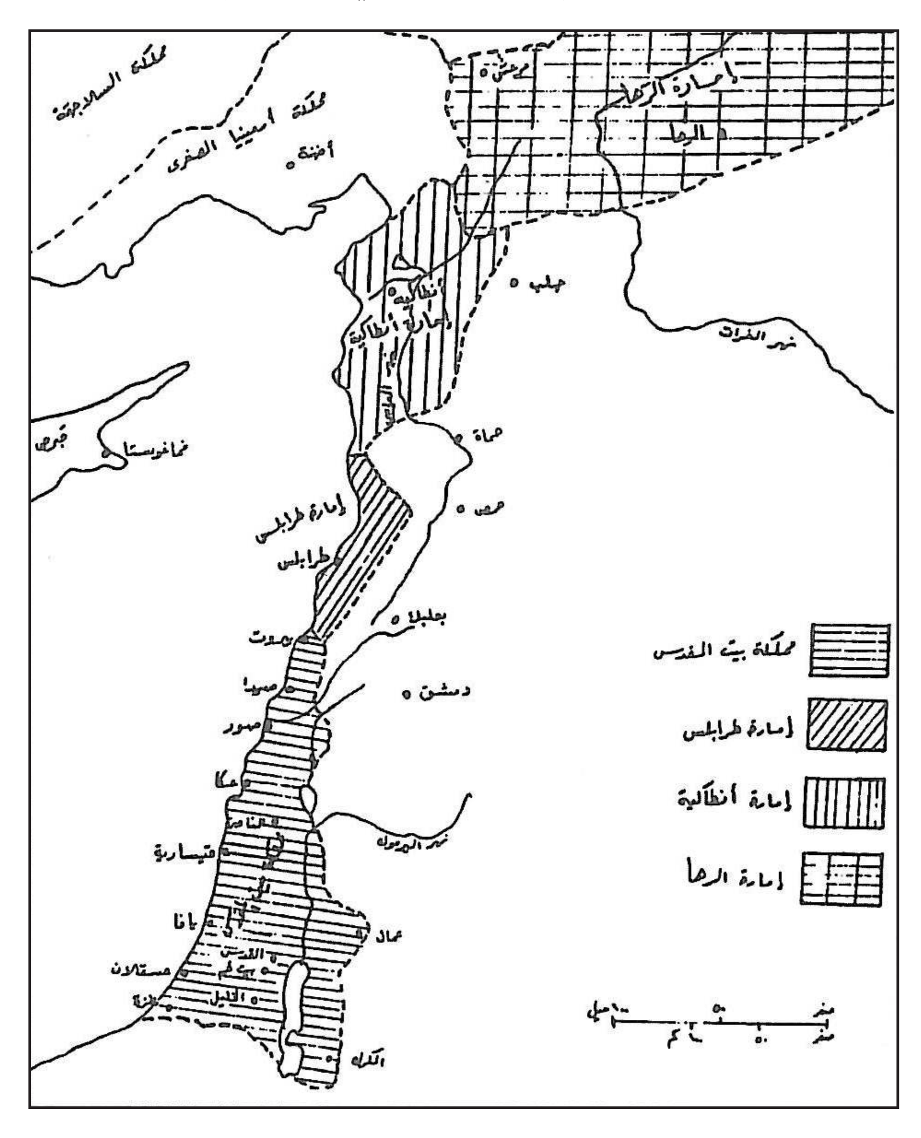
وعندما وقعت معركة بين الفاطميين والفرنج بين عسقلان ويافا ٤٩٨هـ ساعدت الفاطميين قوة من دمشق من ٣٠٠ فارس، وساعدت جماعة من المسلمين بقيادة بكتاش بن تتش الفرنج[٢٨]. وعندما جاء جيش السلطان من العراق ٥٠٩هـ إلى الشام لجهاد الصليبيين بقيادة برسق ابن برسق خاف حكام دمشق وحلب على نفوذهم من أن يزول، فتعاونوا بقيادة طغتكين مع فرنج أنطاكية ضدّ جيش السلطان؛ ثم ما لبث طغتكين نفسه أن قاتل فرنج بيت المقدس، واستعاد رفنية بعد أن استولى الفرنج عليها[٢٩]...، إنه القتال المرتبط بالمصلحة، فمرة يلبس ثوب الجهاد في سبيل الله، ومرة يلبس ثوب الدفاع عن "الحق" (الكرسي) تحت حجج الوراثة أو الكفاءة... حتى لو اقتضى ذلك التحالف مع الأعداء.

- استمر جهاد المسلمين ضدّ الفرنج (الصليبيين) دون توقف، وإن كان هذا الجهاد قد افتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، وقد تعدد القادة المسلمون الذين يأتون ويذهبون، كما تعددت محاور الصراع والاشتباك مع الفرنج في بلاد الشام، وافتقر المسلمون إلى قاعدة كبيرة قوية تكون منطلقاً دائماً للجهاد، وكثيراً ما كان

القتال بين مدينة أو قلعة إسلامية، تحاول الدفاع عن نفسها، أو توسيع نفوذها، وبين الفرنج.

وتداول المسلمون والصليبيون النصر والهزيمة في المعارك، ولم يكن يمضي عام دون معارك، وتبادلوا احتلال المدن والقلاع، ولم يكن من الصعب على المسلمين أن يدخلوا في وسط فلسطين، ويخوضوا المعارك عند الرملة أو يافا أو غيرهما. غير أن الصليبيين ظلّوا يحتفظون بنفوذهم وهيمنتهم في المناطق التي استولوا عليها.

الممالك والإمارات الصليبية في بلاد الشام



وظهر عدد من المجاهدين المسلمين الذين كانت قدراتهم محدودة، ولم يتمكنوا من توحيد قوى المسلمين لجهاد الفرنج، غير أنهم حافظوا على جذوة الجهاد، وألحقوا بالفرنج خسائر كبيرة، وأفقدوهم الاستقرار والأمان، وقتلوا أو أسروا العديد من قادتهم وزعمائهم[٣٠]. فمثلاً كان بين معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش حرب، ولما حوصرت حرّان من قبل الفرنج ٤٩٧هـ تراسلا، وأعْلَمَ كل منهما الآخر أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فسارا واجتمعا بالخابور في عشرة آلاف من التركمان والترك والعرب والأكراد، فالتقوا بالفرنج عند نهر البليخ، وهزم الفرنج فقتلهم المسلمون "كيف شاؤوا" وأُسر القائد الصليبي بردويل وفُدي بـ ٣٥ ديناراً و١٦٠ أسيراً من المسلمين، وكان عدد قتلى الفرنج يقارب ١٢ ألفاً[٣١].

وفي ٥٠٧هـ اجتمع المسلمون من الموصل وسنجار ودمشق، وقاتلوا الفرنج عند طبريا، وانتصروا عليهم، وأسروا ملكهم "بغدوين" دون أن يُعرَف أنه المَلك، فأُخذ سلاحه وأُطلق سراحه، وكثر القتل والأسر في الفرنج.

ثم جاء مدد من جند أنطاكية وطرابلس فقويت نفوس الفرنج، وعادوا للحرب فأحاط بهم المسلمون من كل ناحية، وصعد الفرنج إلى جبل غربي طبريا، ومكثوا ٢٦ يوماً دون أن ينزلوا للقتال، فتركهم المسلمون، وساروا إلى بيسان، و"نهبوا بلاد الإفرنج" بين عكا إلى القدس وخربوها، ورجع المسلمون. وعاد مودود بن التونتكين صاحب الموصل مع طغتكين إلى دمشق، وهناك في صحن المسجد في يوم الجمعة، وثب عليه باطني فجرحه أربع جراحات وقُتل الباطني، وأبى مودود أن يموت إلا صائماً، وكان خيِّراً عادلاً كثير الخير، ويقال إن طغتكين هو الذي تآمر عليه. وكتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً جاء فيه: "إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها"[٣٢]!!

المسلمون الأصليون من سكان فلسطين استمروا في سكنهم للبلاد التي احتلها الفرنج، ولكن قسماً منهم هجروها إلى شرق الأردن ودمشق، وأنفوا من التعاون مع الصليبيين. ولذلك تعطلت الزراعة في أكثر المدن الساحلية الفلسطينية. وقد عمل هؤلاء على محاربة الصليبيين، وقدموا خدمات للمسلمين المهاجمين، وانضموا إلى كتائب المسلمين في بلاد الشام، وساعدوهم كأدلاء في فلسطين، يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري عنهم "إنهم علموا عدونا كيف يدمرنا؛ لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا"[٣٣].

وكان من أبرز قادة المسلمين المجاهدين الأوائل أقسنقر البرسقي الذي ولاه السلطان محمد سنة ٥٠٨هـ الموصل وأعمالها، وأمره بقتال الفرنج، وخاض أقسنقر المعارك ضدّ الصليبيين في شمال الشام. ودخلت، بالإضافة إلى الموصل والجزيرة وسنجار، مدينة حلب سنة ٥١٨هـ تحت زعامته، فتوسعت جبهته المعادية للصليبيين، غير أنه قتل رحمه الله سنة ٥٢٠هـ على يد الباطنية في الموصل، وكان أقسنقر مملوكاً تركياً خيّراً يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويقوم الليل[٣٤].

الدولة الفاطمية في مصر بقيادة وزيرها الأفضل بدر الجمالي أرسلت حملات عديدة إلى فلسطين، وحاولت الدفاع عن مناطق نفوذها على الساحل، غير أن حملاتها لم تكن بمستوى ما تزخر به مصر من قدرات وإمكانات، ويظهر أن حملاتها اتخذت طابعاً استعراضياً، وافتقرت إلى التنسيق الجاد مع القوى الإسلامية في الشام[٣٥]. وكان الحكم الفاطمي قد افتقد مصداقيته الجهادية الإسلامية عندما راسل الفرنج وهم يزحفون باتجاه بيت المقدس عارضاً التحالف ضدّ السلاجقة، وتقاسم النفوذ في الشام. ومهما يكن، فإن الدولة الفاطمية كانت في طور الأفول، وكانت تعاني من عوامل الضعف والانهيار.

خامساً: جهاد عماد الدين زنكي ٥٢١-٥٤١هـ:

انفتحت صفحة جديدة لجهاد الصليبيين بظهور عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، فقد تولى عماد الدين زنكي أمر ولاية الموصل وأعمالها ٥٢١هـ بعد أن ظهرت كفاءته في حكم البصرة وواسط وتولّى شحنكية العراق[٣٦]، وفي محرم ٥٢٢هـ تمت له السيطرة على حلب. وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك، ويحقق الانتصارات على الصليبيين، وعلق ابن الأثير بعد أن تحدث عن انتصار عماد الدين على الفرنج في معركة كبيرة، وملكه حصن الأثارب، وحصاره حارم ٥٢٤هـ... "وضعفت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع"[٣٧].

واستمرت جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين في غزو الصليبيين، فمَلك زنكي حماة، وحمص وبعلبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر، وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقعلة أشب وغيرها

من الأكراد الهكارية[٣٨]... . وفي ٥٣٤هـ حاول زنكي الاستيلاء على دمشق مرتين دون جدوى، فقد كانت دمشق المفتاح الحقيقي لاسترداد فلسطين من جهة الشام، غير أن القائم بأمر الحكم هناك معين الدين أنز راسل الصليبيين للتحالف ضدّ زنكي، ووعدهم أن يحاصر بانياس ويسلمها لهم ووافقوا، ولكن زنكي ذهب إليهم قبل قدومهم لدمشق، فلما سمعوا ذلك لم يخرجوا. ومع ذلك فإن معين الدين حاصر بانياس بمساعدة جماعة من الفرنج، ثم استولى عليها، وسلمها للفرنج[٣٩]!!

غير أن أشهر ما يذكر من الفتوح لزنكي هو فتحه للرها، وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد حاصرها أربعة أسابيع، وفتحها عنوة في ٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ، وفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة[٤٠].

قُتل عماد الدين زنكي، بعد أن حمل راية الجهاد أكثر من عشرين عاماً، في ٥ ربيع الأول ٥٤١هـ – منتصف أيلول/ سبتمبر ١١٤٦م، غدراً على يد جماعة من مماليكه، بينما كان يحاصر قلعة جعبر[٤١]، وكان عمره زاد عن ستين سنة، وعلى ما ذكر ابن الأثير فقد كان زنكي، شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يعين القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلأت أهلاً وسكاناً[٤٢]. "وكان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامة"[٤٣]. واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد".

لقد عمل عماد الدين زنكي في أجواء صعبة من النزاع بين أمراء وزعماء السلاجقة أنفسهم، وبينهم وبين الخليفة العباسي في أحيان أخرى، وفي أجواء الحكم الوراثي، ونزعة الكثيرين للسيطرة والزعامة حتى ولو على مدينة أو قلعة واحدة، كما عاش في فترة كانت القوى الصليبية فيها ما تزال تملك الكثير من القوة والحيوية. ومع ذلك فقد استطاع عماد الدين أن يضع الأسس لقاعدة انطلاق جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة الصليبيين في مواقع كثيرة، ويسر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض، وقدم نموذجاً للحاكم والمجاهد تحت راية الإسلام، وقوّى الأمل باسترجاع المقدسات. غير أن أفضل أثر تركه، على ما يظهر لنا، هو ابنه نور الدين محمود.

سادساً: جهاد نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ:

بعد استشهاد زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين ابنيه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها، وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

ولد نور الدين محمود بعد حوالي عشرين عاماً من سقوط القدس في أيدي الصليبيين في ١٧ شوال ٥١١هـ – شباط/ فبراير ١١١٨م، وكان أسمر، طويل القامة، حسن الصورة، ذا لحية خفيفة، وعليه هيبة ووقار. تزوج سنة ٥٤١هـ من ابنة معين الدين أنز ورزق ببنت وولدين، وتوفي رحمه الله في ١١ شوال ٥٦٩هـ – ١٥ أيار/ مايو ١١٧٤م[٤٤].

وبحكم نور الدين انفتحت صفحة جديدة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، وطوال ٢٨ عاماً، من حكم نور الدين كان واضحاً في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة أخذ يبذل الأسباب، ويعدّ العدة والعتاد، ويوحد جهود المسلمين، ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة، وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين، وطرد الاحتلال الصليبي من بلادهم...

ودخل المعركة وفق فهم إسلامي شامل سليم يؤكد على عقائدية المعركة مع الصليبيين، فهي:

- صراع بين حقٍّ وباطل، وبين إسلام وكفر.
- تعني كل المسلمين دون نظر إلى قوميات وعصبيات وجنسيات.
- ولا سلام نهائي حتى يسترجع المسلمون كل شبر من أراضيهم.
- ولا بدّ من الإعداد المتكامل للأمة، حتى تكون على مستوى الجهاد، إيمانياً وثقافياً وتربوياً واجتماعياً وجهادياً وعسكرياً.
- ولا بدّ من توحيد الجهود تحت راية الإسلام في مواجهة العدو الصليبي.

معالم النهضة الإسلامية:

وفي سبيل ذلك قام نور الدين محمود بإحياء نهضة إسلامية أكدت على تكامل الحل الإسلامي، وقد تمّ التعبير عنها من خلال:

١. القيادة الإسلامية الصادقة:

تمثلت هذه القيادة في شخصه وأشخاص من حوله من القادة والمسؤولين والعلماء. فقد كان للتكوين النفسي والشخصية المميزة لنور الدين محمود أثرهما الكبير في وجود قيادة إسلامية واعية، جادة، ومجاهدة.

قال ابن الأثير: "طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين"[٤٥]. فلقد كان ذكياً، ألمعياً، فطناً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل، والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول للعمل، ولم ينظر في تقديمه للرجال إلى المكانة الاجتماعية أو للجنس والبلد[٤٦].

كما عُرف نور الدين بتقواه وورعه، فقد كان حريصاً على أداء السنن وقيام الليل بالأسحار. إذ كان ينام بعد صلاة العشاء، ثم يستيقظ في منتصف الليل، فيصلي ويتبتل إلى الله بالدعاء حتى يؤذن الفجر، كما كان كثير الصيام[٤٧].

وتميز بفقهه وعلمه الواسع، فلقد تشبه بالعلماء، واقتدى بسيرة السلف الصالح، وكان عالماً بالمذهب الحنفي، وحصل على الإجازة في رواية الأحاديث، وألّف كتاباً عن الجهاد[٤٨].

وكان ذا طبيعة جادة، كما رزقه الله قوة الشخصية فكان "مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته" ومجلسه "لا يذكر فيه إلا العلم والدين والمشورة في الجهاد" "ولم يسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى صموتاً وقوراً"[٤٩].

وكان زاهداً متواضعاً، فقد كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز، ولا استئثار بالدنيا، وعندما شكت زوجته الضائقة المادية أعطاها ثلاثة دكاكين له بحمص، وقال: "ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض في نار جهنم لأجلك"[٥٠].

قال له الشيخ الفقيه قطب الدين النيسابوري يوماً: "بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف"، فقال له نور الدين: "يا قطب الدين!! ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو"[٥١].

وعلى اتساع نفوذه وسلطانه جاءه التشريف من الخلافة العباسية، وتضمن قائمة بألقابه التي يذكر بها على منابر بغداد تقول: "اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته، ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضِّيَ الإمامة وأثيرها، فخر الملة ومجدها، شمس المعالي وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محي العدل في العالمين، منصف المظلوم من الظالمين، ناصر دولة أمير المؤمنين"!! فأوقف هذا كله، واكتفى بدعاء واحد هو "اللهم أصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي"[٥٢].

وعرف باتساع شعبيته، وحبّ الناس له حتى في البلاد التي لا يحكمها، وكان يستشعر إحساساً عظيماً بالمسؤولية تجاه الزمن أن يضيع، واتجاه الدم المسلم أن يراق، والكرامة الإسلامية أن تهدر، والأرض الإسلامية أن تستباح؛ فكان يَصِل في عمله الليل بالنهار، وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته[٥٣].

وحباه الله تكويناً عسكرياً فذاً حمل من خلاله تكاليف الجهاد الشاقة ٢٨ عاماً بنفسية جهادية صادقة[٥٤].

٢. التزام أحكام الإسلام وتطبيقها:

حرص نور الدين على تطبيق أحكام الإسلام على الجميع، وكان قدوة في الالتزام بها، وطبقها على مسؤولي الدولة وقادتها، وكما حرص على ردّ الحقوق إلى أصحاب المظالم، وكان يقول: "حرام على كل من صحبني أن لا يرفع قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إليّ". وفي توحيده لبلاد المسلمين كان يحرص على عدم إراقة دماء المسلمين، ولذلك كان ذا صبر وحكمة وتأنٍّ في ذلك، لقد كان رحمه الله يحفظ الشريعة المطهرة، ويقف عند أحكامها[٥٥].

وعلى الرغم من اضطراره للاصطدام بالعديد من زعماء المدن والقلاع المسلمين في سعيه لتحقيق الوحدة، أو لتحالفهم مع الفرنج...، إلا أن دم المسلم كان عنده عظيماً وكان: "لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا لضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم"[٥٦]. وعندما تحالف حكام دمشق مع الصليبيين ٥٤٤هـ جاهد الصليبيين دون إيذاء المسلمين وضياعهم، وقال: "لا حاجة لقتل المسلمين بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين". لقد شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه، ودعوا الله أن يكون ملكهم[٥٧].

وعندما رفع عليه أحدهم قضية إلى القاضي، استدعاه القاضي فقال: "السمع والطاعة، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، إني جئت ها هنا امتثالاً لأمر الشرع". وفي مرة أخرى دعي للقضاء، فاستجاب، ولما ثبت أن الحق مع نور الدين وهب لخصمه ما ادعاه عليه[٥٨].

لقد ألغى رحمه الله الضرائب التي تزيد عن الحد الشرعي على الرغم مما كانت تدر من دخل كبير على ميزانية الدولة، وعلى الرغم من إمكانية تبرير وجودها، عند البعض، بظروف البلاد والحرب[٥٩]، وكان يقول: "نحن نحفظ الطريق من لصٍّ وقاطع طريق... أفلا نحفظ الدين ونمنع ما يناقضه؟"[٦٠]. وكان أشهى شيء عنده كلمة حقٍّ يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها[٦١].

٣. البناء الإيماني والتربوي والثقافي:

في هذا المجال استقدم نور الدين العلماء العاملين، وأفسح لهم مجال العمل والدعوة، وسعى في بناء المدارس والمساجد، وأوقف عليها الأوقاف، وحارب البدع والأضاليل... فانتشر نور الإيمان والعلم بين الرعية، وأحيا سمت احترام العلماء وتوقيرهم. وعلى الرغم من أن الأمراء والقادة لم يكونوا يجرؤون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه... إلا أنه كان إذا دخل عليه العالم الفقيه أو الرجل الصالح قام هو إليه وأجلسه، وأقبل عليه مظهراً كل احترام وتوقير[٦٢]. وكان يقول عن العلماء إنهم "هم جند الله وبدعائهم نُنصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حقّ أضعاف ما أعطيهم، فإن رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا"[٦٣]. لقد كانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية[٦٤]، وكان يسمع نصيحة العلماء ويُجلها، ويقول: "إن البلخي إذا قال لي: محمود، قامت كل شعرة في جسدي هيبة له، ويرقُّ قلبي"[٦٥].

٤. الإعمار والبناء الحضاري والاجتماعي:

عُرف نور الدين بشخصيته التي تهتم بأحوال المسلمين وتحيي معاني التكافل والتعاون والتضامن بينهم، ورفع عنهم معاناتهم وأحوالهم الصعبة... فلقد عمل على كفالة الأيتام، وتزويج الأرامل، وإغناء الفقراء، وبناء المستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والأسواق والحمامات والطرق العامة، وتوطين البدو وإقطاعهم الأراضي حتى لا يؤذوا الحجاج. لقد ارتقى بالخدمات التي تُقدّم للمسلمين فأحبه الشعب، وأصبحت

صلته به متينة قوية...، وسَرَت هذه النفسية البناءة المحبة للخير إلى نفوس رجاله، فأصبحوا يتسابقون في خدمة الناس، وبناء المدارس والمستشفيات والملاجئ، ووسائل الخدمات المختلفة[٦٦].

٥. البناء الاقتصادي:

رتب نور الدين ديوان الزكاة في عهده ونظم جبايتها وتوزيعها وفق الأسس الشرعية، وشجع التجارة بتأمين طرق المواصلات ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة، وسعى في كل ما يقوي الدولة ويدعم بنيانها الاقتصادي[٦٧].

٦. البناء الجهادي العسكري:

لقد سعى نور الدين في إحياء المعاني الجهادية في النفوس، وتربية الأمة على معانيها وتكريس عزة المسلمين ومنعتهم وقوتهم، وبذل الجهد في توفير العدة والعتاد، واختيار القادة المناسبين، وحماية المدن، وبناء الأسوار والحفاظ على أرواح المسلمين، وتميز بحزمه وقوته في ذلك، وكان رده عنيفاً جداً على الأعداء إذا انتهكت حرمات المسلمين. ومن ذلك أنه لم يكد يمرّ على استلامه للحكم شهر واحد حتى هاجم الصليبيون الرها ظانين أن الحاكم الجديد ضعيف، ولكن نور الدين هاجم الصليبيين، وقتل ثلاثة أرباع جيشهم، الذي هربت فلوله، وقد عرفت من يكون هذا القائد الجديد، وحصل مرة أن هاجم الصليبيون نور الدين وجزءاً من جيشه على حين غفلة، فأقسم نور الدين أن لا يستظل بسقف حتى ينتقم للإسلام، وكان انتقامه رهيباً في معركة حارم؛ إذ قتل منهم الآلاف[٦٨].

حتى الرياضة استفاد منها في مجال الإعداد الجهادي، فلقد كانت الحرب تجري في ذلك العصر على الخيول... ولبناء هذه المهارة في التحكم بالخيول وحركتها، كان يلعب بمهارة كبيرة لعبة الكرة من فوق الخيول (البولو)[٦٩]!!

لقد حرص على تعبئة طاقات الأمة للجهاد... وهو في بذله لأسبابه لم ينسَ دعاء الضعفاء والعجائز والمحتاجين، فكان يحسن إليهم، ويذكر أنه ربما ينتصر ببركة دعائهم.

بهذا البناء المتكامل والإعداد الجاد المتزن دخل نور الدين مرحلة التغيير الجذري على الساحة السياسية ليحقق أمرين سار بهما في اتجاهين متوازيين هما:

- تحقيق الوحدة الإسلامية وتعبئة قواها في بوتقة واحدة.
- تحطيم القوى الصليبية تدريجياً: بإضعاف هيبتها، وإنهاك قواها، والتحرير التدريجي لأرض المسلمين الواقعة تحت سيطرتها... وذلك بانتظار استكمال الوحدة الإسلامية لتحقيق نصر حاسم ونهائي.

جهود الوحدة الإسلامية:

لقد حرص نور الدين على تحقيقها بقدر كبير من الصبر والحكمة والأناة، وحرص شديد على عدم إراقة دماء المسلمين، وقد حرص على استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشمال، وشمال العراق وكسب صداقتها، كما كان يكشف بطريقة عاقلة واعية حقيقة أولئك الزعماء والحكام، الذين يقفون حجر عثرة أمام الوحدة الإسلامية أمام رعيتهم. وكان الناس يقارنون بين جهاده، وبين تخاذل حكامهم، وبين إصلاحاته وبين إفساد حكامهم، وبين ولائه لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين وبين ولاء حكامهم لمصالحهم وشهواتهم وللصليبيين!! فأخذ الناس يتمنون حكمه عليهم... ولذلك فقد وجد كل ترحيب شعبي عند انضمام أي من بلاد المسلمين إليه.

ضمّ نور الدين حمص إليه سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م، غير أنه كان يتوق لضمّ دمشق التي كانت تقف بينه وبين الصليبيين في فلسطين. وكان الحكم في دمشق يسعى بالدرجة الأولى للحفاظ على نفسه، فمرة يجاهد الفرنج، ومرة يصانعهم ويهادنهم، ومرة يتحالف معهم إذا خاف من قوة إسلامية ما. ووفق تخطيط متأنٍّ يهدف إلى: السيطرة على دمشق دون إراقة دماء، وكسب أهل دمشق إلى صفه، ومنع نظام الحكم من الاستعانة بالفرنج عليه إذا قصدهم. استطاع نور الدين أن يفتح دمشق في صفر ٥٤٩هـ – ٢٥ نيسان/ أبريل ١١٥٤م، وقد جاء هذا الفتح بعد أن توفي معين الدين أنز سنة ١١٤٩م، وبعد أن ضعف الحكم بدمشق، ووقع تحت النفوذ الصليبي الذي فرض الإتاوات على دمشق، وكانت رسلهم تدخل البلد كل عام ويأخذونها منهم[٧٠].

وتوالت سيطرة نور الدين على مدن وقلاع الشام حتى خضعت معظمها له، غير أنه كان يدرك أن السبيل الفعال لتحرير فلسطين، واقتلاع الحكم الصليبي منها لا يكون إلا بالسيطرة على مصر، ودخولها ضمن الجبهة الإسلامية المتحدة، ووضع الصليبيين بين فكي الكماشة.

وقد جاءت الفرصة لنور الدين بالسيطرة على مصر عندما استعان أحد المتنافسين على الوزارة واسمه شاور بنور الدين على غريمه ضرغام سنة ٥٥٩هـ، وعرض على

نور الدين ثلث البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون قائده الذي يرسله مقيماً بمصر، ويتصرف بأمر نور الدين. أرسل نور الدين أسد الدين شيركوه الذي هزم ضرغام وقتله، ولكن شاور غدر بشيركوه واستعان بالفرنج لإخراجه، فجاؤوا وحاصروا شيركوه ورفاقه في بلبيس ثلاثة أشهر حتى جاءتهم أخبار انتصارات نور الدين وملكه (حارم) فعرضوا الصلح والعودة إلى الشام، فوافق ولم يكن يعلم ما فعله نور الدين بالشام[٧١].

واشتد التنافس بين نور الدين وبين الصليبيين على مصر، وخصوصاً أن الدولة الفاطمية كانت في ضعف شديد وفي طور الاحتضار. فأرسل نور الدين أسد الدين شيركوه إلى مصر في ألفي فارس في حملة ثانية في ربيع الثاني ٥٦٢هـ، واستطاع هزيمة الفرنج وجيش مصر بالصعيد، ومَلَكَ الإسكندرية بمساعدة أهلها وذهب للصعيد فملكه، غير أنه اضطر للعودة إلى دمشق في ذي القعدة بعد أن اشترط على الفرنج ألا يأخذوا ولو قرية واحدة من مصر فوافقوا[٧٢].

وتمت السيطرة لنور الدين على مصر في الحملة الثالثة التي قادها أيضاً أسد الدين شيركوه في ربيع الأول ٥٦٤هـ، ففي ذلك الوقت كان الفرنج بسبب تحالف شاور معهم قد تمكنوا من البلاد المصرية، وأصبح لهم نفوذ كبير، وتسلموا أبواب القاهرة وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم و"حكموا على المسلمين حكماً جائراً وركبوهم بالأذى العظيم". وطمع الفرنج بملك مصر فجاءت حملة بقيادة ملك بيت المقدس واحتلت بلبيس عنوة، فقتلت وأسرت ثم حاصرت القاهرة، وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيثه وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال هذه شعور (جمع شَعْر) نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج. فأرسل نور الدين حملته الثالثة، فلما قارب أسد الدين مصر خرج الفرنج خائبين، وانتهت الحملة بسيطرة أسد الدين على مصر، وقتل الوزير شاور، وتولى أسد الدين الوزارة مكانه في ١٧ ربيع الثاني ٥٦٤هـ – كانون الثاني/ يناير ١١٦٩م، غير أن أسد الدين توفي بعد شهرين في ٢٢ من جمادى الثانية فولى صلاح الدين يوسف الأيوبي الوزارة مكانه[٧٣].

وبأمر من نور الدين أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء في ثاني جمعة من محرم ٥٦٧هـ – ١٠ أيلول/ سبتمبر ١١٧١م "فلم

يتنطح في ذلك عنزان"، ومات الخليفة الفاطمي العاضد في ١٠ محرم من دون أن يعلم بذلك[٧٤]. وهكذا ضُمت مصر رسمياً للخلافة العباسية، وأصبحت تحت القيادة الفعلية لنور الدين.

وفي ٥٦٦هـ/١١٧٠م ضمّ نور الدين الموصل، والمناطق التي تتبعها إلى حكمه[٧٥]، كما ضمّ اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م عندما أذن لصلاح الدين بفتحها فأرسل إليها أخاه توران شاه بن أيوب؛ حيث تمت له السيطرة عليها[٧٦]. وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق إلى الشام فمصر واليمن، مما أنذر بقرب القضاء على الصليبيين.

تحطيم القوى الصليبية:

خلال فترة حكمه التي امتدت من ١١٤٦-١١٧٤م لم تتوقف المعارك وحروب الجهاد بين نور الدين والصليبيين، وفي الوقت الذي كان يدعم فيه حكمه، ويوحد جهود المسلمين كان يقوم بالاستيلاء التدريجي على الممالك الصليبية، ويضعف قوتها يوماً بعد يوم وهو يعد للمعركة الفاصلة معهم، وخلال تلك الفترة استطاع نور الدين في جهاده الإسلامي استرجاع وتحرير حوالي خمسين مدينة وقلعة، مما كان تحت سيطرة الصليبيين.

فمنذ بداية حكمه أحكم السيطرة على منطقة الرها وصفّى الأملاك التي كانت تتبعها (تل باشر، سميساط، قلعة الروم، دلوك، الراوندان، قورس، مرعش، إعزاز، عينتاب، البيرة...) وذلك خلال الفترة الممتدة بين ١١٤٦-١١٥١م. كما استعاد وحرر جميع الأراضي التي كانت تتبع إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي (١١٤٧-١١٤٩م)؛ وقَتل في إحدى معاركها (أنب ١١٤٩/٧/٢٩م) أمير أنطاكية ريموند Raymond of Poitiers، وزعيمَ الباطنية المتعامل معهم ضدّ المسلمين علي بن وفا. وقام بدور أساس في تحطيم الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٨م) التي شارك فيها ملك فرنسا لويس السابع Louis VII، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث Conrad III، والتي تعدّ نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث كُسرت هيبة الصليبيين، ورفعت الروح المعنوية لدى المسلمين[٧٧].

واستمرت الحروب سجالاً، ووقعت العديد من المعارك المهمة، أدت إلى إضعاف النفوذ الصليبي وضمّ مناطق جديدة لنور الدين على حساب الصليبيين... حتى أحكم نور الدين إحاطة مملكة بيت المقدس الصليبية. ولا يتسع المجال لذكر المعارك

والوقائع كلها، ولكنا نكتفي بالإشارة إلى إحداها، وهي التي وقعت عند تلّ حارم في رمضان ٥٥٩هـ - ١١آب/ أغسطس ١١٦٤م.

ففي ٥٥٨هـ كان نور الدين قد انهزم من الفرنج تحت حصن الأكراد، وهي المعركة التي عرفت بـ"البقيعة"؛ حيث كبسهم الفرنج فجأة، وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، ونزل قرب حمص، وهناك أقسم "والله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام" ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيل والسلاح، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه، وعاد العسكر "كأن لم تصبهم هزيمة"[78].

ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خروجه للجهاد، وإنفاقه عليه قال له بعضهم: "إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح"، فغضب من ذلك، وقال: "والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم"؟![79].

وعرض الفرنج الصلح، لكن نور الدين رفض. واجتمع جيشا المسلمين والفرنج بعد أن حشدا حشوداً ضخمة عند حارم. وقبيل القتال انفرد نور الدين بنفسه تحت تلّ حارم وسجد لله، ومرَّغ وجهه، وتضرع "يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك"... "إيش فضول محمود في الوسط"!!... وقال: "اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً. من محمود الكلب حتى يُنصر"!! يحقر نفسه ويتذلل إلى الله سبحانه[80]. ولهذا الدعاء قصة مع بشرى النصر نذكرها كما رواها أبو شامة في كتاب الروضتين، إذ قال:

> بلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أَعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال يا رسول الله ربما لا يصدقني فاذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر!! قال: فانتهيت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس ولا يزال يتركّع فيه حتى يصلي الصبح،

قال: فتعرضت له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب. فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلها؛ وألح علي في ذلك، فقلتها؛ فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا. وأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

وفي ١١٦٤/٨/١١م التحم الفريقان، وانكشفت المعركة الكبرى عن كارثة هائلة حلت بالصليبيين؛ إذ قتل منهم عشرة آلاف وأسر عشرة آلاف أو أكثر، وكان من بين الأسرى أمير أنطاكية وأمير طرابلس وحاكم قيليقية البيزنطي، وأسر جميع الأمراء عدا أمير الأرمن، وفي اليوم التالي استولى نور الدين على حارم...، وكان ذلك فتحاً كبيراً[٨١].

وفي ٥٦٩هـ/١١٧٣م كان نور الدين قد أعد عدته للهجوم النهائي على بيت المقدس، وتحرير أرض الإسراء من النفوذ الصليبي حتى إنه قد جهز منبراً جديداً رائعاً للمسجد الأقصى يوضع فيه بعد الانتصار على الصليبيين بإذن الله، وراسل في ذلك عامله على مصر صلاح الدين الذي تلكأ بسبب الظروف الخاصة التي تواجهه في مصر، والتي يرى أنها تحتاج إلى صبر وأناة وإعداد. ولم يرضَ نور الدين بذلك التأخر، فقرر الذهاب إلى مصر، وترتيب أمورها بنفسه إلا أن المنيّة عاجلته، فتوفي رحمه الله في ١١ شوال ٥٧٠هـ – ١١٧٤/٥/١٥م[٨٢].

وهكذا انطوت صفحة رائعة من صفحات الجهاد أيام الحروب الصليبية إلا أن الصفحة التي تلتها كانت مشرقة ومؤثرة في مسار التاريخ، تلك هي صفحة صلاح الدين الأيوبي.

سابعاً: جهاد صلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩هـ:

رفع الراية، بعد نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، وقد سار على خطى سلفه نور الدين، فقد ترسم المنهج الإسلامي والحل الإسلامي في تحطيم القوى الصليبية وتحرير الأرض المقدسة.

جاء صلاح الدين ووجد نور الدين قد هيأ الظروف المناسبة لاسترداد الأرض المقدسة، فاستغلها أحسن استغلال وقطف ثمارها اليانعة بعد سنوات من حكمه.

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م بقلعة تكريت، وكان أبوه والياً عليها، دخل هو وأبوه وعمه في خدمة نور الدين محمود، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث على مصر، وتولى الوزارة في مصر وعمره ٣٢ سنة.

يُوصف صلاح الدين بأنه كان حسن العقيدة، كثير الذكر، شديد المواظبة على صلاة الجماعة، ويواظب على السنة والنوافل، ويقوم الليل. وكان يحب سماع القرآن وينتقي إمامه، وكان رقيق القلب خاشع الدمعة إذا سمع القرآن دمعت عيناه، شديد الرغبة في سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الله، وكان حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، وعظيم الإنابة إليه.

وكان صلاح الدين عادلاً رؤوفاً، رحيماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان كريماً، وحسن العشرة، لطيف الأخلاق، طاهر المجلس؛ لا يذكر أحد بين يديه إلا بخير، طاهر السمع، طاهر اللسان، طاهر القلم، فما كتب إيذاء لمسلم قط.

وكان شجاعاً شديد البأس والمواظبة على الجهاد عالي الهمة، قال يوماً وهو قرب عكا "في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت".

ومات صلاح الدين ولم يكن لديه من الأموال ما تجب فيه الزكاة، واستنفدت صدقة النفل جميع ما ملكه، ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا ٤٧ درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا مزرعة... عزم على الحج في السنة التي توفي فيها، ولكنه تعوق بسبب ضيق ذات اليد وضيق الوقت[٨٣].

صراع على خلافة نور الدين:

لما مات نور الدين بويع لابنه من بعده بالملك، وهو الصالح إسماعيل، وكان صغيراً في الـ ١١ من عمره، وجُعل أتابكه شمس الدين بن المقدم... "فاختلف الأمراء وحارت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور.... وانتشرت الفواحش... وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين"[٨٤]، وعندما هاجم الفرنج المسلمين واجههم ابن المقدم عند بانياس لكنه ضعف عن مقاومتهم، فبذل لهم أموالاً جزيلة وهادنهم، كما خرجت أرض الجزيرة من ملك الصالح إسماعيل، واستبعد الأمراء المتحكمون في الصالح بني الداية وسجنوهم، وهم من أقرب الأمراء المقربين إلى نور الدين (شمس الدين بن الداية ومجد الدين بن الداية رضيع نور الدين...)، وكان كل ما سبق سبباً في غضب صلاح الدين على الأمراء المتحكمين في الملك الصالح، بل واعتبر نفسه أحق الناس بالإشراف على تربية وخدمة الملك الصالح[٨٥].

وهكذا فتحت أنظمة الحكم الوراثي، وانعدام المؤسسات "الدستورية" الشورية، والتنازع على السلطة وحبّ الرئاسة...، المجال أمام مرحلة جديدة من الصراع والخلاف بين المسلمين أخرت المعركة الفاصلة التي كان يُعد لها نور الدين، واضطرت صلاح الدين أن يخوض معركة الوحدة من جديد، ولم يتم له ذلك إلا بعد أكثر من ١٢ سنة.

ففي ربيع الأول ٥٧٠هـ – تشرين الثاني/ نوفمبر ١١٧٤م ضمّ صلاح الدين دمشق سلماً، ثم ضمّ حمص دون قلعتها في ١٠/١٢/١١٧٤م، ثم ملك حماة وقلعتها في ٢٨/١٢/١١٧٤م، ثم عاد فسيطر على قلعة حمص، ثم استولى على بعلبك في رمضان من السنة نفسها، فصار أكثر الشام بيده، وكان صلاح الدين طوال ذلك الوقت محافظاً على ولائه الظاهر للصالح بن نور الدين، والدعوة له في المساجد وصكّ العملة باسمه، ولكن بعد أن وقعت معركة بين صلاح الدين من جهة وبين جند حلب والموصل الزنكيين من جهة أخرى وانتصر فيها صلاح الدين، قطع حينئذ صلاح الدين الخطبة وصكّ العملة للملك الصالح، وتسمَّى هو بملك مصر والشام، وأقره الخليفة على ذلك، ثم استولى صلاح الدين في شوال من السنة نفسها (٥٧٠هـ) على قلعة بعرين[٨٦].

وفي سنة ٥٧٠هـ أيضاً استولى صلاح الدين على بزاعة ومنبج وإعزاز[٨٧]، وفي ٥٧٧هـ توفي الملك الصالح إسماعيل في حلب، ولم يكمل العشرين عاماً[٨٨]، وفي ٥٧٨هـ عبر صلاح الدين الفرات وملك منطقة الجزيرة (الرها – حران – الرقة...) وملك سنجار[٨٩]، وفي ٥٧٩هـ ملك صلاح الدين آمد، وتلّ خالد وعينتاب[٩٠]، وملك حلب في صفر من السنة نفسها؛ حيث نزل عنها عماد الدين بن مودود بن زنكي مقابل سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، وبملك صلاح الدين حلب، بعد حصارها مرات عديدة، "استقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسلمها..."[٩١]، كما فتح صلاح الدين قلعة حارم[٩٢]. وفي ٥٨١هـ ملك صلاح الدين ميافارقين، واستلم شهرزور وولاية القرابلي وجميع ما وراء نهر الزاب[٩٣]. وأخيراً دخلت الموصل وما يتبعها في حكم صلاح الدين في ٥٨٢هـ/١١٨٦م[٩٤].

استمرار الجهاد:

لم تخلُ هذه المرحلة ٥٦٩–٥٨٢هـ/١١٧٤–١١٨٦م من معارك عنيفة مع الصليبيين أسهمت في المحافظة على هيبة المسلمين[٩٥]، والتعرف على إمكانات العدو ونقاط ضعفه، واستدراك جوانب النقص عند المسلمين، وعدم إعطاء العدو فرصة للتقوِّي والتمدد والانتشار، إلا أن صلاح الدين لم يدخل في معركة فاصلة مع الصليبيين.

ونمرّ هنا على أهم الوقائع مع الصليبيين في تلك الفترة، ففي ٥٧٠هـ هزم المسلمون الأسطول الصليبي القادم من صقلية، الذي هاجم الإسكندرية بـ ٥٠ ألف رجل، هزيمة كبيرة[٩٦]. وفي ٥٧٣هـ هاجم صلاح الدين الفرنج من جهة مصر حتى وصل عسقلان وفتحها وأسر وقتل وأحرق، ثم انساح جند صلاح الدين لما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر، وسار صلاح الدين للرملة، وهناك فاجأهم الفرنج وهزموهم ورجع صلاح الدين في نفر يسير ومشقّة شديدة[٩٧]، وكان درساً قاسياً له. وفي العام نفسه حاصر الفرنج حماة وحارم وفشلوا، وهزم الفرنج في العام التالي عند حماة[٩٨]. وفي ٥٧٥هـ أغار صلاح الدين على مناطق سيطرة الفرنج، وخرب الحصن الذي أقاموه بمخاضة الأحزان قرب بانياس، ووقعت معركة شديدة انتصر فيها المسلمون، ونجا ملك الفرنج، وأسر عدد من قادتهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس، وهو أعظم الفرنج محلاً عند الملك، وأسر أخوه صاحب جبيل، كما أسر صاحب طبريا، ومقدم الداوية، وصاحب جنين[٩٩].

وفي ٥٧٨هـ قام صلاح الدين بغارات على أطراف مناطق سيطرة الفرنج مُركِّزاً على الشوبك والكرك، وفتح المسلمون الشقيف من أعمال طبريا على يد فرخشاه (والي دمشق)، واقتحم فرخشاه بيسان وغنم ما فيها، وسارت العرب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا عكا[١٠٠]. وفي السنة نفسها هزم صلاح الدين الأسطول الذي سيّره أرناط (رينالد دي شاتيون) Renaud de Châtillon حاكم الكرك في البحر الأحمر للتخريب في سواحل المسلمين ومهاجمة مكة والمدينة...، وأرسل بعض الأسرى الفرنج إلى مِنى "ليُنحروا" عقوبة لمن رامَ إخافة حرم الله[١٠١].

وفي ٥٧٩هـ عبر صلاح الدين نهر الأردن في ١٩ جمادى الآخرة، فهاجم بيسان، "وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه". كما غزا صلاح الدين الكرك، وعاد فحاصرها في السنة التالية دون جدوى، ثم هاجم نابلس ٥٨٠هـ، وسار إلى سبسطية فاستنقذ جماعة من أسرى المسلمين، ووصل إلى جنين فاقتحمها، وعاد إلى دمشق، وهو يبث السرايا عن يمينه وشماله يغنمون ويخربون أملاك الفرنج[١٠٢].

وفي ٥٨٢هـ مات ملك الفرنج في بيت المقدس، وتولى مكانه طفل صغير، وحدث خلاف وطمع في السلطة بين الفرنج جعل صاحب طرابلس يراسل صلاح الدين، ويتحالف معه ضدّ أقرانه من الفرنج. وفي السنة نفسها غدر صاحب الكرك أرناط بقافلة عظيمة

للمسلمين فأخذها عن آخرها وغنمها، ولم يستجب لطلب صلاح الدين ووعيده بإطلاقها، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه إن ظفر به[١٠٣].

وهكذا دخلت سنة ٥٨٣هـ وقد نضجت ظروف الإعداد للمعركة الفاصلة من توحيد لقوى المسلمين، ومن كسر لهيبة الصليبيين، وخبرة أوسع في فنّ التعامل معهم، وبهذا دخل صلاح الدين معركة حطين. وقبل الإشارة إلى معركة حطين نقف قليلاً عند استراتيجية العمل لدى صلاح الدين.

استراتيجية العمل والإعداد لدى صلاح الدين:

١. الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة:

تمثل ذلك في إعادة الوحدة وتقويتها، وبناء الإنسان المسلم المقاتل، وبناء الاقتصاد الحربي.

٢. بناء المجتمع للحرب:

وفي هذا حرص على إشاعة العدل وإزالة الأحقاد بين إمارات المسلمين، وتوجيه العداء ضدّ الصليبيين، كما أقام الصناعات الحربية من دور صناعة سفن وتنظيم الحصون وحمايتها وتجهيزات الحصار... .

٣. وضوح الهدف:

الذي تمثل بقيادة الأمة الإسلامية لطرد الصليبيين، وهذا الوضوح ساعد على كفاءة الأداء والإعداد، فكان "يبذل أقل جهد لأفضل نتيجة"، كما ساعد على تحديد أهداف العمليات العسكرية، فكانت الأولوية للتحرير، وحددت السياسات على هذا الأساس.

٤. الحرص على المسلمين:

فهو "يحرص على المسلمين لتحقيق هدف الحرب، ويحرص على الحرب للمحافظة على المسلمين"، وقد اعتاد على ردّ العدوان بأقوى منه حفاظاً على الروح المعنوية، وتبني الاستعداد القتالي المستمر، وحدد لكل عملية أساليبها المناسبة[١٠٤].

بالإضافة إلى هذه الاستراتيجيات الأساسية فقد تبنى صلاح الدين في معاركه استراتيجية الهجوم غير المباشر مثل القيام بمسيرات طويلة وهجمات مباغتة، والهجوم على جهة لتخفيف الضغط عن جهة أخرى. واستراتيجية الحرب التشتيتية كتشتيت

الجيش المعادي داخل المعركة (فصل الفرسان عن المشاة مثلاً) واستغلال النزاعات السياسية، وضرب فريق بآخر وتحييد الأعداء. واستراتيجية الهجمات الوقائية التي تضعف قدرة العدو القتالية قبل هجومه أو استكمال استعداده[١٠٥].

وحقق صلاح الدين في حروبه المبادئ الأساسية للحرب بكفاءة كبيرة مثل:

- مبدأ المباغتة.
- مبدأ أمن العمل: بما تمثل له من شبكة أمنية جاسوسية قوية ودقيقة.
- مبدأ القدرة الحركية: بما تعنيه من سرعة تحرك الجيش وتجمعه وانتقاله.
- مبدأ المبادءة والقوة الهجومية: الذي تمثل بتحويل الروح الدفاعية إلى هجومية.
- مبدأ الاقتصاد القوي: فكل معركة ما يناسبها.
- مبدأ المحافظة على الهدف: فكان يهتم بتدمير القوى البشرية للصليبيين بالدرجة الأولى، وحرمانهم من مواردهم الاقتصادية وتحويلهم إلى عبء على الغرب، وتحرير الأرض من الداخل تجاه الساحل.

وبالنسبة للجيش الإسلامي فإن صلاح الدين رسخ الاستعداد الدائم للقتال، ورفع الروح الإيمانية والجهادية في النفوس، كما نمى الكفاءة البدنية الجسدية، وأكد على الانضباط وكمال الطاعة (في غير معصية)[١٠٦].

معركة حطين:

جهز صلاح الدين جيشه للمعركة الفاصلة وكانوا ١٢ ألف مقاتل نظامي سوى المتطوعة، وجهز الفرنج أنفسهم وتصالحوا، وتجمعت ملوكهم وجيوشهم، وكوّنوا جيشاً من حوالي ٦٣ ألف مقاتل.

اجتاز صلاح الدين نهر الأردن، وفتح طبريا بدون قلعتها، وبدأت المناوشات يوم الجمعة إلا أن المعركة احتدمت يوم السبت في ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ – ٤ تموز/ يوليو ١١٨٧م، وعانى الفرنج من الحر والعطش، وحصرهم المسلمون وأحرقوا الحشائش الجافة من حولهم ومن تحتهم "فاجتمع عليهم حرّ الشمس، وحرّ العطش، وحرّ النار، وحرّ السلاح، وحرّ رشق النبال"، ثم أمر السلطان بالتكبير وبالحملة الصادقة، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج فقتلوا منهم ٣٠ ألفاً، وأسروا ٣٠ ألفاً، وكان فيمن أسر جميع ملوكهم سوى أمير طرابلس، "ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله، ودَفعِ

الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين"[107].

ووقع في الأسر الملك غي دي لوزينيان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس وأخوه، وأرناط حاكم الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده براً بيمينه لغدره وإيذائه المسلمين، وأسروا صاحب جبيل وابن همفرى Humphrey، ومقدم الداوية، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وقد أعدم المسلمون الداوية والاسبتارية لشدة نكايتهم في المسلمين[108].

هذه هي وقعة حطين، وهي إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وتاريخ فلسطين، بات المسلمون ليلتها يكثرون من التكبير والتهليل، وانتهت بسجود صلاح الدين شكراً لله مع سقوط خيمة ملك الفرنج وأسره[109].

وبعد هذه المعركة فتحت الطريق أمام المسلمين لتحرير معظم أرجاء فلسطين، فخلال أيام قليلة تمّ فتح طبريا ثم عكا (١٠ تموز/ يوليو) ثم الناصرة وصفورية، ثم قيسارية وحيفا وأرسوف، ثم نابلس، ثم الفولة، ودبورية، وجنين، وزعين، والطور، واللجون، وبيسان، وجميع ما يتبع طبريا وعكا، وتمّ فتح يافا. ثم اتجه المسلمون شمالاً ففتحوا حصن تبنين، ثم صيدا (٢٩ تموز/ يوليو)، ثم بيروت (٦ آب/ أغسطس)، وجبيل. ثم اتجهوا جنوباً لاستكمال فتوح فلسطين، ففتحوا الرملة، ويبنه، وبيت لحم، والخليل، ثم عسقلان (٤ أيلول/ سبتمبر)، وغزة والداروم، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية في غزة والنطرون، وبيت جبريل... وغيرها[110]. وقد تمَّ ذلك كله لصلاح الدين في شهرين تقريباً، وبعضها كان يحتاج إلى سنين من الحصار لاقتحامه، وكان جملة ما فتح "خمسين بلداً كباراً كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة"[111].

تحرير بيت المقدس:

تطلعت الأنظار إلى القدس فأعد صلاح الدين عدته، وبدأ حصارها في منتصف رجب ٥٨٣هـ - ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١١٨٧م، وكان داخل القدس حوالي ٦٠ ألف مقاتل صليبي كلهم يرى الموت أهون عليه من تسليمها. وخلال أيام حصارها جرت صدامات عديدة، وحاول المسلمون اقتحامها، واقتتلوا "أشد قتال رآه الناس، وكل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً حتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلا باعث سلطاني"[112].

وطلب الفرنج الأمان مقابل تسليم المدينة فرفض صلاح الدين إلا أن يفعل بهم كما فعلوا بالمسلمين عندما احتلوها قبل حوالي تسعين عاماً، ثم عادوا وطلبوا الأمان، وهددوا إن لم يعطوه أن يقتلوا أسرى المسلمين وهم ألوف، ثم يقومون بقتل نسائهم وذراريهم من النصارى، ويحرقون ويعطبون أموالهم، ويقتلون حيواناتهم، ويخربون الصخرة والأقصى، ثم يخرجون ليقاتلوا حتى النهاية قتال المستميت، وشاور صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على الإشارة بالأمان، فأمّنهم صلاح الدين: وتمّ للمسلمين فتح القدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ – ٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١١٨٧م، وظهر من تسامح ورحمة صلاح الدين الكثير مما اعترف به الصليبيون أنفسهم[١١٣].

وهكذا عادت بيت المقدس لتحكم براية الإسلام بعد ٩١ سنة هجرية (٨٨ سنة ميلادية) وأعيد للمسجد الأقصى بهاؤه ونضارته، وعاد صوت الأذان يصدح في جنباته، وتمّ إحضار المنبر الذي أعده نور الدين للمسجد الأقصى قبل فتحها بعشرين سنة[١١٤].

ومن المهم الإشارة إلى أن صلاح الدين تابع فتح المدن والقلاع الصليبية الأخرى، ففتح سنة ٥٨٤هـ جبلة، واللاذقية، وقلعة صهيون، وفتح حصن بكاس، والشغر، وسرمينية، وبرزية، ودرب ساك، وبغراس[١١٥]، كما فتح الكرك وما يجاورها كالشوبك بعد طول حصار بالأمان "وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه، وأمنت قلوب كل من كان في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره، فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين". وفتح صلاح الدين صفد بالأمان بعد حصار، وخرج الفرنج إلى صور "وكفى الله المؤمنين شرهم، فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية"[١١٦]، كما فتح كوكب. وفي ربيع الأول ٥٨٥هـ فتح صلاح الدين شقيف أرنوم وهي من أمنع الحصون[١١٧].

وهكذا عادت أرض فلسطين لتحكم تحت راية الإسلام من جديد. ولكن ربيع الانتصارات لم يدم طويلاً فانفتحت صفحة جديدة من الصراع والتحدي.

متابعة الجهاد ضدّ الصليبيين:

تجمع الصليبيون الذين سقطت مدنهم وقلاعهم في صور، وكان صلاح الدين قد تسامح وتساهل معهم في الذهاب إليها، وأخذ الصليبيون يرسلون الاستغاثات وتأتيهم الإمدادات حتى قويت شوكتهم، ثم إن صلاح الدين أطلق سراح الملك جاي سنة ٥٨٤هـ

على أن يعود لفرنسا، فذهب إلى صور وتولى قيادة الصليبيين من هناك بمساعدة أسطول من "بيزا" Pisa الإيطالية.... "وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عضّ بنانه ندماً وأسفاً؛ حيث لم ينفعه ذلك" على حدِّ تعبير ابن الأثير[١١٨].

هاجم الصليبيون من صور مدينة عكا ٥٨٥هـ/١١٨٩م، وانتظروا هناك حتى جاءتهم إمدادات الحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا أوربان الثاني لاستعادة بيت المقدس يقودها ثلاثة من ملوك أوروبا، امبراطور ألمانيا فريدريك الأول بربروسا Frederick I Barbarossa الذي مات وهلك أكثر جيشه في الطريق[١١٩]، وريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا Richard the Lionheart الذي جاء بحراً "فعظم به شرُّ الفرنج، واشتدت نكايتهم في المسلمين، وكان رجل زمانه شجاعة، ومكراً، وجلداً، وصبراً، وبلي المسلمون منه بالداهية التي لا مثل لها"[١٢٠]، وملك فرنسا فيليب أغسطس Philip Augustus. وحاصرت جميع الجيوش عكا (ربيع الثاني – جمادى الأولى ٥٨٧هـ أي حزيران/ يونيو ١١٩١م) وسقطت بأيدي الفرنج في ١٧ جمادى الأولى ٥٨٧هـ – ١٢ تموز/ يوليو ١١٩١م. وبهذا عاد الصليبيون ليكون لهم موطئ قدم جديد في فلسطين. وتداول المسلمون والفرنج الصراع، ونال كل طرف من الآخر، واستطاع الفرنج التمدد على الساحل إلى الجنوب فاحتلوا حيفا ويافا[١٢١].

ومن المهم الإشارة إلى أن الصراع كان دموياً مريراً، فقد أشار ابن كثير إلى أن صلاح الدين أقام على عكا صابراً مصابراً مرابطاً ٣٧ شهراً، وأن جملة من قتل من الفرنج كان خمسين ألفاً[١٢٢].

وانتهت الحملة الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبي في ٢١ شعبان ٥٨٨هـ – ١ أيلول/ سبتمبر ١١٩٢م، وهو عبارة عن هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، سيطر الفرنج بمقتضاها على الساحل من يافا إلى عكا، وسمح لهم بزيارة القدس، وحرية التجارة، وتنقل القوافل بين الطرفين[١٢٣]. على أنه من المهم الإشارة هنا إلى بعض النقاط المتعلقة بهذا الصلح:

١. لم يكن صلاح الدين يميل إلى عقد الصلح، وعندما أحضر أمراءه المستشارين كان رأيه عدم قبول الهدنة، وكتب العماد الأصفهاني بأسلوبه رأي صلاح الدين... "نحن بحمد الله في قوة، وفي ترقب نصرة مرجوة...، وقد ألفنا الجهاد، وألفنا به

المراد، والفطام عن المألوف صعب...، وما لنا شغل ولا مغزى إلا الغزو....، رأي أن أخلّف رأي الهدنة ورائي، وأقدم تقديم الجهاد اعتزازي وإليه اعتزائي...، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه"[١٢٤].

ولكن مستشاريه أجمعوا على قبول الصلح بحجة خراب البلاد، وتعب الأجناد والرعية، وقلة الأقوات، ولأن الفرنج إذا لم تحدث الهدنة أصروا على البقاء والقتال، أما إن حدثت فسيعود للبلاد سكانها وعمارها، وتستريح الأجناد وتقوى وتستعد للحرب، وكان رأيهم أن الفرنجة لا يفون بعهودهم، ولذلك نصحوه بعقد الهدنة حتى يتفرق الفرنج وينحلوا، وما زالوا به حتى رضي[١٢٥].

٢. إن هذا الصلح هدنة مؤقتة قصيرة الأجل، وليس معاهدة سلام دائمة، وقد عقد مثلها قبلها، وبعدها العديد وهي جائزة في الشرع حسب تقدير المصلحة التي يقررها إمام المسلمين، وقد استمرت من بعدها الصراعات والمعارك.

٣. لم يتم في هذه الهدنة أي اعتراف للفرنج بأي حقٍّ لهم على أرض فلسطين، وإنما تقررت الهدنة بعدم القتال على ما انتزعوه من أرض إلى أن تنتهي الهدنة.

وشتان ما بين هذه الهدنة التي عقد المسلمون منها العشرات، وبين معاهدة السلام مع الكيان الإسرائيلي التي تجري في عصرنا.

وعلى كل حال فإن الأمر لم يطل بصلاح الدين فتوفي رحمه الله في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ - ٤ آذار/ مارس ١١٩٣م[١٢٦]، أي بعد ستة أشهر فقط من توقيع صلح الرملة.

ثامناً: الأيوبيون والصراع مع الصليبيين:

دبّ النزاع والشقاق بين خلفاء صلاح الدين، ودخلوا بعد سنوات من وفاته في صراعات دموية أضعفتهم، وقوت شوكة المملكة الصليبية في عكا التي استمرت وتمددت في بعض الأحيان على حسابهم.

لقد كان حبّ الدنيا وحبّ السلطان، ولو على حساب المبادئ والمقدسات أحد المظاهر التي حكمت عدداً من سلاطين الدولة الأيوبية، فتحالف بعضهم مع الصليبيين ضدّ بعض، وعرضوا عليهم بيت المقدس أكثر من مرة مقابل أن ينتصر سلطان الشام على سلطان مصر أو العكس!! وقد سعد الصليبيون بهذا الدور الذي لعبوه، ولكنهم ظلّوا على طمعهم في الجميع، غير أن ربيع الصليبيين لم يدم طويلاً.

انتهت الحملة الصليبية الرابعة التي أرسلها الغرب ٦٠١هـ/١٢٠٤م في القسطنطينية، ولم تصل إلى الشام أو مصر[١٢٧]، أما الحملة الخامسة ٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م فقد انطلقت من عكا نفسها بقيادة ملكها يوحنا برين (جان دي بريين) Jean de Brienne إلى دمياط بمصر. وعندما شعر السلطان الأيوبي الكامل محمد بن محمد بن أيوب بخطورة الوضع عرض على الفرنج الصلح مقابل تسليمهم القدس ومعظم فتوح صلاح الدين، فرفضوا وطالبوا بجنوب شرق الأردن أيضاً (الكرك والشوبك...) وقام الملك المعظم عيسى بن أحمد ابن أيوب صاحب دمشق بتدمير أسوار القدس وتخريبها حتى لا يستفيد منها الفرنج إذا احتلوها في ٦١٦هـ/١٢١٩م. لكن الأيوبيين حشدوا قواهم في النهاية، واستطاعوا هزيمة الصليبيين الذين عادوا خائبين إلى عكا بعد أن فاتتهم فرصة عظيمة[١٢٨].

ثم إن الخلاف الناشب بين الكامل محمد والمعظم عيسى أدى إلى استنجاد الكامل محمد بفريدريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي أصبح وصياً على عرش مملكة عكا الصليبية، ووعده بتسليمه القدس إن هو ساعده على أخيه المعظم عيسى.

وجاء فريدريك الثاني Frederick II يقود الحملة الصليبية السادسة، ووصل إلى عكا في ٦٢٥هـ/١٢٢٨م، وعلى الرغم من أن المعظم عيسى توفي مما مكن أخويه الكامل والأشرف من اقتسام أملاكه مع إعطاء ابنه الناصر داود الكرك، والبلقاء، والأغوار، والسلط، والشوبك، ولم يعد الكامل بحاجة إلى فريدريك الثاني، إلا أن الكامل فرط في القدس "وفاء" بعهده لفريدريك!! الذي لم يكن لديه من القوة ما يكفي لإجبار المسلمين على التنازل عن القدس، بل إن فريدريك اضطر للبكاء واستعطاف الكامل في مراحل المفاوضات ليتسلم القدس!! ومما قاله للكامل: "... أنا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج.... فإن رأى السلطان أن ينعم عليَّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه، ويرتفع رأسي بين ملوك البحر"!! واستجاب له الكامل، وعقد معه صلح يافا في ٦٢٦هـ - ١٨ شباط/ فبراير ١٢٢٩م لمدة عشر سنوات، وبمقتضاه تقرر أن يأخذ الفرنجة بيت المقدس، وبيت لحم، وتبنين، وهونين، وصيدا مع شريط من الأرض من القدس يخترق اللد، وينتهي عند يافا، فضلاً عن الناصرة وغرب الجليل، على أن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين[١٢٩].

وهكذا استولى الفرنج على بيت المقدس الأمر الذي أثار غضب المسلمين "فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وأقيمت المآتم، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، وقال الوعاظ والعلماء: يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة. واشتد الإنكار على الملك الكامل، وحقد أهل دمشق عليه ومن معه، وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار"[١٣٠]، وقال ابن كثير: "فعظم ذلك على المسلمين جداً، وحصل وهن شديد، وإرجاف عظيم"[١٣١].

واستمر الصراع بين أبناء البيت الأيوبي، غير أن الناصر داود صاحب الأردن انتهز فرصة انتهاء مدة صلح يافا، وتحصين الفرنج بيت المقدس بخلاف الشروط، فاستولى على القدس، وطرد منها الفرنج في ٦ جمادى الأولى ٦٣٧هـ – ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٢٣٩م، ولكن الصالح إسماعيل –صاحب دمشق– سلمها لهم في ٦٣٨هـ/١٢٤٠م!! بعد أن طلب مساعدتهم له ضدّ صاحب مصر الصالح نجم الدين أيوب، هذا فضلاً عن تسليمهم عسقلان وقلعة الشقيف، ونهر الموجب وأعمالها، وقلعة صفد وأعمالها، ومناصفة صيدا وطبريا وأعمالهما، وجبل عامل وسائر بلاد الساحل... وقد أثار هذا التصرف سخط المسلمين الذين "أكثروا من التشنيع على الملك الصالح إسماعيل" وهكذا عادت القدس مرة أخرى للفرنج.

وعندما حشد الصالح إسماعيل قواته لينضم إلى حلفائه الفرنج عند غزة لقتال الصالح أيوب رفض جند الشام محالفة الفرنج ضدّ إخوانهم، فانحازوا إلى جند مصر، وهزموا الفرنج هزيمة كبيرة، ولكن الصالح أيوب صالحهم سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، واستقرت سيطرتهم على بيت المقدس، وما أعطاهم إياه الصالح إسماعيل[١٣٢].

ومرة أخرى دخل أبناء البيت الأيوبي في الصراع، وظلت القدس والأرض المقدسة ورقة يلعبون بها في تهافتهم على السلطة والنفوذ. فقد عرض الصالح إسماعيل مرة أخرى على الفرنج في عكا التحالف مقابل أن يسيطروا على القدس سيطرة تامة بما في ذلك الصخرة والمسجد الأقصى، وانضم إليه في ذلك الناصر داود، وفي الوقت نفسه عرض الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر على الصليبيين أنفسهم العرض نفسه مقابل التحالف معهم[١٣٣]!!!

واختار الفرنج التحالف مع الصالح إسماعيل الذي شرع في غزو مصر بمساعدة حليفه الناصر داود والمنصور إبراهيم ملك حمص إلى جانب الفرنج. واستعان الصالح

نجم الدين أيوب بالخوارزمية الذين جاءوا لمساعدته في قوة من عشرة آلاف مقاتل في طريقها إليه بالاستيلاء على طبريا ونابلس، اقتحمت بيت المقدس في ١٧ تموز/ يوليو، واستعادت بيت المقدس بشكل كامل إلى حظيرة الإسلام في ٦٤٢هـ - ٢٣ آب/ أغسطس ١٢٤٤م[١٣٤]. وبذلك عادت بيت المقدس نهائياً إلى أيدي المسلمين، وظلت تحتفظ بهويتها الإسلامية حتى دخلها الإنجليز في ١٩١٧/١٢/١٠م.

ثم إن الخوارزمية اتجهوا لمساعدة الصالح أيوب ضدّ الصالح إسماعيل وحلفائه، ووقعت معركة غزة الثانية (قرب غزة في موقع اسمه هربيا) بين هذه القوى في ١٢ جمادى الأولى ٦٤٢هـ - ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٢٤٤م، وانتهت بهزيمة ساحقة للصالح إسماعيل والفرنج، وقدِّر فيها عدد قتلى الفرنج بأكثر من ثلاثين ألفاً عدا ٨٠٠ أسير سيقوا إلى مصر، وكانت هذه المعركة هي أخطر ضربة تلقاها الصليبيون بعد معركة حطين، وتعدّ من المعارك الفاصلة في تاريخ فلسطين؛ إذ ضعف الصليبيون بعدها، ولم يتمكنوا من التوسع، وسعوا إلى الاحتفاظ بما لديهم[١٣٥].

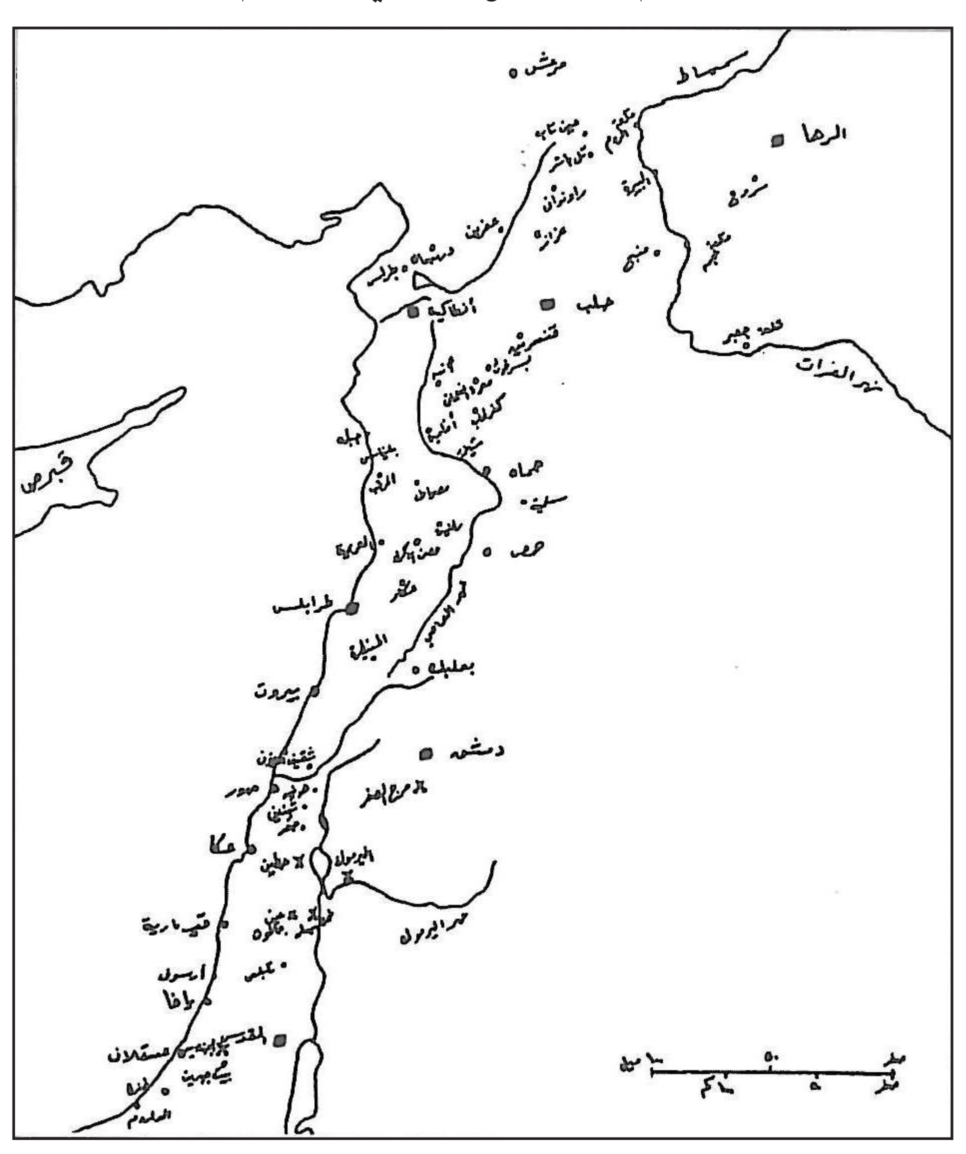
ثم قام الصالح أيوب بالسيطرة على القدس والخليل وبيت جبرين والأغوار ودمشق ٦٤٢هـ/١٢٤٥م، وعاقب الفرنج، فسيطر على قلعة طبريا، واقتحم عسقلان، وبذلك انحسرت حدود مملكة الفرنج إلى أبواب يافا سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٧م.

ثم داهمت مصر الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، والتي انتهت بالفشل، وأسر لويس التاسع ثم تمّ إطلاق سراحه وذهابه إلى عكا[١٣٦]، ثم ما لبث الحكم الأيوبي لمصر أن انتهى بدخولها تحت حكم المماليك ٦٤٧هـ/١٢٥٠م، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الجهاد ضدّ المغول والصليبيين[١٣٧].

وهكذا فإن بيت المقدس والأرض المقدسة في السنوات الخمسين التي تلت حكم صلاح الدين الأيوبي كانت عرضة لحالة من عدم الاستقرار خصوصاً في النصف الثاني منها، واستخدمت أكثر من مرة في مساومات عدد من حكام البيت الأيوبي مع الفرنج مقابل عقد تحالفات معينة، وافتقد هؤلاء مصداقيتهم الجهادية الإسلامية، حتى إن قتالهم للفرنج لم يكن يعبر بالضرورة عن التزامهم الإسلامي بقدر حرصهم على الحكم، والنفوذ، والمصالح الشخصية، ولذلك كان القتال مع الفرنج يعبر إلى حدٍّ كبير عن موازين القوى المادية بين هذه الأطراف، وهو ما جعل القدس وأجزاء من فلسطين تسقط أكثر من مرة بأيدي الفرنج دون مبررات مشروعة إسلامياً. على أن ما سبق لا

ينفي وجود الكثير من المتطوعة والمجاهدين الصادقين الذين كانوا وقود المعارك ضدّ الفرنج، والسبيل إلى تحرير الأقصى والأرض المباركة. ثم إن التعبئة الإيمانية الجهادية، والتصدي للحكام المتعاونين مع الفرنج التي قام بها علماء كبار سجنوا وأوذوا في سبيلها، أمثال العز بن عبد السلام وسبط ابن الجوزي وغيرهما، كان لها دورها الكبير في حشد الجماهير وراء الصف الإسلامي، والإصرار على احتفاظ المسلمين ببيت المقدس والأرض المقدسة.

أهم المدن ومواقع المعارك في بلاد الشام



تاسعاً: المماليك ومواجهة التتار:

في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي ظهر الخطر المغولي (التتري) على بلاد المسلمين. وكان المغول قد توحدت قبائلهم تحت قيادة جنكيز خان Genghis Khan، وبدأوا حملة كبرى للتوسع، فسيطروا على منشوريا والصين وكوريا، واستطاعوا تحطيم جيش الدولة الخوارزمية المسلمة ١٢٢١م، الذي كان سداً منيعاً أمام توسعهم تجاه العالم الإسلامي، والذي كان قد حقق عليهم عدداً من الانتصارات المهمة.

وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٧م، ولكن المغول واصلوا زحفهم فاقتحموا آسيا الوسطى، وروسيا، وسيطروا على موسكو، كما سيطروا على أوكرانيا، وهاجموا بولندا، وهزموا الجيوش الألمانية، واجتاحوا المجر بعد أن سحقوا جيشها، وتوغلوا في أوروبا، كما أخذوا يتوغلون في العالم الإسلامي، فاستكملوا سيطرتهم على مناطق التركستان وأفغانستان والهند وفارس...[١٣٨].

وكان المغول يدمرون الممالك التي أمامهم تدميراً دون شفقة أو رحمة وبشراسة رهيبة أرعبت العالم من قوتهم وسطوتهم، فصاروا ينتصرون لا بكفاءتهم وقوتهم فحسب، وإنما بالحرب النفسية والرعب الذي بثوه في نفوس الناس.... حتى انتشر المثل القائل "من قال لك إن التتار قد هزموا فلا تصدقه"!! وقد استثمر المغول، إلى أقصى حدّ، حرب الصاعقة التي تعتمد على سرعة الحركة، كما استثمروا حرب الأعصاب، فنشروا الرعب والذعر من بطشهم في كل مكان.

وكانت بلاد المسلمين تعاني من التفكك والضعف مما سهل على المغول الزحف إلى بلادهم، والقضاء بسهولة على ممالكهم. وبلغ من ضعف حكام المسلمين أن أحدهم، وكان يحكم إحدى المدن، أرسل صورته المرسومة على حذاء هدية لهولاكو قائد المغول، حتى "يتشرف" هذا الحاكم بوضع هولاكو قدمه على صورته عندما يلبس الحذاء؟![١٣٩].

ثم اجتاح المغول العراق، وحاصروا بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي كانت تعاني من ضعف شديد كان من أسبابه تآمر الوزير ابن العلقمي مع المغول لإسقاط الخلافة وتسريحه معظم جيش الخلافة الذي أصبح عشرة آلاف بعد أن كان أكثر من ١٠٠ ألف.

وقد سقطت بغداد في ٦٥٦هـ – ١٠ شباط/ فبراير ١٢٥٨م، وقام المغول بمذبحة هائلة استمرت أربعين يوماً، وذكر ابن كثير أن عدد الضحايا بلغ ٨٠٠ ألف، وقيل مليونان، وقتل الخليفة المستعصم بالله، وقيل إنه وضع في كيس وقتل رفساً[١٤٠].

وقام المغول باجتياح بلاد الجزيرة، واستولوا على حران، والرها، وديار بكر، ثم جاوزوا الفرات، ونزلوا حلب في ٦٥٨هـ – كانون الثاني/ يناير ١٢٦٠م، وأظهر حكام بني أيوب في الشام تخاذلاً كبيراً، فأعلن الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب خضوعه للمغول، ولكنهم دخلوا حلب، وارتكبوا الفظائع، حتى جرت دماء المسلمين في الأزقة. وبادر المنصور بن المظفر صاحب حماة بالفرار إلى مصر بحريمه وأبنائه تاركاً حماة وأهلها يلقون مصيرهم، ثم فرّ الناصر يوسف من دمشق إلى غزة بنية الهرب إلى مصر، "وترك دمشق خالية وفيها عامتها..." وتبدد البيت الأيوبي في الشام بسرعة.

وصل المغول إلى دمشق فاستلموها بالأمان أول آذار/ مارس ١٢٦٠م ثم غدروا بأهلها، وخلال فصل الربيع احتلوا نابلس والكرك، وتقدموا إلى غزة دون مقاومة تذكر[١٤١]. وهكذا تقاسم النفوذ في فلسطين مملكة عكا الصليبية والمغول التتار، وعادت فلسطين لتئن من جديد تحت سنابك خير الكفار.

الصليبيون والتتار:

فرحت أوروبا بالهجوم التتري على بلاد الإسلام، وعملت على التنسيق معهم بغية ضرب "العدو المشترك"، كما هدفوا إلى نشر المسيحية بين التتار أنفسهم، وقد نجحوا في بداية الأمر جزئياً في ذلك؛ إذ اشتهر القائد التتري الذي اجتاح بلاد الإسلام هولاكو بميله للمسيحيين النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم، وكانت زوجته مسيحية أيضاً، وقد لعبت هذه الزوجة دوراً خطيراً تفخر فيه الكنيسة في تجنيب أوروبا أهوال الغزو التتري، وتوجيهه لبلاد المسلمين، بل إن قائد معركة عين جالوت التتري كتبغا Kitbuqa كان مسيحياً، حتى إن أحد الأساقفة المسيحيين وصف حملة التتار بأنها "حملة صليبية بالمعنى الكامل لها، حملة نسطورية مسيحية"، وإن آمال الغرب قد انعقدت على هولاكو وقائده كتبغا ليحقق "القضاء على المسلمين". وقد بادر هاتون الأول Hutton I ملك أرمينية وبوهيموند السادس Bohemond VI أمير طرابلس وأمراء الفرنج في صور وعكا وقبرص إلى عقد حلف مع المغول التتار يقوم على أساس القضاء على المسلمين في آسيا، وتسليم الفرنج بيت المقدس[١٤٢].

وفي تلك الفترة تولى السلطة في مصر –التي أخذ المماليك يحكمونها– السلطان المظفر قطز محمود بن ممدود ١٧ ذو القعدة ٦٥٧هـ – كانون الأول/ ديسمبر ١٢٥٩م، وقد عرف قطز بتقواه، وصلاحه، وارتباطه العميق بالإسلام، وكان تلميذاً لأعظم العلماء في

العصر العز بن عبد السلام. وعلى حدّ تعبير ابن كثير فقد كان قطز شجاعاً بطلاً كثير الخير ناصحاً للإسلام وأهله، وكان الناس يحبونه، ويدعون له كثيراً"[143].

ولم يكد يمرّ عليه في الحكم سوى بضعة أشهر حتى واجه مشكلة الاجتياح التتري، وتلقى رسالة تهديد عنيفة من هولاكو، قبل مغادرته سورية، تطلب منه الاستسلام جاء فيها "اتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا... أي أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص... الحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع!..."[144].

ولكن قطز، القائد المسلم الذي لا يخشى إلا الله، والذي يعلم أن النصر بيد الله، وأنه متى استكمل العدة، وبذل الأسباب، وأحسن الصلة بالله، والاستعانة به حقق له النصر، قرر إعلان الجهاد، ومواجهة الزحف المغولي، وبعد أن قرأ الكتاب قبض على هؤلاء الرسل، وأمر بإعدامهم توسيطاً (بأن يضرب الشخص في وسطه، فيقسم نصفين)، وعلقت رؤوسهم على أحد أبواب القاهرة (باب زويلة) وكان إعدامهم إعلاناً لا تراجع فيه عن العزم على القتال، وتحدياً يفيض بمشاعر القوة والعزة في مواجهة الزحف التتري[145].

وقرر قطز أن يبادر هو بالهجوم والزحف على قوات التتار رفعاً للروح المعنوية للمسلمين، وتأكيداً على روح الجهاد الساعية إلى الشهادة في سبيل الله، وحفظاً لأرض الإسلام في مصر، وتحريراً لأرض الإسلام في بلاد الشام، ومن ضمنها أرض فلسطين والمسجد الأقصى المبارك، وتخويفاً للتتار بأنه نوع جديد من الرجال لم يواجهوه من قبل، ولأن أنجح وسائل الدفاع الهجوم.

وفي شعبان ٦٥٨هـ - ٢٦ تموز/ يوليو ١٢٦٠م اجتاز الجيش المسلم بقيادة قطز الحدود، وحرر غزة؛ حيث أقام بها يوماً واحداً، ثم اتجه شمالاً باتجاه قوات التتار؛ حيث التقت القوتان الإسلامية والتترية عند "عين جالوت" شمال شرقي فلسطين.

معركة عين جالوت:

ونشبت إحدى أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ هناك وهي معركة عين جالوت، يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ - ٣ أيلول/ سبتمبر ١٢٦٠م وفي هذه المعركة توفرت للتتار عناصر النصر "علمياً ومنطقياً" إذ تفوق التتار على الجيش الإسلامي في عناصر:

- الكفاءة والخبرة الواسعة نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضوها "قيادة وجنوداً".
- المعنويات العالية جداً لأنهم لم يهزموا من قبل.
- التفوق الكبير في العدة والعتاد والأعداد.
- الكفاءة العالية لسلاح الفرسان الذي تميز بكثرته وسرعة حركته وقدرته على تطبيق (حرب الصاعقة) التي كانت إحدى السمات البارزة للتتار.
- التفوق الإداري فله قواعد قريبة وطرق من مواقع الجيش المسلم.
- مواضع التتار في المعركة كانت أفضل من مواقع الجيش المسلم.

وعلى الرغم من التفوق التتري الساحق، إلا أن النصر الساحق كان للمسلمين.

لقد تميز جيش قطز بأنه "جيش إسلامي" قام لنصرة الإسلام، والدفاع عن أراضيه المقدسة، وشارك في هذا الجيش شيوخ مصر وعلماؤها وصالحوها، وانتشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجيش، فخرج من مصر تائباً منيباً طاهراً يبغي نصر دين الله، والتمكين له في الأرض، كما تميز الجيش الإسلامي بقيادة مؤمنة تتحلى "بإرادة القتال" بأقوى مظاهرها، وهي من أهم عوامل النصر في أي معركة[١٤٦].

طلب قطز من الجيش الانتظار لما بعد صلاة الجمعة "لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم"...، وهكذا بدأ القتال.

وفي أثناء المعركة قتلت زوجة قطز "جلنار" وهي تجاهد فأقبل عليها قطز وهي في الرمق الأخير وهو يقول: واحبيبتاه، فقالت له: لا تقل واحبيبتاه، ولكن قل وا إسلاماه، ثم صعدت روحها إلى الله بعد أن ذكرته بأن أمر الإسلام والجهاد في سبيل الله أهم من الحب والعلاقات الشخصية...، وقام قطز منتفضاً وهو يردد وا إسلاماه... وا إسلاماه والجيش يرددها حتى تمّ النصر....

كما حدث في أثناء المعركة أن قُتل فرس قطز، فترجل أحد الأمراء ليعطيه فرسه، فرفض حتى لا يحرمه من الجهاد، وحتى يأتيه المعنيون بالخيل بفرس جديد، فقيل له: لمَ لمْ تركب الفرس، ولو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك؟ فقال: "أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه". وبعد النصر ترجل قطز عن فرسه، ومرغ وجهه بالتراب، وسجد لله شكراً على ما أولاه من نصر.

وبدأ المسلمون فوراً في مطاردة المغول، ودخل قطز دمشق بعد خمسة أيام من عين جالوت، وامتدت المطاردة إلى حلب، فلما شعر المغول باقتراب المسلمين تركوا ما بأيديهم من أسرى المسلمين... وقاسوا من البلاء الكثير، وخلال شهر واحد كان المسلمون بقيادة المماليك قد استعادوا بلاد الشام من المغول والتتار[١٤٧].

وتعدّ هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ؛ إذ إنها أوقفت الزحف التتري الذي لم يكن يقف أمامه شيء، وكانت بداية لسلسلة من الهزائم المتوالية أعادت المغول إلى قواعدهم، وحررت بلاد الإسلام منهم. ثم إن من استقر من المغول في بلاد الإسلام تحول إلى الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجاً، فكان ذلك نصراً جديداً للمسلمين.

عاشراً: المماليك والقضاء على الصليبيين:

على الرغم من انحسار المد المغولي التتري عن فلسطين، وانتصار المسلمين في عين جالوت، إلا أن مملكة عكا الصليبية ظلّت تحتفظ بسيطرتها على المنطقة الساحلية الممتدة من يافا إلى عكا. وقد تولى سلاطين المماليك مهمة تحرير باقي أرض الإسراء، وبلاد الشام، حتى جلا آخر الصليبيين عنها بعد أكثر من ثلاثين عاماً من معركة عين جالوت.

وكان الظاهر بيبرس قد تولى خلافة السلطان قطز الذي لم يدم حكمه أكثر من سنة، ونُفسح المجال هنا لنقل المختصر الجيد الذي كتبته الموسوعة الفلسطينية حول دور بيبرس ومن تلاه من سلاطين:

> وقد قام الظاهر بيبرس بدور كبير في محاربة الفرنج في بلاد الشام وتطهيرها منهم، فكان في حركة دائبة مستمرة يقوم بالغارات على ممتلكاتهم. ولكنه كان يلجأ أحياناً على الرغم من ذلك إلى توقيع المعاهدات معهم إذا أحسَّ بحاجة إلى ذلك. وقد جرت العادة أن تكون مدتها عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات.
>
> وبعد أن فرغ من القضاء على المشكلات الداخلية في دولته توجه إلى حرب الفرنج. ففي ٦٦٢هـ/١٢٦٣م خرج إلى فلسطين، ولما وصلت قواته إلى عكا خرج الفرنج إليه يطلبون تجديد الهدنة، ويتعهدون بإطلاق سراح أسرى المسلمين، والمحافظة على العهود والمواثيق. ولكن بيبرس لم يكترث لمطالبهم، وآثر مهاجمة مواقعهم المختلفة، ولا سيّما عكا، ليعرف أماكن القوة والضعف فيهم إلى أن يحين الوقت لاستنقاذ البلدان والمواقع التي كانوا يحتلونها. ولم تكن قوة الفرنجة بقادرة على اعتراض سبيله.

خرج الظاهر بيبرس إلى فلسطين ثانية ٦٦٤هـ/١٢٦٥م فاستولى على قيسارية المحصنة، وهدم أسوارها، وهاجم قسم من جيشه عكا، وضرب حيفا، ثم سقطت أرسوف في يده في السنة نفسها.

وفي السنة التالية خرج إلى فلسطين مرة أخرى، وحاصر صفداً وفتحها، وهدم أسوارها، ثم عاد إلى فلسطين في ٦٦٦هـ/١٢٦٧م فأرسل إليه الفرنجة يطلبون الهدنة. وكان يتبع سياسة مهادنة بعضهم دون الآخر حتى لا تتجمع قواهم في وجهه. وقد مكنته هذه السياسة من تحرير أنطاكية سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م. ويعد استيلاؤه عليها أكبر نصر حققه المسلمون على الفرنجة في الشام منذ تحرير صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وقد وافق بيبرس بعد فتح أنطاكية على عقد هدنة مع عكا مدتها عشر سنوات على أن تكون أعمال عكا مناصفة بين الطرفين، ويستولي هو على المرتفعات المحيطة بصيدا.

تابع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون مسيرة تحرير بلاد الشام من الفرنج بعد الظاهر بيبرس. ففي عهده حدث تحالف ثلاثي ضمّ التتار والصليبيين في الشام، وسنقر الأشقر نائب دمشق الثائر، ولكن تحالفهم أخفق، وبدأ قلاوون يشدّد الخناق على الفرنج، فاحتل الحصن المرقب ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، واستولى على اللاذقية ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، وعلى طرابلس ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. وقد استفاد قلاوون من حالة الفرنج غير المستقرة في عكا خاصة، وبلاد الشام عامة بسبب الصراعات والمنازعات على السلطة، فقوي مركزه وتمت له تصفية الوجود الفرنجي في الشرق العربي، ولم يبق في هذه الفترة بيد الفرنج على الساحل الشامي سوى عكا وصور وصيدا وعتليت.

وجد قلاوون الوقت قد حان لتصفية الوجود الصليبي في فلسطين، فانتهز حادثة مهاجمة الفرنج في عكا تجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم، فأعلن الجهاد، وطلب القوات من جميع أنحاء مصر والشام، وأقام خارج القاهرة ينتظر وصول الإمدادات، ولكنه مرض فجأة وتوفي في ذي القعدة ٦٨٩هـ - ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٢٩٠م، فخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل. وقد حاول الفرنج في عكا الاستفادة من الوضع الجديد ومن التغيير في القيادة المملوكية، فعرضوا على الأشرف خليل عقد هدنة يضع هو شروطها، ولكنه رفض وأكمل الاستعداد، وسار إلى عكا وحاصرها بمساعدة القوات الشامية، وتمكّن من تحريرها في ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ - ١٨ أيار/ مايو ١٢٩١م بعد أن هرب ملكها هنري الثاني Henry II إلى قبرص، وبعد فتح عكا استولى الأشرف خليل

على صيدا، وصور، وحيفا، وعتليت، وأمر بهدم تحصيناتها جميعاً. وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق العربي في أيدي المماليك، وانتهى وجود الفرنجة في فلسطين والشام بعد قرنين من الزمان (٤٩٢-٦٩٠هـ أي ١٠٩٩-١٢٩١م)[١٤٨].

وبذلك عادت فلسطين كاملة إلى حظيرة الحكم الإسلامي الذي استمر حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين.

لعل الدارس لتاريخ الحروب الصليبية والجهود التي بذلت لتحرير الأرض المباركة يخرج بالنقاط البارزة التالية:

- إن الراية التي رفعت لتحرير فلسطين هي الراية الإسلامية، ولم تكن راية قومية أو علمانية أو إقليمية.
- إن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الذي عادت عن طريقه فلسطين إلى الحكم الإسلامي.
- إن أبرز رموز الجهاد والقادة الذين حُررت الأرض المباركة على أيديهم (عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، قطز، بيبرس، قلاوون وابنه...) تبنوا الإسلام فكراً، ومنهجاً، ووسيلة للتحشيد والتعبئة ضدّ العدو الغاصب. وكانوا بشكل عام على التزام تام بالإسلام وأحكامه، وعلى سلامة العقيدة، وحسن الصلة بالله.
- إن القادة، والأمراء، والجنود، والمتطوعة، والعلماء الذين شاركوا في الجهاد والتحرير كانوا من جنسيات ومناطق شتى (عرب، أكراد، ترك... إلخ) وكان قاسمهم المشترك أمراً واحداً هو الإسلام وإيمانهم بحقهم المقدس في الأرض المباركة.
- إن أمر استعادة كامل فلسطين قد اقتضى حوالي ٢٠٠ سنة من الجهاد دون أن يتنازل المسلمون عن حقهم فيها، فكانت معركة تداولتها الأجيال حتى قطفت الثمرة النهائية للانتصار.
- وبالتالي فإن المحتل الغاصب لم يكن عدواً سهلاً، ولا ينبغي أن نتوقع من أي عدو أن يكون سهلاً (كاليهودية الصهاينة في عصرنا) كما لا ينبغي أن نفقد الأمل مهما طال الزمن، ومهما كان العدو شرساً عنيداً.
- إن هناك ارتباطاً جوهرياً بين انتصارات المسلمين، وبين مدى التزامهم بدين الله وشرعة تحكيمه في حياتهم، كما أن هناك ارتباطاً جوهرياً بين هزائم المسلمين وبين تنازعهم وتشتتهم وبعدهم عن منهج الإسلام.
- إن الفكرة الإسلامية هي الوسيلة المثلى لتحشيد وتعبئة الطاقات لتحرير أي أرض إسلامية.

هوامش الفصل الثالث

[١] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ١٢٦.

[٢] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: ١٦٠.

[٣] **القرآن الكريم**، سورة الصافات: ١٧١-١٧٣.

[٤] **القرآن الكريم**، سورة النساء: ١٤١.

[٥] **القرآن الكريم**، سورة محمد: ٧.

[٦] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: ٤٥-٤٦.

[٧] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: ٦٠.

[٨] **القرآن الكريم**، سورة النور: ٥٥.

[٩] **القرآن الكريم**، سورة النور: ٦٣.

[١٠] انظر: فايد حماد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي**، ط ٤ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨)، ص ٥١-٥٤.

[١١] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٦٢.

[١٢] فايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ٦٨.

[١٣] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٩٠-٢٢٠.

[١٤] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٢٢٢.

[١٥] أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، ط ٤ (بيروت: دار النهضة العربية، دون تاريخ)، ص ٢٣-٢٤؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ٧٨؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**، ط ٤ (القاهرة: مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٦)، ج ١، ص ١٠٤-١٠٧.

[١٦] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ١، ص ١٠٨-١١٣؛ وأرنست باركر، **مرجع سابق**، ص ٢٥-٢٦.

[١٧] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٨١؛ وأرنست باركر، **مرجع سابق**، ص ٣٤-٣٥.

[١٨] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٨٧.

[١٩] فايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ١٠٨-١١٢.

[٢٠] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ١٨٩؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ١١٢-١١٣.

[٢١] أرنست باركر، **مرجع سابق**، ص ٣٦-٣٧؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ١١٦.

[٢٢] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ١، ص ٢٢٩-٢٣٠؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٤٤٤.

[٢٣] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ١، ص ٢٠١-٢١٠، و ٢٣١-٢٣٢؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٠٤؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ١١٧-١٢٤.

[٢٤] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٤٢.

[٢٥] **القرآن الكريم**، سورة الأنفال: ٤٦.

[٢٦] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٥٨-٢٥٩.

[27] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٢٢٢.

[28] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٢٢٨–٢٢٩.

[29] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٢٧٢.

[30] مثلاً: مقتل سيرجال صاحب أنطاكية مع ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف من المشاة في معركة مع إيلغازي صاحب حلب سنة ٥١٢هـ (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٨٩)، وأسر جوسلين صاحب الرها ومعه ابن خالته كليام وجماعة من الفرسان المشهورين سنة ٥١٥هـ (ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٣٠٤).

[31] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٢٢٢.

[32] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٢٢٦.

[33] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٤٤٦.

[34] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٢٦٨، و٣٠٢، و٣٢٠.

[35] انظر: **المرجع نفسه**، ج ٨، ص٢١٢، و٢١٨، و٢٢٨–٢٢٩.

[36] شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج ١، ق ١ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦)، ص ٧٥؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٣٠٩، و٣٢٣.

[37] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٣٣١.

[38] **المرجع نفسه**، ج ٨، ص ٣٢٩–٣٦٨، وج ٩، ص ٥؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ١، ص ٧٨، و٨٤–٨٥.

[39] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٣٦٧.

[40] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ٨–٩؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ١، ص ٩٤–٩٦.

[41] أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ١، ص ١٠٧–١٠٩.

[42] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٣.

[43] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٢٠؛ وانظر أيضاً: أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ١، ص ١٠٩–١١٤؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ١٧٩–٢٠٤.

[44] عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة** (دمشق–بيروت: دار القلم، ١٩٨٠)، ص ٤٩–٥٠. يعتبر هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن نور الدين محمود، حيث أعطى المؤلف من خلاله صورة متكاملة عن شخصيته وسياساته الإدارية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية والثقافية.

[45] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٥.

[46] عماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ٥٣.

[47] **المرجع نفسه**، ص ٤٥–٤٧.

[48] أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٥٨٣. (صدر القسم الثاني من الجزء الأول من كتاب أبي شامة سنة ١٩٦٢ في مصر عن وزارة الثقافة).

[49] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٧٨؛ وعماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ٢٤.

[50] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٥؛ وانظر: أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ١، ص ٥٨٤؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٧٨.

[51] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٥.

[52] عماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ٤٢.

[53] **المرجع نفسه**، ص ١٢، و٢٥.

[54] **المرجع نفسه**، ص ٢٧-٣٢.

[55] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٧٥-٨٩.

[56] أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٤.

[57] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٢٣؛ وعماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ١٧.

[58] أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٣٦؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٥؛ وعماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ٧٩.

[59] عماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ٩٣-١٠٧.

[60] **المرجع نفسه**، ص ٨٦.

[61] **المرجع نفسه**، ص ٨٧.

[62] **المرجع نفسه**، ص ٣٥-٣٦.

[63] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٨١.

[64] عماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ١٤٤.

[65] حول اهتمامه بالعلم والعلماء انظر: **المرجع نفسه**، ص ١٢٩-١٦٥.

[66] **المرجع نفسه**، ص ٢٠-٢٤، و١١١-١١٨.

[67] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٩٣-١٢٦.

[68] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٨٦-٨٧.

[69] عماد الدين خليل، **مرجع سابق**، ص ٣٢-٣٥.

[70] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٤٥-٤٦؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ١، ص ٢٣٦.

[71] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٨٤-٨٥؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٩-٣٣٨.

[72] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٩٥-٩٦؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٣-٣٦٧.

[73] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٩٩-١٠٣؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٩-٤٠٦؛ وحول ضمّ نور الدين لمصر انظر: فايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ٢٢٩-٢٤٤.

[74] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١١١؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٢-٥٠٠.

[75] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٠٩-١١٠.

[76] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٢٣؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٥٥١-٥٥٤.

[77] انظر بالتفصيل حول صراع نور الدين مع الصليبيين: فايد عاشور، **مرجع سابق**، ص ٢٠٧-٢٢٦.

[78] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٨٢-٨٣.

[79] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ٨٣.

[80] أبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٣٤٢-٣٤٣.

[81] انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ٨٦-٨٨.

[82] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٢٤؛ وأبو شامة، **مرجع سابق**، ج ١، ق ٢، ص ٥٧٧-٥٨٢.

[83] حول صفات صلاح الدين وأخلاقه، انظر: بهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية** (مصر: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ)، ص ٤–٢٨؛ ومحمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص ٢٨٢، و٣٠٧–٣١٤؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ١٣–٢٥.

[84] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٢٨٥.

[85] **المرجع نفسه**، ج ١٢، ص ٢٨٥–٢٨٦؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٧.

[86] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٩–١٣٣؛ وانظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٥٨٣–٥٨٦.

[87] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٣٧.

[88] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٥٣.

[89] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٥٦–١٥٩.

[90] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٦١–١٦٢.

[91] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٦٢.

[92] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٦٣.

[93] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٦٩–١٧٠.

[94] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٧١.

[95] انظر حول جهاد صلاح الدين للصليبيين في تلك الفترة: فايد عاشور، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ٤٧–١١٣.

[96] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٢٩–١٣٠.

[97] **المرجع نفسه**، ص ١٤١–١٤٣؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٥٩٦.

[98] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٤٢–١٤٥.

[99] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٤٧.

[100] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٥٥–١٥٦.

[101] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٦٠.

[102] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٦٤–١٦٦.

[103] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٧٤.

[104] انظر: بسام العسلي، **صلاح الدين الأيوبي** (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣)، ص ٩٩–١٠٦.

[105] **المرجع نفسه**، ص ١٠٧–١٠٩.

[106] **المرجع نفسه**، ص ١١٢–١١٥.

[107] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٢٠–٣٢١؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٧٨.

[108] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٢١؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٧٨.

[109] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٧٨؛ وحول معركة حطين، انظر: العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**، ص ٧٦–٨٣؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٦٣٢–٦٣٨؛ وابن شداد، **مرجع سابق**، ص ٦٠–٦٤.

[110] انظر: العماد الأصفهاني، **مرجع سابق**، ص ٨٨–١١٤؛ وابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٧٢–١٨٢؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٦٣٧–٦٤٣.

[111] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٢٢.

[112] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٨٢.

[113] انظر: **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٨٣؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٢٣–٣٢٤؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٦٤٤–٦٥٠.

[114] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٩، ص ١٨٥.

[115] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٩٠–١٩٥.

[116] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٩٦.

[117] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٩٦–٢٠٠.

[118] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ١٩٧.

[119] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ٢٠٧.

[120] **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ٢١٣.

[121] انظر: **المرجع نفسه**، ج ٩، ص ٢١٤–٢١٥.

[122] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٤٥.

[123] العماد الأصفهاني، **مرجع سابق**، ص ٦٠٥؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٣٥٠؛ وانظر بالتفصيل حول الحملة الصليبية الثالثة: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٦٥٩–٧٠٩؛ وأرنست باركر، **مرجع سابق**، ص ٨٦–٩٣؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ١٧٧–٢٤٤.

[124] العماد الأصفهاني، **مرجع سابق**، ص ٦٠٣.

[125] **المرجع نفسه**، ص ٦٠٤–٦٠٥.

[126] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٣.

[127] انظر: أرنست باركر، **مرجع سابق**، ص ٢٧٩–٢٩١؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ٢٧٩–٢٩١.

[128] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٧٦٠–٧٧٧؛ وأرنست باركر، **مرجع سابق**، ص ١٠٥–١١٠؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٢٤٩، وج ٣، ص ٥١٢.

[129] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ١٢٣–١٢٤؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٧٩١–٨٠٤؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٦١٨.

[130] انظر: السيد الباز العريني، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى (١) الأيوبيون** (دون مكان: دار النهضة العربية، دون تاريخ)، ص ١٢٥–١٢٧؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ٣٣٤؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ٤، ص ٦١٨–٦١٩؛ ومجير الدين الحنبلي، **مرجع سابق**، ج ١، ص ٤٠٦–٤٠٧.

[131] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ١٢٤.

[132] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨١٧–٨٢١؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٢٥٠، وج ٣، ص ٤٤٧. ذكر الحنبلي أن القدس استمرت بأيدي المسلمين حتى ٦٤١ هـ، انظر: مجير الدين الحنبلي، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ٥–٦.

[133] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٢٥٠.

[134] انظر: **المرجع نفسه**، ج ١، ص ٢٥٠، وج ٣، ص ٤٤٧؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٢٥–٨٢٦؛ وفايد عاشور، **مرجع سابق**، ج ٢، ص ٣٥٤–٣٥٥.

[135] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ١٦٤–١٦٥؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٢٥٠، وج ٣، ص ٣٠٤، و٤٤٧، و٥١٢؛ والسيد العريني، **الأيوبيون**، ص ١٤١–١٤٢؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٢٦–٨٢٧.



[١٣٦] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ١، ص ٢٥٠؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٣١–٨٤٩.

[١٣٧] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٥٠–٨٥٣.

[١٣٨] انظر: السيد الباز العريني، **المماليك** (بيروت: دار النهضة العربية، دون تاريخ)، ص ٤٠–٤٣.

[١٣٩] رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج ١، نقله للعربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد (الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة – دار إحياء الكتب العربية، دون تاريخ)، ص ٣٠١.

[١٤٠] حول استيلاء المغول على بغداد، انظر: **المرجع نفسه**، المجلد الثاني، ج ١، ص ٢٨١–٢٩٥؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٨٦–٨٨٧.

[١٤١] حول اجتياح المغول للشام، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **مرجع سابق**، المجلد الثاني، ج ١، ص ٣٠٥–٣٠٩؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٨٦–٨٨٧.

[١٤٢] انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٦٨–٨٧٢، و ٨٨١.

[١٤٣] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٢٢٥.

[١٤٤] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٩٩؛ ومحمود شيت خطاب، **مرجع سابق**، ص ٣٣٣–٣٣٤.

[١٤٥] سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٩٩.

[١٤٦] انظر: محمود شيت خطاب، **مرجع سابق**، ص ٣٤٥–٣٤٦.

[١٤٧] حول معركة عين جالوت، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **مرجع سابق**، المجلد الثاني، ج ١، ص ٣١٠–٣١٦؛ وسعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٨٩٩–٩٠١؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام** (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠)، ص ١٩٥–١٩٩؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٣، ص ٢٢٠–٢٢١.

[١٤٨] **الموسوعة الفلسطينية**، ج ٣، ص ٤٤٧–٤٤٨. ولمزيد من التفصيل انظر: سعيد عاشور، **الحركة الصليبية**، ج ٢، ص ٩٠٥–٩٣٦؛ وسعيد عاشور، **الأيوبيون والمماليك**، ص ٢١٠–٢٣٤.

الفصل الرابع

التجربة الإسلامية
الحديثة والمعاصرة في فلسطين

التجربة الإسلامية
الحديثة والمعاصرة في فلسطين

في ظلّ الدولة العثمانية:

ظلت فلسطين تحت سيطرة دولة المماليك إلى أن قامت الدولة العثمانية بالسيطرة عليها ١٥١٦-١٥١٧م. وكان لدولة الخلافة العثمانية من القوة ما مكنها من السيطرة على معظم شرق أوروبا (بلغاريا، يوغوسلافيا، رومانيا، اليونان...) بالإضافة إلى العراق وبلاد الشام والحجاز ومصر والسودان ومعظم المغرب العربي... . وكانت إحدى أهم وأقوى دول العالم في العصر الحديث، غير أن عوامل الضعف أخذت تدب في أوصالها منذ القرن الـ ١٨، وأخذت تفقد تدريجياً مساحات كبيرة من أرضها، ولم تتمكن من مواكبة التطورات العلمية والحضارية في الغرب الأوروبي، وعانت من الديون والتعثر الاقتصادي، كما عانت من النفوذ الأوروبي في أرضها، فضلاً عن حالة الجمود الفقهي والثقافي والفكري التي عاشتها بما لم يمكنها من متابعة قضايا العصر، وتقديم الحلول المناسبة وفق رؤى واعية مستمدة من الإسلام وتراثه العظيم.

ومهما يكن من أمر فإن الدولة العثمانية حافظت على الهوية الإسلامية لأرض فلسطين، ورسختها لأربعة قرون متواصلة، كما أن أهل فلسطين كانوا يعدّون هذه الدولة دولتهم، ويحسون بالولاء لها، وكانوا، ومعهم غيرهم من المسلمين، يتمتعون بكافة الحقوق السياسية وغيرها التي يتمتع بها الأتراك، ويشاطرون الأتراك جميع مناصب الدولة العسكرية والمدنية...[١]. فمثلاً عُيِّن موسى كاظم الحسيني، والد الشهيد عبد القادر الحسيني، متصرفاً لعسير ١٨٩٢م، ثم متصرفاً لنجد ١٨٩٦م، ثم متصرفاً للحسا ١٩٠٠م،... وتنقل به المقام إلى أن صار متصرفاً لحوران ١٩١٢م[٢]، وهو نفسه الذي قاد الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٢٠-١٩٣٤م، وهناك الشيخ أسعد الشقيري، والد أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري، الذي تولى أكبر منصب في دولة الخلافة يلي منصب "شيخ الإسلام"، كما تولى منصب مفتي الجيش العثماني الرابع...[٣].

وعندما تكشفت للدولة العثمانية مخاطر المشروع الصهيوني في فلسطين قامت بمحاربة الهجرة اليهودية إليها، ومنعت بيع الأراضي لليهود، وقامت سنة ١٨٨٧م بفصل سنجق القدس عن ولاية سورية، وأخضعته بصورة مباشرة للباب العالي من باب زيادة الاهتمام بفلسطين، وإفشال المخطط الصهيوني – الغربي للهجرة، والاستيطان اليهودي فيها[٤].

وكان للسلطان عبد الحميد موقفه المتسق تماماً مع الفكرة الإسلامية باعتبار أرض فلسطين جزءاً من أرض الإسلام والمسلمين المقدسة، التي لا يجوز التفريط بأي جزء منها. وعندما عرض مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل Theodor Herzl على السلطان عبد الحميد (عن طريق صديقه نيولنسكي Nevlenski) بيع فلسطين لليهود، أجابه السلطان بما يلي:

> إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي فأنصحه أن لا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد؛ لأنها ليست لي، بل لشعبي. ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منّا. لقد حاربت كتيبتنا في سورية وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد تلو الآخر في بلقنة؛ لأن أحداً منهم لم يرضَ بالتسليم، وفضلوا أن يموتوا في ساحة القتال. الإمبراطورية التركية ليست لي وإنما للشعب التركي، لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها. ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان[٥].

وتعددت محاولات هرتزل وعروضه السخية المختلفة دونما فائدة، ومات سنة ١٩٠٤م دون أن يحقق أهدافه، وهكذا ظلّ السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦–١٩٠٩م) عقبة في وجه المشاريع الصهيونية طيلة سنوات حكمه منطلقاً في ذلك من سياسته الإسلامية، ومن معرفته بحقيقة الأطماع الصهيونية، ويذكر عبد الحميد في مذكراته "وانتظم يهود العالم وسعوا –عن طريق المحافل الماسونية– في سبيل "الأرض الموعودة"... وجاؤوا إليَّ بعد فترة، وطلبوا مني أرضاً لتوطين اليهود في فلسطين مقابل أموال طائلة، وبالطبع رفضت"[٦]، وكان السلطان يعدّ نفسه أكبر أعدائهم[٧]، ويذكر أنه إذا ما سمح لليهود بالتوطن في فلسطين فإننا "نكون قد وقَّعنا قراراً بالموت على إخواننا في

الدين" ويقصد الفلسطينيين[٨]، ويؤكد الخلفية الإسلامية لارتباطه بفلسطين قائلاً: "لماذا نترك القدس؟... إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان، وستبقى كذلك فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية، لا بدّ أن تظل القدس لنا"[٩].

غير أن الدولة العثمانية التي كانت في أواخر عهدها، وقد اشتد فيها الفساد الإداري، واخترقتها المنظمات الماسونية والعلمانية لم تستطع أن تحقق أهدافها بالكامل في منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وانتقال الأراضي إلى اليهود، فكانت هناك مداخلات السفراء الأجانب الذين تمسكوا بالامتيازات الأجنبية، وأعاقت احتجاجاتهم تنفيذ قيود الهجرة اليهودية، وكان هناك ما عرف بـ"حزب البخشيش"!! المستشري في الجهاز الإداري، والذي كان يتحايل على القانون مقابل الرشاوي، ويسهل هجرة اليهود واستيطانهم[١٠]. وخلال الفترة ١٨٨١–١٩١٤م هاجر إلى فلسطين ٥٥ ألف يهودي من أصل ٢,٣٦٧ مليون من اليهود تركوا مواطنهم إلى أماكن أخرى في العالم، أي ما نسبته ٢,٣٪ من المجموع الكلي للمهاجرين[١١]، مما يدل على نجاح السلطات العثمانية إلى حدٍّ ما في الوقوف أمام حركة الهجرة اليهودية.

ومن المهم الإشارة إلى أن الدولة العثمانية فقدت الكثير من مصداقيتها الإسلامية خصوصاً بعد انقلاب حزب الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد ١٩٠٩م، وقد كان هذا الحزب الذي سيطر على تركيا فيما بعد معادياً للفكرة الإسلامية، منتهجاً سياسة التتريك، مُسيطراً عليه من قبل المحافل الماسونية التي يهيمن عليها اليهود، حتى إن الناس علقوا على الثورة التي أسقطت عبد الحميد بأنها ثورة يهودية أكثر منها تركية[١٢]، بل إن أحد الثلاثة الذين أوفدتهم جمعية الاتحاد والترقي لإبلاغ السلطان عبد الحميد قرار خلعه عن العرش كان يهودياً يدعى "قراصو"، وكان السلطان قد طرده من مجلسه في قصر "يلدز" حين حاول التأثير عليه لإسكان اليهود في فلسطين[١٣].

وقد ذكر السفير البريطاني في تركيا لوزير خارجيته في مذكرته التي رفعها إليه في آب/ أغسطس ١٩١٠م "إن لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً... إن اليهود الذين يبدون الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة..."[١٤].

بل إن السلطان عبد الحميد ذكر في رسالة إلى الشيخ محمود أبو الشامات في ١٩١١م أن سبب خلع الاتحاد والترقي له من السلطة هو إصرارهم عليه أن يصادق على تأسيس

وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، فرفض وذكر لهم أنهم لو دفعوا ملء الأرض ذهباً فلن يرضى بذلك[15].

وفضلاً عما سبق، فقد انتشرت المفاسد المنافية لأحكام الإسلام وآدابه كالملاهي والمراقص والحانات، والتعامل بالربا، فأصبح عامة الناس يرون حزب الاتحاد والترقي بعيداً عن الإسلام، وخارجاً عن تعاليمه، وحدثت ردود فعل معادية لهذه المفاسد في فلسطين وسورية[16].

ولذلك لم يكن غريباً أن تظهر حركات معادية لحكم الاتحاد والترقي في البلاد العربية، وطالب جُلُّها في البداية بالإصلاح ضمن الدولة العثمانية، ولكن عندما لم تتم الاستجابة لتلك المطالب قامت الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م، وأيدها الكثير من رجال الفكر والإصلاح[17].

وخلال الحرب العالمية الأولى فقدت الدولة العثمانية ما تبقى لها من أرض تحكمها في البلاد العربية (اليمن، الحجاز، العراق، الشام)، ثم أعلن كمال أتاتورك الجمهورية التركية سنة ١٩٢٣م، وأسقط الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م. وبذلك فقد المسلمون لأول مرة مظلة الخلافة الإسلامية، وتوزعت بلادهم على الدول الاستعمارية.

المؤامرة على فلسطين:

احتل البريطانيون الجزء الجنوبي من فلسطين (حتى خط يافا – القدس) في كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٧م، واحتلوا باقي فلسطين في أيلول/ سبتمبر ١٩١٨م، ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٩٤٨م ظلّت فلسطين واقعة تحت الاحتلال البريطاني، وقد دخل البريطانيون القدس في ١٩١٧/١٢/٩م، وهناك أعلن القائد البريطاني إدموند اللنبي Edmund Allenby في خطابه "اليوم انتهت الحروب الصليبية"[18]، وهو ما فعل مثله القائد الفرنسي هنري غورو Henri Gouraud الذي احتل سورية، ووقف على قبر صلاح الدين الأيوبي، وهو يقول بلهجة المنتشي المنتصر... "ها قد عدنا يا صلاح الدين"!!

وقد عاشت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني (١٩١٧–١٩٤٨م) مؤامرة رهيبة تنفيذاً لوعد بلفور Balfour حرصت فيها بريطانيا بكل ما تملك على تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود، فحرمت أهل فلسطين من حقوقهم السياسية، وضيقت عليهم سبل العيش والرزق، وشجعت الفساد، وعملت على تحقيق الانقسامات العائلية والطائفية،

وإشغال أهل فلسطين ببعضهم، ومن جهة أخرى شجعت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والاستيطان اليهودي، وشراء الأراضي، وساعدت على تسليح اليهود، وبناء المستعمرات، وسمحت ببناء المؤسسات اليهودية شبه الرسمية تهيئة لبناء دولتهم وإعلانها.

وقد قاوم أهل فلسطين هذه المؤامرة خلال هذه المرحلة بكل عزم وإصرار، وبذلوا عشرات الآلاف من الشهداء والجرحى، وقاموا بالثورة تلو الأخرى لتحطيم المشروع اليهودي الصهيوني، وإجلاء الاستعمار البريطاني، لكن المؤامرة كانت أكبر منهم بكثير، إذ شاركت فيها بكل قوة جميع القوى الدولية متضامنة مع الحركة الصهيونية العالمية التي تمكنت بما تملكه من نفوذ وإمكانات عظيمة في بقاع العالم من تسيير الأمور لصالحها في سبيل تكوين الدولة اليهودية على أرض فلسطين. ولم يستطع العالم العربي أو الإسلامي أن يوقف المؤامرة على فلسطين؛ لأنه هو أيضاً كان واقعاً تحت قبضة النفوذ الاستعماري بكافة أشكاله ودوله.

وهكذا، فَتَحْتَ الحراب البريطانية قامت حركة هجرة يهودية أدت إلى زيادة أعداد اليهود في فلسطين من حوالي ٥٥ ألفاً سنة ١٩١٨م إلى حوالي ٦٥٠ ألفاً سنة ١٩٤٨م[١٩]، غير أنهم على الرغم من كل الجهود لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على أكثر من ٦,٧٪ من أرض فلسطين قبيل اندلاع حرب فلسطين ١٩٤٧–١٩٤٨م[٢٠]، والتي أدت إلى انتصار القوات اليهودية الصهيونية على الجيوش العربية، وسيطرتها على أكثر من ٧٨٪ من أرض فلسطين، وإنشاء كيانهم الغاصب عليها[٢١].

ومنذ ظهور الخطر الصهيوني والعرب يتنادون إلى تحرير فلسطين تحت رايات الاشتراكية والقومية والشيوعية والعلمانية... بينما تتوالى على رؤوسهم الهزائم...، حتى لجأوا إلى الحلول السلمية، وقنعوا بالحصول ولو على أجزاء قليلة من أرض فلسطين المباركة...، ولكن أنظمة الحكم لم تتبنَ، ولو لمرة، بشكل جاد الراية الإسلامية والحل الإسلامي للقضية.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والمـاء فـوق ظهـورها محـمول

وعلى الرغم من وجود التيار الإسلامي على الساحة الفلسطينية والعربية، إلا أنه لم ينجح حتى الآن في الإمساك بدفة التوجيه السياسي والجهادي، ولا يكاد يعطى الفرصة لأي عمل جاد من شأنه دفع العمل باتجاه تحرير فلسطين. ولكن هذا لا ينفي أنه كان لهذا التيار دوره الرائد، وفق إمكاناته، في مواجهة الاحتلال البريطاني والمشروع الصهيوني منذ

١٩١٧م وحتى الآن. وإذا كان لنا أن نتحدث باختصار عن تجربة التيار الإسلامي خلال هذه الفترة، فإننا تسهيلاً على القارئ الكريم يمكن أن نجعل حديثنا وفق المراحل التالية:

أولاً: مرحلة الاحتلال البريطاني ١٩١٧-١٩٤٨م.

ثانياً: مرحلة المد القومي العربي ١٩٤٨-١٩٦٧م.

ثالثاً: مرحلة الثورة الفلسطينية وتنامي المد الإسلامي ١٩٦٧-١٩٨٧م.

رابعاً: مرحلة الانتفاضة المباركة والتسوية السلمية ١٩٨٧-١٩٩٦م.

أولاً: مرحلة الاحتلال البريطاني ١٩١٧-١٩٤٨م:

يمكن تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاث مراحل فرعية:

١. الفترة ١٩١٧-١٩٢٩م:

وخلالها كان التحرك الإسلامي تحركاً فردياً شعبياً، لم تظهر فيه حركات سلامية منظمة ذات منهجية محددة، إلا أن التأثير السياسي والاجتماعي للعلماء كان واضحاً وقوياً، كما أن المشاعر الشعبية الإسلامية كانت ما تزال عميقة في نفوس الشعب الفلسطيني، ولا يوجد هناك ما ينافسها، ولذلك فقد اكتسب التحرك الشعبي طبيعة إسلامية، وتميزت الانتفاضات التي وقعت في تلك المرحلة إما بطبيعتها الإسلامية الكاملة، وإما بعمق التأثير الإسلامي فيها.

فانتفاضة موسم النبي موسى في القدس ٤-١٩٢٠/٤/١٠م حدثت أثناء احتفالات المسلمين بهذا الموسم الديني، عندما لوَّث أحد اليهود أحد الأعلام الإسلامية لموكب الخليل، وكان للحاج أمين الحسيني دور كبير في تأجيج الانتفاضة.

وانتفاضة يافا في ١-١٩٢١/٥/١٥م كان من أسبابها السلوك الاستفزازي لليهود ضدّ دين وأخلاق وآداب المسلمين.

أما انتفاضة البراق ١٥-١٩٢٩/٨/٣٠م فقد كانت انتفاضة إسلامية شملت معظم مناطق فلسطين دفاعاً عن الحق الإسلامي في حائط البراق (الحائط الغربي للمسجد الأقصى)، والذي طالب اليهود بامتلاكه باعتباره حائط المبكى الذي يقدسونه، ويصلون عنده. وكان للحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، دوره البارز في تنظيم هذه الثورة من خلف الستار وبشكل غير معلن.

وقد ظهر خلال هذه الفترة مؤسسات إسلامية كان أبرزها المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى ١٩٢٢م برئاسة الحاج أمين الذي أخذ نجمه السياسي والإسلامي في البروز. كما ظهرت هيئات شعبية أبرزها جمعية الشبان المسلمين التي كان لها دورها في الحفاظ على مبادئ الإسلام، والتوعية العامة، والمطالبة بحقوق أبناء فلسطين[٢٢].

٢. الفترة ١٩٢٩–١٩٣٩م:

وخلالها ظهر التحرك الإسلامي الجهادي المنظم الذي كانت أبرز نماذجه حركة الشيخ المجاهد عز الدين القسام، والتي كان لها أكبر الأثر في الثورة الكبرى التي عمت فلسطين ١٩٣٦–١٩٣٩م. كما شهدت نزول الحاج أمين إلى ميدان قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية بشكل علني ومباشر، حيث فقد مناصبه الرسمية، وهرب من فلسطين سنة ١٩٣٧م، وتولى توجيه دفة الثورة الكبرى من لبنان.

جماعة القسام "الجهادية":

الشيخ عز الدين عبد القادر مصطفى القسام، من مواليد بلدة جبلة قضاء اللاذقية في سورية ١٨٨٢م، درس في الأزهر، وعاد ليكون أحد دعاة الإسلام النشيطين في بلدته في سورية، كان من قادة الثورة السورية ضدّ الفرنسيين خلال الفترة ١٩١٨–١٩٢٠م، وقد هرب إلى فلسطين بعد توقفها، واستقر في حيفا.

عرف الشيخ القسام بتقواه وورعه، وذكائه، وسعة علمه، وكان سلفي العقيدة، محارباً للانحرافات والبدع، قدوة في سلوكه وما يدعو إليه. وكان القسام شجاعاً جريئاً، ومن أكثر العلماء توقاً للجهاد، قال يوماً وهو على المنبر يخطب "رأيت شباناً يحملون المكانس لكنس الشوارع، هؤلاء مدعوون لحمل البنادق، ورأيت شباناً يحملون الفرشاة لمسح أحذية الأجانب، هؤلاء مدعوون لحمل المسدسات لقتل هؤلاء الأجانب".

ولقد كان القسام متفاعلاً مع الواقع، ذا شخصية اجتماعية منفتحة محببة، تحمل هموم الناس، وتشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ولأنه كان حسن السيرة والعشرة، ومحدثاً لبقاً وخطيباً بارعاً، قوي الحجة، ومتواضعاً بعيداً عن الغرور، فقد كان لذلك أثره في أن يكون ذا شعبية كبيرة.

وقد جعلته هذه الصفات، فضلاً عن رصيد تجربته الجهادية، مؤهلاً لأن يكون مؤسساً لتنظيم جهادي قوي له دوره المهم في تاريخ فلسطين الحديث المعاصر[٢٣].

تعود نشأة جماعة القسام إلى ١٩٢٥م عندما ابتدأ الشيخ عز الدين القسام في إنشاء تنظيم جهادي سري، يستمدُّ فهمه ومنهجه من الإسلام، ويعدّ الجهاد طريقاً وحيداً لإنقاذ فلسطين[٢٤]. وقد اعتبر إميل الغوري هذا التنظيم "أخطر منظمة سرية، وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، بل تاريخ الجهاد العربي الحديث"[٢٥]. وقد أطلق على هذا التنظيم اسم "المنظمة الجهادية"[٢٦]، ولكن غلب عليه بعد استشهاد القسام اسم جماعة القسام أو القساميون[٢٧]، وكان شعار التنظيم "هذا جهاد.. نصر أو استشهاد"[٢٨].

وكانت جماعة القسام لا تقبل أي عضو إلا بعد انتقاء وتمحيص، ولا يدخل في عضويتها إلا من كان "مؤمناً مستعداً أن يموت في سبيل بلاده" ومن أهل الدين والعقيدة الصحيحة[٢٩]، وقد استفاد القسام من وظيفته كإمام وخطيب لمسجد الاستقلال في حيفا منذ ١٩٢٥م، وكمأذون شرعي منذ ١٩٣٠م في الاتصال بالناس، وانتقاء العناصر المناسبة لجماعته. كما استفاد من رئاسته لفرع جمعية الشبان المسلمين في حيفا كغطاء مقبول لحركته ونشاطه وزياراته للقرى، وإنشاء فروع لهذه الجمعية في اللواء الشمالي، والتي أصبحت غطاءً مناسباً لإخوانه المجاهدين المحليين[٣٠]. وتشكلت القيادة الأولى للتنظيم القسامي سنة ١٩٢٨م وضمت بالإضافة إلى رئيسها القسام كلاً من العبد قاسم ومحمود زعرورة ومحمد الصالح الحمد وخليل محمد عيسى. وكان مركزها حيفا، وكانت القيادة جماعية ومسؤولة عن اتخاذ كافة القرارات المهمة[٣١]، وبلغ عدد أفراد الجماعة سنة ١٩٣٥م حوالي ٢٠٠ منتظم أكثرهم يشرف على حلقات توجيهية من الأنصار، الذين يصل عددهم إلى ٨٠٠[٣٢].

وقد أنشأ تنظيم القسام خمس وحدات متخصصة تضمنت وحدة لشراء السلاح، ووحدة للتدريب، ووحدة للتجسس على اليهود والإنجليز، وكان أفرادها بشكل عام ممن يشتغل في دوائر الحكومة وخصوصاً الشرطة، ورابعة للدعاية للثورة، وخامسة للاتصالات السياسية[٣٣]. أما ماليتها فقد اعتمدت على اشتراكات الأعضاء، وتبرعات الموثوقين[٣٤]، وكان من منهج التنظيم أن يتدرب جميع أفراده على حمل السلاح بحيث يكونون مستعدين لخوض معارك الجهاد عند إعلانها، وكان على كل عضو أن يدبر أمر تجهيز نفسه بالسلاح[٣٥]. ولم يكن حال أغلب الأعضاء ميسورة، إذ كانوا يكدون من أجل لقمة العيش، ومع ذلك "فقد منعوا أنفسهم الخبز من أجل ابتياع السلاح" ومن أجل أن يعتمدوا على أنفسهم في العمل والإعداد[٣٦].

ويبدو أن انتقال جماعة القسام إلى مرحلة التسليح والتدريب كان في أواخر ١٩٢٨م[٣٧]، وجاءت ثورة البراق في آب/ أغسطس ١٩٢٩م لتعزز الاتجاه العسكري لدى الجماعة، فأخذ القسام يسهم في عملية التدريب بنفسه، والتي شملت رحلات ليلية وحركات استطلاعية وتمارين على إصابة الهدف[٣٨]. وعندما أرادت الجماعة أن تعلن عن نفسها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٥م كانت تملك حسبما ذكر صبحي ياسين، وهو أحد أعضائها، ألف قطعة سلاح وقاعدة تسليح في منطقة اللاذقية[٣٩].

وعلى الرغم من أن جماعة القسام لم تعلن عن نفسها إلا في وقت متأخر، إلا أنها قامت بعدد من العمليات العسكرية، خصوصاً في الفترة ١٩٣٠–١٩٣٢م وقد بدت وكأنها عمليات فردية. يبدو أن هذه العمليات كانت من باب كسر حاجز الخوف لدى أفراد الجماعة، وجسّ النبض وردود الفعل لدى العرب والإنجليز واليهود، وربما كانت تعبيراً عن الحماس والتفاعل مع القضايا الوطنية، ومحاولة تصعيدها بما يتناسب وخطة الإعداد والتعبئة.

وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٥ أعلنت جماعة القسام "الجهادية" الجهاد، وقد توافق ذلك مع الازدياد الهائل في الهجرة والاستيطان، وتهريب السلاح لليهود، واشتداد المراقبة على القسام وإخوانه. وتلخصت خطة القسام في الخروج إلى القرى، وحضّ الناس على شراء السلاح، والاستعداد للثورة، وحشد العناصر المؤيدة للجماعة[٤٠]. وقد اختفى القسام وعدد من إخوانه في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر بعد أن باع بيته الوحيد في حيفا، وباع أصحابه حلي زوجاتهم وبعض أثاث بيوتهم ليوفروا الرصاص والبنادق[٤١].

وبعد فجر يوم ١٩٣٥/١١/٢٠م طوقت قوات كبيرة من الشرطة تقدر بـ ٤٠٠ رجل، معظمهم من الإنجليز، القسام وعشرة من إخوانه في أحراش (يعبد) عند قرية الشيخ زيد. وقد بدأت المعركة في الخامسة والنصف صباحاً، واستمرت أربع ساعات ونصف الساعة[٤٢]. وعندما لاحظ الشيخ القسام أن الإنجليز وضعوا الشرطة العربية في المقدمة أوصى رجاله "لا تقتلوا أبناءنا"[٤٣]، وصاح برجاله على مسمع من الشرطة العربية "إياكم ومقابلة رصاص الجنود [الشرطة] العرب بمثله فإنهم مساكين ولا يدرون ماذا نصنع ولا ما يصنعون، ولكن عليكم بالإنكليز"[٤٤]. وحسب المصادر العربية فقد خسر الإنجليز ١٥ رجلاً[٤٥]، لكن التقارير البريطانية أشارت إلى مقتل شرطي واحد يدعى

موت Mott وجرح العريف ريدر Reader في يده[٤٦]. أما جماعة القسام فقد استشهد في هذه المعركة الشيخ عز الدين القسام ويوسف الزيباوي ومحمد حنفي المصري، وقبض على نمر السعدي وأسعد المفلح اللذين أصيبا بجراح، كما قبض على عربي بدوي ومحمد يوسف وأحمد جابر وحسن الباير[٤٧].

وقد أحدث مقتل القسام ورفاقه هزة كبرى في فلسطين، وخرج في جنازتهم حوالي ٣٠ ألفاً جاؤوا إلى حيفا من مختلف أنحاء فلسطين. وقد بلغ الحماس في الجنازة مداه، وترددت صيحات الانتقام، فهاجم المشاركون دائرة الشرطة بالحجارة والطوب، وكسروا زجاج نوافذها، وحطموا باب الدائرة وثلاث سيارات للشرطة. وعندما حضرت قوة من الشرطة البريطانية المدججين بالسلاح ثارت الجموع، ودخلت معهم في صدام، ووقع قائدهم على الأرض، وجرح اثنان، وانسحب البريطانيون بسرعة[٤٨]. ولولا أن السلطة سحبت "عساكرها" من وجه الجنازة لوقعت الثورة الكبرى في فلسطين قبل موعدها بخمسة أشهر على حدّ تعبير صبحي ياسين[٤٩].

وقد أحدث مقتل القسام تغييراً أساسياً في مسار الحركة الوطنية الفلسطينية، فقد كرس بديل الجهاد بعد سنوات طويلة من الحركة السياسية غير المجدية، وألهبت حركته، و"تضحيته" الحماس، و"صارت مثلاً رائعاً للجرأة والجهاد العلني ضدّ الإنجليز"[٥٠]، "وقامت البلاد وقعدت واهتزت أيما اهتزاز، وزلزلت أيما زلزال، ومن ذلك الحين اشتدت كراهية العرب لحكومة الانتداب، وأخذت تظهر هذه الكراهية بأشكال عنيفة"[٥١]. وأطلق شعب فلسطين على القسام اسم "أبو الوطنية"[٥٢]، وقد شعر الزعماء السياسيون العرب في فلسطين بحدة المأزق الذي وضعوا فيه، فقد أوضح المندوب السامي في رسالة له إلى وزير المستعمرات في ١٩٣٥/١٢/٧م ما أحدثه مقتل القسام ورفاقه من أثر كبير. وقال المندوب: إن زعماء الأحزاب العربية الخمسة قد اجتمعوا به يوم ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر وأخبروه أنهم ما لم يتلقوا على مذكرتهم رداً يمكن اعتباره بشكل عام مرضياً لمطالبهم فإنهم "سيفقدون كل تأثير على أتباعهم، وستسود الآراء المتطرفة واللامسؤولة، وسيتدهور الوضع السياسي بسرعة"[٥٣].

وهكذا فإن القسام كان محقاً عندما قال قبل ابتداء المعركة: إنه وإخوانه عبارة عن عود ثقاب سيشعل الثورة في البلاد[٥٤].

منظمة الجهاد المقدس:

ومن الجدير بالذكر، أن تنظيم جماعة القسام لم يكن هو التنظيم الثوري الوحيد في النصف الأول من الثلاثينيات، فقد تشكلت تنظيمات سرية أخرى للغرض نفسه، وإن لم يظهر أثر واضح لنشاطها في تلك الفترة، ولكنها أسهمت في تكوين أرضية مناسبة للثورة الكبرى ١٩٣٦م. فقد تشكلت، حسبما يذكر أميل الغوري، "منظمة المقاومة والجهاد" سنة ١٩٣٤م برئاسة عبد القادر الحسيني، وكان مركزها القدس، ووصل أعضاؤها إلى ٤٠٠ عضو موزعين على ١٧ فرعاً. وأضاف الغوري أن الحاج أمين الحسيني التقى في صيف ١٩٣٥م عبد القادر وزملاءه المسؤولين ودعاهم لتوحيد جهودهم مع جهوده السرية التي كان يعدها، وأنه نتيجة ذلك تشكلت "منظمة الجهاد المقدس" برعاية المفتي وتحت إشرافه[٥٥].

الثورة الفلسطينية الكبرى:

اكتسبت الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦–١٩٣٩م) طبيعة إسلامية واضحة، فالشعب الفلسطيني الذي عرف بعمق ارتباطه بالإسلام عبر عن ثورته ومشاعره من خلال الصياغات الإسلامية ومفهوم الجهاد.

ومن البيانات التي تعبر بعمق عن التوجه الإسلامي للثورة، ذلك البيان الذي أصدرته قيادة الثورة العامة في فلسطين ١٩٣٨م، والذي جاء فيه:

> إن المجاهدين قد باعوا أنفسهم لله، وخرجوا في طاعته، لم يخرجوا إلا ابتغاء وجهه، والجهاد في سبيله والفوز بمثوبته، واكتساب مرضاته، لا يرضون بذلك بديلاً ولا يبغون عنها حولاً، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، وهم يتسابقون إلى ميدان الجهاد والشهادة انتصاراً للحق وإقامة للعدل ودفاعاً عن أمتهم الكريمة وبلادهم المقدسة، فقد فارقوا في سبيل ذلك أهلهم، وتركوا أموالهم، وعطلوا مصالحهم.
>
> ومن كان هذا حالهم، وكان كل مبتغاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة مِن الله لا مِن سواه، حاشا لله أن يفسدوا في الأرض...
>
> ... ونحن ماضون في هذا السبيل إن شاء الله إلى أن يكتب النصر لهذه الأمة، أو يأتي الله بأمر من عنده ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾، والله ولينا وهو نِعم المولى ونِعم النصير[٥٦].

وأظهرت دراسة إحصائية[57] في بيانات وتقارير الثورة الكبرى شملت ١٥٤ وثيقة أنه كان للإسلام ورجاله ورموزه النصيب الأكبر من أسماء الفصائل، كما أن طريقة كتابة البيانات والتقارير العسكرية تميزت بطابعها الإسلامي العام، فهي عادة تبدأ بالبسملة، وتحتها أحياناً آية ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ وأحياناً ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾، وإلى جانبها أحياناً "الله أكبر". وكان قادة الثورة يوقعون بياناتهم بألفاظ "المتوكل على الله" أو "خادم دينه ووطنه" أو "المعتصم بالله" أو "المعتز بالله"، أما الأختام فكان ختم ديوان الثورة يتضمن أعلاه لفظة "الله أكبر" وتحتها هلال بداخله آية ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾. أما مناطق العمليات فقد تركزت في شمال فلسطين ولواء نابلس حيث كان الوجود القسامي كثيفاً.

أما جماعة القسام فقد كان لها شرف تفجير الثورة في عملية عنبتا – نور الشمس في ١٩٣٦/٤/١٥م والتي قادها القائد الجديد للجماعة الشيخ فرحان السعدي. كما كان لها شرف تفجير المرحلة الثانية من الثورة عندما قامت في ١٩٣٧/٩/٢٦م باغتيال لويس أندروز Lewis Yelland Andrews الحاكم البريطاني لمنطقة الجليل.

وأسهم القساميون في تنظيم وقيادة الثورة، فشارك ثلاثة منهم (من أصل ستة) في عضوية القيادة العسكرية والتي اختارت في ١٩٣٦/٩/٢م فوزي القاوقجي قائداً عاماً للثورة الذي استمر في القيادة حتى نهاية المرحلة الأولى من الثورة في ١٩٣٦/١٠/١٢م.

أما في المرحلة الثانية من الثورة فقد اشتهر عبد الرحيم الحاج محمد، وكان معروفاً بتقواه وتدينه، كقائد عام للثورة حتى استشهد رحمه الله في ١٩٣٩/٣/٢٦م.

وقد تولى قيادة الثورة في شمال فلسطين القائد القسامي أبو إبراهيم الكبير، وكان معظم قيادته من الحركة القسامية (أبو محمود الصفوري، وسليمان عبد الجبار، وعبد الله الأصبح، وتوفيق الإبراهيم، وعبد الله الشاعر... وغيرهم). وفي منطقة لواء نابلس المقسمة لأربعة أقسام كان هناك قائدان قساميان بارزان هما: الشيخ عطية أحمد عوض والذي خلفه في منطقته الشيخ القسامي يوسف أبو درة، والشيخ محمد الصالح الحمد (أبو خالد) والذي خلفه في منطقته الشيخ القسامي عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى. هذا بالإضافة إلى منطقة يقودها عبد الرحيم الحاج محمد، وأخرى يقودها عارف عبد الرازق.

وتولى قيادة منطقة القدس المجاهد عبد القادر الحسيني، وقاد منطقة اللد الشيخ حسن سلامة، أما منطقة الخليل فقادها عيسى البطاط ثم عبد الحليم الجولاني.

وكان للحاج أمين الحسيني دور رائد في تنظيم وتمويل وتوجيه الثورة بشكل غير معلن في مرحلتها الأولى ثم مباشرة في مرحلتها الثانية[٥٨].

وقد هزت هذه الثورة الوجود البريطاني في فلسطين، واستطاعت أن تسيطر على الريف الفلسطيني وعدد من المدن، خصوصاً في صيف ١٩٣٨، ونفذت آلاف العمليات العسكرية، وأقامت لنفسها مراكز قيادة ميدانية، ومحاكم تحكم بين الناس بكتاب الله وسنة رسوله... . ولم تستطع بريطانيا القضاء على الثورة إلا بعد أن استعانت بسدس جيشها الإمبراطوري الذي كان يهيمن على عشرات من دول ومناطق العالم بما فيها القارة الهندية، وبعد أن استدعت أفضل قادتها العسكريين أمثال ديل Dill وويفل Wavell وهاينينغ Haining ومونتغمري Montgomery وباركر Parker وغيرهم، وبعد أن أعادت احتلال أرض فلسطين جزءاً جزءاً في حرب شرسة استخدمت فيها كافة الوسائل والتقنيات العسكرية المتطورة والطيران والدبابات، فضلاً عن قمعها العنيف لكافة أنصار الثورة (كل الفلسطينيين) المدنيين[٥٩].

٣. الفترة الممتدة بين ١٩٣٩–١٩٤٨م:

مرّ شعب فلسطين في هذه الفترة بجو عصيب تبع خروجهم وهم في حالة إنهاك نتيجة الثورة الكبرى، ودخول العالم في مرحلة الحرب العالمية الثانية، التي انتهت ١٩٤٥م. كما شهدت هذه الفترة نمو النفوذ اليهودي الصهيوني العالمي، واتساع المؤامرة الدولية على فلسطين، وتولي الأنظمة العربية أمر قضية فلسطين مع إضعاف وتهميش الدور الفلسطيني ممثلاً في الحاج أمين والهيئة العربية العليا.

ومن ناحية التيار الإسلامي فقد شهدت هذه الفترة ظهور حركة الإخوان المسلمين في فلسطين، والتي شاركت بما تملك من جهود ووسائل محدودة في مواجهة الخطر الصهيوني والاستعمار البريطاني.

الإخوان المسلمون:

إن الحديث عن جماعة الإخوان المسلمين لا يكتسب أهميته فقط من دورها الذي أدَّته في فترة ١٩٣٩–١٩٤٨م في فلسطين، وإنما لأن تيار الإخوان المسلمين أصبح هو التيار الإسلامي الرئيس في أوساط الفلسطينيين داخل وخارج الأرض المحتلة إلى وقتنا الحاضر.

أسس الشيخ حسن البنا جماعة "الإخوان المسلمين" في آذار/ مارس ١٩٢٨م في مدينة الإسماعيلية بمصر[٦٠]. وقد هدفت هذه الجماعة إلى إحياء معاني الإسلام الصحيحة في النفوس، والالتزام بتعاليمه عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة، وبناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار بكافة أشكاله، وإقامة الخلافة الإسلامية الواحدة على بلاد المسلمين، والتقدم لسيادة وأستاذية العالم[٦١]. واعتبرت الجماعة نفسها، وفق المفهوم الشامل للإسلام، "دعوة سلفية... وطريقة سنية... وحقيقة صوفية... وهيئة سياسية... وجماعة رياضية... ورابطة علمية ثقافية... وشركة اقتصادية... وفكرة اجتماعية"[٦٢].

بدأ اهتمام جماعة الإخوان المسلمين في مصر بفلسطين مبكراً، غير أنه برز أثناء الثورة الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩م عبر الدعاية والإعلام والمظاهرات وجمع التبرعات. وكانت أولى الإشارات لما بدأ الإخوان نشر دعوتهم في فلسطين في آب/ أغسطس ١٩٣٥م، عندما زارها عبد الرحمن الساعاتي ومحمد أسعد الحكيم، وهناك لقيا ترحيباً من الحاج أمين، حيث قاما بنشر دعوتهم[٦٣]. وخلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) زادت زيارات الإخوان لفلسطين، وأخذ عدد من أبناء فلسطين ينضمون للإخوان، غير أن تشكيل فروع للإخوان لم يتم، على ما يظهر، إلا بعد انتهاء الحرب، حيث خفت ظروف القهر والتشديد البريطاني، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية. ويبدو أن أول فروع الإخوان إنشاءً كان فرع غزة برئاسة الحاج ظافر الشوا، ثم تأسس فرع يافا برئاسة ظافر الدجاني، أما فرع القدس فقد شهد حفل افتتاح مميز في ١٩٤٦/٥/٥م حضره الزعيم الفلسطيني جمال الحسيني، وأنشئ فرع حيفا برئاسة الشيخ عبد الرحمن مراد، وتتابع إنشاء الفروع في قلقيلية واللد ونابلس، وطولكرم، والمجدل، وسلواد، والخليل حتى زادت الفروع عن عشرين فرعاً[٦٤].

وقد نشطت جماعة الإخوان في فلسطين في مجالات الدعوة والتربية والتوعية الإسلامية، والتعريف بالخطر الصهيوني، والمؤامرة على فلسطين، والتعبئة للجهاد. ودلت القرارات الصادرة عن مؤتمراتهم العامة (حيفا، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦م)، (حيفا، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧م) على قوتها ومتابعتها للأحداث السياسية ومضمونها الجهادي[٦٥].

شارك الإخوان المسلمون الفلسطينيون في الجهاد عندما اندلعت حرب ١٩٤٧-١٩٤٨م، إلا أن حداثة تنظيمهم وعدم نموه واستقراره بشكل مناسب وقوي جعلت مشاركتهم محصورة ضمن قدراتهم المحدودة وإمكاناتهم المتواضعة.

ومع ذلك فقد شكلت شُعب الإخوان في فلسطين قوات غير نظامية منذ بداية الحرب عملت في أماكن استقرارها في الشمال والوسط تحت القيادات العربية المحلية هناك (التي تتبع جيش الإنقاذ أو جيش الجهاد المقدس)، وقد قامت بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم على الرغم من الضعف الشديد الذي كانت تعانيه سواء في التسليح أو التدريب[٦٦]. ولذلك لا نجد ذكراً رسمياً لدور الإخوان في هذه المناطق بشكل عام، أما في المناطق الجنوبية وخصوصاً غزة وبئر السبع فقد انضم العديد من إخوان فلسطين إلى قوات الإخوان (المصرية) الحرة بقيادة كامل الشريف، وشاركوا بقوة وفاعلية في معارك فلسطين هناك، ويذكر كامل الشريف أن قوات الإخوان المصريين الحرة كان معدل عددها ٢٠٠ مجاهد في مناطق جنوب فلسطين، وأنه كان يشاركها الجهاد حوالي ٨٠٠ مجاهد آخر من أبناء فلسطين تحت قيادتها، حيث إن كثيراً منهم تأثروا بفكر الإخوان المسلمين وأصبحوا منهم[٦٧].

وكانت أنشط شُعب الإخوان مشاركة في الجهاد شعبة الإخوان المسلمين في يافا، وقد كان هناك "تنظيم عسكري سري خاص" ضمن أعضاء الإخوان في يافا، شارك فيه عدد محدود من الإخوان ممن يصلحون لهذا العمل، ولم يكن باقي الإخوان أعضاء فيه، أو يعلمون شيئاً عنه، وقد ظهر نشاطه الجهادي في بداية الحرب[٦٨].

وعندما تشكلت لجنة قومية في يافا مع بدء الحرب شارك ضمن قيادتها ممثل عن الإخوان المسلمين وهو رئيس الفرع هناك "ظافر راغب الدجاني"، وقد ألفت هذه اللجنة لجاناً عديدة لتعنى بمختلف الشؤون في المدينة، وقد أسندت مهمة إدارة اللجنة الاقتصادية لظافر الدجاني الذي كان يشغل أيضاً رئاسة الغرفة التجارية في المدينة[٦٩].

وعندما جاء كامل الشريف إلى منطقة يافا مع سرية من شباب الجامعات، تولى هو قيادة مجاهدي الإخوان حيث تجمع تحت قيادته حوالي مئة مجاهد[٧٠]، وتولى كامل الشريف قيادة منطقة في يافا اسمها "كرم التوت" وتقع بين يافا وتل أبيب، حيث تقع معارك يومية بين المجاهدين واليهود، كما شارك الإخوان المجاهدون في الهجوم على مستعمرة بتاح تكفاه، ثم ما لبث كامل الشريف أن انتقل إلى منطقة النقب[٧١].

ويذكر عارف العارف أنه كان للإخوان المسلمين في يافا قوات متحركة يبلغ عددها ثلاثين مجاهداً بقيادة حسن عبد الفتاح والحاج أحمد دولة، وكان عندهم ثلاثين بندقية ورشاش و٢ ستن، وقد كانوا يهبون لنجدة المواقع كلما دعت الحاجة[٧٢].

ويقول يوسف عميرة: إن الإخوان تولوا أثناء الحرب الدفاع عن مناطق البصة وتل الريش والعجمي والنزهة في يافا، بالإضافة إلى المحافظة على الأمن داخل البلد، كما يؤكد على الدور المشرف الذي قام به الإخوان في يافا، حيث كان الالتزام بالإسلام من سماتهم، وكان الدفاع والقتال عن إيمان بالله[٧٣].

وفي منطقة القدس شارك إخوان فلسطين في القتال مع إخوانهم القادمين من البلاد العربية، أو مع قوات الجهاد المقدس.

أما الإخوان المسلمون المصريون[٧٤]، ففضلاً عن دورهم الكبير في التعبئة الإعلامية وجمع التبرعات والأسلحة، فقد أبدوا استعدادهم الجاد قبل بدء المعارك بإرسال دفعة أولى من عشرة آلاف مجاهد إلى فلسطين (وهي أكبر من بعض الجيوش العربية) حيث أبرق بذلك الشيخ البنا إلى جامعة الدول العربية في ١٩٤٧/١٠/٩م، وتقدم فوراً إلى الحكومة المصرية بطلب السماح لفوج من هؤلاء باجتياز الحدود، ولكنها رفضت. وأخذ الإخوان يجهزون المجموعات ويرسلونها، ولكن الحكومة كانت تضيِّق عليهم حتى إنهم اضطروا للتحايل (بعمل رحلة علمية إلى سيناء...) لينطلقوا بعد ذلك إلى فلسطين.

ولما اشتد الضغط على الحكومة المصرية سمحت للمتطوعين بالمشاركة في القتال تحت راية الجامعة العربية حيث تدربوا في معسكر "هاكستب" وكان يشرف على حركة التطوع محمود لبيب وكيل الإخوان للشؤون العسكرية، وتألفت ثلاث كتائب من المتطوعين يقدر عددها بـ ٦٠٠ مقاتل نصفهم تقريباً من الإخوان المسلمين، وقد طبعوا هذه الكتائب بطابعهم الخاص، وكان أبرز قادة هذه الكتائب أحمد عبد العزيز وعبد الجواد طبالة.

ولم يكفِ معسكر هاكستب لاستيعاب المتطوعين، إذ إن المتطوعين كانوا عشرات الأضعاف بالنسبة للمشاركين، فأرسل الإخوان مئة من أفرادهم ليتدربوا في معسكر "قطنا" في سورية، وهم كل ما استطاع المركز العام للإخوان أن يقنع الحكومة المصرية بقبوله.

قام الإخوان المسلمون بدور مشرف في حرب فلسطين اعترف لهم به كل من كتب عن هذه الحرب، وكان لهم دور مشهود في جنوب فلسطين في مناطق غزة ورفح وبئر السبع، حيث كانوا يهاجمون المستعمرات، ويقطعون مواصلات اليهود الصهاينة، ومن أبرز المعارك التي شاركوا فيها هناك معركة التبة ٨٦ التي يذكر العسكريون أنها هي التي

حفظت قطاع غزة عربياً، ومعركة كفار ديروم، واحتلال مستعمرة ياد مردخاي وغيرها، كما أسهموا بدور مهم في تخفيف الحصار عن القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا.

كما أن للإخوان المصريين مشاركتهم الفعالة في معارك القدس وبيت لحم والخليل وخصوصاً صور باهر، وكان من أبرز المعارك التي شاركوا فيها في تلك المناطق معركة رامات راحيل، واسترجاع مار الياس، وتدمير برج مستعمرة تل بيوت قرب بيت لحم، والدفاع عن "تبة اليمن" التي سمي تبة الإخوان المسلمين، نظراً للبطولة التي أبدوها... وغيرها.

وقد استشهد من إخوان مصر في معارك فلسطين حوالي مئة، وجرح نحو ذلك وأسر بعضهم، وكانت وطأة الإخوان شديدة على اليهود الصهاينة. وقد سئل موشيه ديان Moshe Dayan بعد الحرب بقليل عن السبب الذي من أجله تجنب اليهود محاربة المتطوعين في بيت لحم والخليل والقدس فأجاب "إن الفدائيين يحاربون بعقيدة أقوى من عقيدتنا... إنهم يريدون أن يستشهدوا ونحن نريد أن نبني أمة، وقد جربنا قتالهم فكبدونا خسائر فادحة... ولذا فنحن نحاول قدر الإمكان أن نتجنب الاشتباك معهم".

وقام الإخوان السوريون[75] بدور مشهود خصوصاً في معارك منطقة القدس، وقد تدربت كتيبة الإخوان السوريين في "قطنا" ثم سافرت إلى منطقة القدس، وقد شارك من الإخوان السوريين حوالي مئة أخ، بقيادة المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية الدكتور مصطفى السباعي، وقد اشتركوا ببسالة في معارك القدس مثل معركة باب الخليل التي أصيب فيها ٣٥ منهم بجراح، وكان النصر معقوداً فيها للمجاهدين، ومعركة القسطل، حيث شارك فوجٌ منهم فيه عبد القادر الحسيني، ومعركة الحي القديم في القدس، ومعركة القطمون، ونسف الكنيس اليهودي الذي اتخذه اليهود مقراً حربياً وغيرها.

وقد تفاعل الأردنيون[76]، مع حرب فلسطين، وشكل الإخوان المسلمون هناك لجنة لجمع التبرعات والمساعدات، كما فتحوا باب التطوع للمشاركة في الجهاد، وكان تجاوب الناس رائعاً، فيذكر الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة أنه عندما فتح باب التطوع في شعبة السلط سجَّل أكثر من ثلاثة آلاف شخص أنفسهم.

وتكونت من إخوان منطقة عمّان وما حولها سرية متطوعين تضم نحو ١٢٠ مجاهداً من الإخوان المسلمين، وسميت باسم سرية أبي عبيدة، وقد تولى قيادتها التنظيمية

الإخوانية الحاج عبد اللطيف أبو قورة المراقب العام للإخوان المسلمين في الأردن في تلك الفترة، أما قيادتها العسكرية فقد تولاها الملازم المتقاعد ممدوح الصرايرة، وقد دخلت فلسطين في ١٩٤٨/٤/١٤م وتمركزت في عين كارم وصور باهر. وقد خاضت هذه السرية عدة معارك واستشهد عدد من أفرادها مثل سالم المسلم وبشير سلطان.

وفي إربد تولى مسؤول شعبة الإخوان هناك السيد أحمد محمد الخطيب قيادة الإخوان فيها في حرب فلسطين، وبلغ مجموع من شارك معه في الجهاد من إخوان إربد وأهلها المتطوعين حوالي مئة مجاهد بحيث كان يشترك في المعركة الواحدة من ٢٠–٢٥ مجاهداً.

أما في العراق فبعد أسبوع واحد من قرار التقسيم أسهم الإخوان المسلمون في العراق[٧٧] بقيادة الشيخ محمد محمود الصواف بشكل فعال في تأليف "جمعية إنقاذ فلسطين" في بغداد، ولقد لبى نداء التطوع ١٥ ألفاً معظمهم ممن تدرب في الجندية أو الشرطة، وكان للإخوان المسلمين في تلك الفترة دور أساس في تعبئة الجماهير للجهاد، وكانوا على رأس المظاهرات التي خرجت للتنديد بقرار تقسيم فلسطين والتي اشترك فيها ٢٠٠ ألف عراقي في بغداد.

وتألف من المتطوعين للجهاد فوجا الحسين والقادسية وسرية المغاوير وغيرها، وكلما تدرب فريق منهم كانت الجمعية ترسله إلى اللجنة العسكرية في دمشق. وفي ١٩٤٨/١/٧م وصلت أول سرية مغاوير إلى دمشق، وبعد أسبوع وصل فوجان آخران مع السلاح والعتاد، وبينما كانت الجمعية تستعد لإرسال فوج جديد تلقت إنذاراً من اللجنة العسكرية بأن تكفَّ عن إرسال المتطوعين حتى إشعار آخر!! كما أشار صالح جبر (بعد أن وقع معاهدة بورتسموث Portsmouth treaty of 1948) بعدم إرسال أكثر من ٥٠٠ متطوع، كما أن طه الهاشمي قال لرئيس الجميعة: "إذا أرسلتم مدداً آخر من المتطوعين أعدتهم إلى بغداد على نفقة الجمعية!!" فاكتفت الجمعية بعد ذلك بإرسال التبرعات، وقد كان الإخوان من أبرز وأنشط عناصر هذه الجمعية، وقد وصلت كتيبتا "الحسين" و"القادسية" من متطوعي العراق (كل واحدة تتكون من ٣٦٠ مقاتلاً) إلى فلسطين في آذار/ مارس ١٩٤٨م.

كما شارك ضمن الأفواج التي ذهبت للجهاد الكثير من "إخوان" العراق الذين قاتلوا ضمن قوات جيش الإنقاذ، ورأوا الكثير من تخاذل وضعف وسوء إدارة قيادته، وعلى رأسه فوزي القاوقجي، إلا أنهم بذلوا ما استطاعوا في المعارك التي شاركوا فيها خصوصاً في شمال فلسطين.

القساميون سنة ١٩٤٨م:

عندما أعلنت الحرب ١٩٤٧–١٩٤٨م عاد القساميون[٧٨] للمشاركة في ميادين الجهاد من جديد، وقد عمل معظمهم تحت توجيه الحاج أمين الحسيني ضمن جيش الجهاد المقدس، أو مع جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي.

وقد ظلّ القساميون يعملون بالذات في مناطق الشمال كأبي إبراهيم الكبير وأبي إبراهيم الصغير، وأبي محمود الصفوري، وسرور برهم، ولكن هذه المرة لم يكونوا هم القيادات الموجهة المسيطرة المحركة للوضع، وإنما كانوا تابعين لقيادات أعلى، كثيراً ما وضعتهم في ظروف صعبة، بحيث لم يتمكنوا من أداء واجبهم كما يشاؤون.

شارك أبو إبراهيم الكبير ضمن قيادة فوج اليرموك الثاني التابع لجيش الإنقاذ، والذي كان يتولى قيادته أديب الشيشكلي. وقد قاد أبو إبراهيم ضمن أعمال هذا الفوج "معركة جدين" في الشمال، وبلغت خسائر اليهود ١٢٠ قتيلاً وجريحاً، واستشهد من العرب تسعة وجرح ستة.

وتولى أبو إبراهيم الصغير العمل في منطقة الناصرة، وكان تحت إمرته ٢٠٠ مسلح، وكان يتبع في عمله جيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني وتوجيه ورعاية الحاج أمين الحسيني. كما أبلى أبو محمود الصفوري بلاءً حسناً في معارك الشمال، وتولى الدفاع عن بلدة شفا عمرو مع خمسين جندياً من قوات الجهاد المقدس، واستشهد سرور برهم الذي تولى مسؤولية مساعد قائد حامية حيفا عندما حوصر وعدد من إخوانه المجاهدين فرفض التسليم وفجر السيارة التي تحمل الذخيرة، مما أدى لمقتل أكثر من خمسين يهودياً واستشهاد ١٤ مجاهداً منهم سرور برهم نفسه.

قوات الجهاد المقدس:

أما قوات الجهاد المقدس[٧٩] التي تولى قيادتها عبد القادر الحسيني ورعاها الحاج أمين فقد جندت في صفوفها أعداداً كبيرة من أهل فلسطين، وخاضت معارك مهمة وعديدة في مناطق فلسطين، وخصوصاً في منطقة القدس مثل عمليات شارع بن يهودا، والبالستاين بوست، وهاسوليل، والمنتفيوري، والوكالة اليهودية... .

ومن أشهر المعارك التي خاضتها قوات الجهاد المقدس معركة القسطل، وكان عبد القادر الحسيني قد طلب مساعدة اللجنة العسكرية للجامعة العربية بالسلاح لاسترداد القسطل دونما فائدة فخرج من عند رئيسها وهو يقول بصوت مرتفع: "أنتم

خائنون... أنتم مجرمون، سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين، سأحتل القسطل وسأموت أنا وجميع إخواني المجاهدين"...، وغادر المكان وهو يقول لصديقه قاسم الريماوي "هيا نرجع إلى فلسطين كي نموت فيها الميتة التي وضعناها نصب أعيننا، هيا نستشهد أو ننتصر على الأعداء، ولنذكر قوله تعالى ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾". وفي ١٩٤٨/٤/٨م انتصر عبد القادر ورفاقه في معركة القسطل وحرروها، بعد أن قتلوا حوالي ٣٥٠ يهودياً، واستشهد قائد قوات الجهاد المقدس عبد القادر الحسيني في هذه المعركة...

الحاج أمين الحسيني:

وقبل أن نطوي صفحة الاحتلال البريطاني لا بدّ من وقفة مع الحاج أمين الحسيني[٨٠] الذي كان من أبرز شخصيات التيار الإسلامي (١٩١٧–١٩٤٨م)، والذي يرجع نسبه إلى إحدى أكبر عائلات فلسطين وأكثرها نفوذاً، وقد تولى منصب المفتي الأكبر (مفتي القدس)، ثم تولى رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وأخذ يبرز شيئاً فشيئاً حتى صار الشخصية الأولى في فلسطين، وخصوصاً في مرحلة الثلاثينيات والأربعينيات. وقد أكسب البعد الإسلامي الواضح في شخصيته قضية فلسطين بعداً إسلامياً عالمياً، وأسهم إلى حدٍّ كبير في الدعاية للقضية الفلسطينية في العالم الإسلامي، كما أثر عبر المجلس الإسلامي الأعلى في استخدام منابر المساجد لخدمة القضية وتوعية الناس، ومواجهة اليهود الصهاينة والاستعمار البريطاني، وكانت المساجد في تلك الفترة منابر إشعاع وطنية ومراكز تجميع وانطلاق شعبي للتظاهرات والثورات الفلسطينية. وقد بلغ الحاج أمين أوج زعامته الإسلامية عندما رأس المؤتمر الإسلامي العام لسنة ١٩٣١م، والذي شارك فيه ٢٢ بلداً إسلامياً، إلا أن تأثيره في أحداث فلسطين ما لبث أن ضعف بعد الحرب العالمية الثانية عندما تولت الدول العربية الأمر وأخذت تتجاوزه وتتجاهله، وتصطدم به فيما يتعلق بقضية فلسطين حتى نهاية الحرب ١٩٤٨م.

وكان لارتباط الحاج أمين بالمنصب (١٩٢٠–١٩٣٧م) أثره في حصر تحركه المعلن ضمن إطار لا ترفضه السلطات البريطانية، ونتيجة لذلك أخذ الجانب الإعلامي والدعائي والاجتماعي والسياسي القسط الأكبر من نشاطه بحيث كان يمكن أن يبذل جهداً مضاعفاً في الجانب العسكري والجهادي لو تخلى عن المنصب. ثم إن زعامته لجميع أهل فلسطين بمختلف اتجاهاتهم وطوائفهم جعلته يعطي مرونة أكبر في استيعابه لجميع

الأطراف، مما أثر بشكل سلبي على وجود منهجية إسلامية حركية جهادية تعتمد التربية والتركيز في أعماله.

وإذا كانت العديد من الدلائل تشير إلى دور أساسي، غير معلن، للحاج أمين في تنظيم وتنفيذ بعض الانتفاضات، وإنشاء التنظيمات السرية الجهادية، فإن دوره الجهادي المعلن قد برز في المرحلة التالية من الثورة الكبرى وما تلاها، وكان رئيساً للهيئة العربية العليا التي تشكلت سنة ١٩٤٦م كممثل لعرب فلسطين، وأسهمت وفق إمكاناتها المحدودة في الدفاع عن أرض فلسطين.

ثانياً: مرحلة المد القومي العربي ١٩٤٩-١٩٦٧م:

شهدت هذه المرحلة غلبة الفكر القومي العربي ونمو الاتجاه الاشتراكي على الساحة العربية، وبرز دور مصر في عهد عبد الناصر فيما يتعلق بفلسطين، بينما لم تكن الهوية الوطنية الفلسطينية قوية بما يكفي لبروزها وانتشارها. أما التيار الإسلامي فقد عانى كثيراً من الحرب والتضييق، خصوصاً في مصر وانحسر دوره السياسي والشعبي في البلاد العربية، وشهدت هذه المرحلة أفول نجم الحاج أمين الحسيني، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤م. وانتهت المرحلة بهزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٦٧م وفقدان باقي فلسطين والجولان وسيناء، مما أدى إلى صدمة كبيرة في العالم العربي، واهتزاز الثقة بالأفكار القومية والاشتراكية وبالأنظمة العربية.

التيار الإسلامي في الضفة والقطاع:

ومن ناحية التيار الإسلامي الفلسطيني، فبعد انتهاء حرب ١٩٤٨م وبداية الخمسينيات، كان الإخوان المسلمون يزدادون قوة ونفوذاً، خصوصاً في قطاع غزة. وفي القطاع أصبح الشيخ عمر صوان، رئيس المكتب الإداري في غزة، وكان للإخوان في غزة أربع شعب: شعبة تتبع المكتب الإداري، وشعبة في "الرمال" وشعبة في "حارة الزيتون"، وشعبة في "حارة الدرج"، كما كانت هناك شعب للإخوان في خان يونس ورفح وشعب مصغرة في معسكري البريج والنصيرات، وكان من نواب هذه الشعب أعضاء في المكتب الإداري للإخوان في منطقة غزة[٨١]، وأصبح عدد الفروع حوالي ١١ فرعاً[٨٢]، وخلال الفترة ١٩٤٩–١٩٥٥م كان الإخوان أقوى الأحزاب والظاهرة السياسية الأولى في القطاع[٨٣].

قام الإخوان في القطاع بتبني التدريب وتشجيعه وبالعمل العسكري ضدّ الكيان الإسرائيلي، وتحت إشراف الضابط المصري الإخواني عبد المنعم عبد الرؤوف

(أحد ضباط ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٢م البارزين) تمّ تجنيد وتدريب الكثيرين. وقد قام الإخوان بزرع الألغام في وسائل النقل المدنية والعسكرية الإسرائيلية، ونسف عدد من المنشآت، وتخريب خطوط المياه والكهرباء، وقد كان لهذه العمليات أثرها في انفجار الموقف على الحدود بين الأرض المحتلة والقطاع على نطاق واسع... وأدت ردود الفعل الإسرائيلية المتغطرسة والقصف العشوائي الوحشي إلى إدخال أعداد كبيرة من الحرس الوطني المصري، وإلى تنظيم عمليات فدائية يقوم بها الفلسطينيون داخل الأرض المحتلة برعاية السلطات المصرية وبإشراف ضابط المخابرات مصطفى حافظ.

ومن جهة أخرى، ومع تعرض الإخوان لتضييق السلطات المصرية فقد قامت باعتقال خليل الوزير "أبو جهاد" الذي كان من أنشط العناصر الإخوانية العسكرية، ولقي من التعذيب أهوالاً في إدارة المباحث في سرايا غزة، وأفرج عنه بكفالة بعد أسبوع، وكان ما يزال طالباً في المرحلة الثانوية.

أسهمت عمليات الإخوان العسكرية في القطاع في إفشال مشروع توطين اللاجئين في سيناء، الذي كانت قد وافقت عليه حكومة الثورة المصرية، ذلك أن كل عملية جهادية كان يعقبها انتقام إسرائيلي، مما أحرج الحكومة المصرية، ودفعها إلى إنشاء الكتيبة الفلسطينية. وحتى بعد حظر نشاط الإخوان في القطاع وتعرضهم للمطاردة استمروا في عملهم الجهادي السري، وشكلوا سلسلة من المجموعات الجهادية للعمل المسلح مثل شباب الثأر وكتيبة الحق... وكان لهم دورهم في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي للقطاع تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦م – آذار/ مارس ١٩٥٧م، وتحت الاحتلال نظم الإخوان إضراباً نجح على نطاق واسع، وقبض الصهاينة على عدد من الإخوان الذين ظلّوا في السجن حتى انسحاب الصهاينة من القطاع.

غير أن ظروف مطاردة النظام الحاكم في مصر للإخوان واعتقالهم، والإفساح لنشاط الحركات القومية والاشتراكية، فضلاً عن هجرة العديد من كفاءات ورموز الإخوان إلى الخارج، وخصوصاً الخليج للعمل، كل ذلك أضعف من قوة حركة الإخوان في القطاع، وهمَّش دورها خصوصاً منذ أواخر الخمسينيات وحتى ١٩٦٧م[٨٤].

وفي الضفة الغربية، التي ضُمت إلى الأردن، تابع الإخوان نشاطهم الذي حافظ على لافتته الرسمية، وأنشأوا فروعاً جديدة لهم في الخليل وبيت لحم وجنين وقلقيلية وعنبتا ودورا وصوريف وصور باهر وطوباس وكفر برقة وأريحا، وبعض مخيمات اللاجئين مثل عقبة جبر قرب أريحا والعروب قرب بيت لحم[٨٥].

ويذكر عبد العزيز علي أن كامل الشريف استدعاه من مصر إلى القدس لتدريب الإخوان في القدس على العمل العسكري الفدائي، وكان الشريف يتولى الإشراف على المؤتمر الإسلامي في القدس بعد ذهاب سعيد رمضان، وخرج عبد العزيز علي من مصر في ١٩٥٤/٧/٢١م بعد أن استأذن من الإخوان هناك فسمحوا له. وفي القدس قام بتدريب عدة دفعات بأعداد لا بأس بها من الإخوان، بعلم ورضا الإخوان، وقاموا بعمليات ضدّ الكيان الإسرائيلي، وقد استمر عبد العزيز علي في العمل والتدريب حتى حصلت الضربة الثانية للإخوان في مصر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٤م حيث غادر إلى سورية[٨٦].

الإخوان المسلمون وإنشاء حركة فتح:

نقف هنا لنشير إلى مشاركة الإخوان في تأسيس حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) إذ تشير الدلائل أن فتح قد نشأت (أواخر ١٩٥٧م) في أحضان حركة الإخوان، وأن الإخوان كانوا يعدّونها جزءاً منهم أو على الأقل رصيداً لهم. ويذكر أحد المصادر الإخوانية أن المجموعة القيادية الأولى لفتح كانت تتكون من خمسة أشخاص، واحد منهم يقيم في السعودية هو عبد الفتاح حمود وهو من الإخوان، وأربعة يقيمون في الكويت وهم أبو جهاد خليل الوزير، ويوسف عميرة، وسليمان حمد، وهؤلاء كلهم كانوا من الإخوان، وأبو عمار ياسر عرفات الذي كان مقرباً من الإخوان، وإن لم يكن عضواً من الأعضاء، وقد كان لأبي عمار من الهمة والنشاط والذكاء ما جعلهم يولونه قيادة الحركة[٨٧].

ويذكر آلان هارت Alan Hart، الذي استقى معلوماته من مصادر فتحاوية قديمة، ومنها عرفات وأبو جهاد، أن أول خلية سرية لفتح تشكلت من خمسة هم: أبو جهاد وياسر عرفات وعادل كريم ويوسف عميرة، أما الخامس فاسمه شديد. وينسب هارت نشأة فتح إلى أواخر ١٩٥٧م في الكويت[٨٨].

ويرى صلاح خلف "أبو إياد" أن تأسيس فتح تمّ في ١٩٥٩/١٠/١٠م عندما اجتمعت "مجموعة صغيرة منا" في الكويت لصياغة الشكل التنظيمي لفتح. أما خالد الحسن فيؤرخ الشكل النهائي لتوحيد فتح تحت قيادة مركزية في ١٩٦٢م، ويقول: إن ما سبق ذلك التاريخ هو تطوير مجموعات محلية مستقلة، وأنهم اكتشفوا أنه أينما كان تجمع للفلسطينيين خلال ١٩٥٨–١٩٦٢م فقد كانت هناك حركة فلسطينية فكان هاني الحسن يشكل مجموعة في ألمانيا وحمدان في النمسا وكوكبان في إسبانيا وعبد الفتاح حمود في السعودية، وأبو مازن وأبو يوسف في قطر، "وكنا نشكل مجموعة في الكويت"،

وكان هناك آخرون في العراق وغزة ودمشق. ويضيف خالد الحسن أن مجموعة الكويت كانت الوحيدة التي لديها مجلة "فلسطيننا" التي تصدر في لبنان، ومن خلالها أصبحوا معروفين للآخرين قبل غيرهم، وأنهم بعد ذلك استطاعوا رؤية بعضهم بعضاً، وأخيراً في ١٩٦٢م اجتمعوا في الكويت وتوحد الجميع تحت فتح، غير أن خالد الحسن يشير إلى أن أول من بدأ حركة فتح هو خليل الوزير[٨٩].

وعلى أي حال، فإن هارت لا يذكر الشخص أو المصدر الذي استقى منه معلوماته حول الأسماء الخمسة لأول خلية لفتح، وإن كان مجمل الصياغة السابقة لكتابة المعلومة توحي بأن المصدر هو أبو جهاد. أما القراءة الدقيقة لما ذكره أبو إياد وخالد الحسن فلا تعطي تأكيداً بأنهما كانا من أوائل المؤسسين أو من أول قيادة لفتح في الكويت. مع الإشارة إلى أن هارت ذكر أن أبا إياد وخالد الحسن وهاني الحسن انضموا إلى فتح ١٩٦٣م[٩٠].

وربما أمكن حلّ التعارض بين ما ذكره هارت وما ذكره الأستاذ سليمان حمد من أن أول خلية لفتح ليست بالضرورة أول قيادة لفتح، إذ إن تشكيل القيادة ربما سبقه تشكيل عدد من الخلايا التي اختيرت منها القيادة.

وحسب الدكتور عبد الله أبو عزة فإن خليل الوزير قدم تصوراً للإخوان في القطاع سلمه إلى الأستاذ هاني بسيسو يقضي بإنشاء تنظيم خاص لا يحمل لوناً إسلامياً في مظهره، وإنما يحمل شعار تحرير فلسطين عن طريق الكفاح المسلح، ونوهت المذكرة التي قدمها الوزير بأن هذا التنظيم سوف يفتح الأبواب المغلقة بين الإخوان والجماهير، ويفك الحصار الناصري عنهم ويبقي قضية فلسطين حية، ويجبر الدول العربية على خوض الحرب. ولما لم يستجب الإخوان المسؤولون لهذا التصور، قام عدد من الإخوان ذوي المكانة والاحترام بين القواعد، ممن اقتنعوا بهذا التصور، بدعوة إخوانهم الآخرين للانضمام للحركة وكان من هؤلاء الدعاة سعيد المزين (أبو هشام) وغالب الوزير، وانضم لهم عدد من الإخوان المرموقين في ذلك الوقت مثل سليم الزعنون، وصلاح خلف وأسعد الصفطاوي. ولأن دعاة الحركة الجديدة من الإخوان ومعظم قادتها شخصيات إخوانية معروفة لا يشك في سابقتها وإخلاصها وولائها، فقد سهل عليهم ذلك تجنيد أفراد ممتازين كثيرين من الإخوان، وقد أسهم في ذلك أن الإخوان أنفسهم لم يحسموا أمرهم مع فتح إلا بعد حوالي خمس سنوات كانت كافية لأن يفقدوا عدداً من أفضل عناصرهم، كما أن الإخوان الذين دخلوا فتح لم يعلنوا انسحابهم من الإخوان، وإنما

انكمشوا أو انقطعوا عن المشاركة، بينما استمر بعضهم في المشاركة المزدوجة بين الطرفين مثل أبو يوسف محمد يوسف النجار حتى اعتبره الإخوان منسحباً عندما عرفوا بأمر مشاركته فتح.

ومن الشخصيات الإخوانية* التي انضمت لفتح في تلك الفترة، ممن لم نذكرهم، كمال عدوان ورفيق النتشة[٩١].

وقد تميزت فتح عند نشأتها بدخول المخلصين الراغبين في البذل والتضحية وتحرير الوطن، وكانت حركة سرية تعتمد الانتقاء من ذوي الأخلاق الحميدة والالتزام الوطني.

لقد فتحت فتح في تلك الفترة المجال أمام الشباب الإخواني المتحمس للعمل الإيجابي الجهادي في وقت كان يستحيل فيه على جماعة الإخوان المسلمين المطارَدة القابعة قيادتها في السجون أن تستوعب مثل هذه الطاقات وتوجهها.

ثم إن فتح توسعت في عمليات التجنيد من الفئات المختلفة، وثارت التساؤلات في الوسط الإخواني حول توجيه فتح والإشراف عليها، حيث أصرت قيادة الإخوان الفلسطينية على أن يكون من القياديين الخمسة ثلاث تعينهم بنفسها، فضلاً عن إشرافها على عمل الحركة، وقد رفضت قيادة فتح هذا الطلب، ويظهر أنها نظرت بعين الشك إلى قدرة الإخوان، وهم في أوضاعهم الصعبة، على القيادة وحسن المتابعة وتحقيق الطموحات. ويذكر الأستاذ سليمان حمد أن قيادة فتح كلفته الاتصال بالأخ هاني بسيسو، رحمه الله، الذي كان رئيس تنظيم الإخوان الفلسطينيين، والذي كان مقره غزة، وقد هدف هذا الاتصال لمعرفة رأي الإخوان في الحركة "حيث كانت الغالبية العظمى من عناصر الحركة من أفراد الإخوان"، وقد بدأ التناقض بين التوجيه الإخواني وبين توجيه حركة فتح لعناصرها مما جعل حركة فتح تتخوف من انفصال الإخوان عنها. وعندما تفاوض سليمان حمد مع قيادة الإخوان في غزة في صيف ١٩٦٢م، أصرّت قيادة الإخوان أن يكون في مجلس قيادة فتح ثلاثة أعضاء على الأقل من بين الأعضاء الخمسة، ولم يكونوا يعلمون بأسماء قيادتها.

وعندما عاد سليمان حمد إلى الكويت ونقل ذلك لياسر عرفات وباقي الأعضاء كان جوابهم أن هناك أربعة وليس ثلاثة في القيادة. وقام سليمان حمد نفسه بإخبار ذلك

* في طبعات سابقة أشرنا إلى محمود عباس (أبو مازن) أنه كان من الإخوان المسلمين، غير أن هذا لم يثبت لدينا بعد مراجعة العديد من المراجع والشخصيات الإخوانية التي عاصرته.



لهاني بسيسو في صيف ١٩٦٣م، فكان ردّ الإخوان أنهم يريدون أن يعينوا بأنفسهم الأفراد الثلاثة وليس فتح. وقد رأت فتح في ذلك تدخلاً في شؤونها، وخافت أن يؤدي ذلك لتحكم قيادة الإخوان بقيادة فتح "الأمر الذي رفضه ياسر عرفات وبعض الأفراد الآخرين"، ولذلك فقد أمرت حركة الإخوان أفرادها بالتمايز إما للإخوان أو لفتح، ورفضت أن يكون لأي شخص الصفتان كلتاهما فاختار أغلب الإخوان الرجوع إلى قيادتهم وتنظيمهم، كما أمرت فتح أفرادها بالتمايز أيضاً (عن أي تنظيم غيرها). وقد أدى هذا إلى حدوث "الانفصام النكد" بين الجماعة وبين حركة فتح حسب تعبير أحد الإخوان، وقد كان ذلك في صيف ١٩٦٣م، وقد خسرت جماعة الإخوان عدداً من نشطائها وشبابها المتحمس، وتأثرت حركة فتح وهيكلها العام كثيراً بخروج عدد كبير من كوادرها وعناصرها الصالحة[٩٢].

غير أن النَفَس الإخواني استمر في أجواء حركة فتح، بل إن الأنظمة العربية نظرت لها بعين الشك كجهة تتبع الإخوان حتى بعد انطلاقتها العسكرية ١٩٦٥م، لكن هذا النفس أخذ يضعف مع دخول أعداد هائلة من الناس في فتح، خصوصاً بعد حرب ١٩٦٧م، ومع استشهاد عدد من كبار قادتها ورموزها من ذوي الماضي الحركي الإسلامي، وخصوصاً عبد الفتاح حمود، وأبو يوسف النجار وكمال عدوان... وتولي فتح قيادة م.ت.ف، ثم دخولها في مشاريع التسوية السلمية... .

وفي أوائل الخمسينيات (١٩٥٢م) أنشئ حزب التحرير الإسلامي برئاسة الشيخ تقي الدين النبهاني، وقد اكتسب شعبية لا بأس بها في الخمسينيات، وكان له دوره في الدفاع عن الإسلام والدعوة للخلافة الإسلامية، غير أنه لم يمارس عملاً جهادياً باعتبار أن ذلك منوط بخليفة المسلمين الذي يجب أن يتم الجهاد تحت رايته[٩٣].

ثالثاً: مرحلة الثورة الفلسطينية وتنامي المد الإسلامي ١٩٦٧-١٩٨٧م:

كانت أبرز معالم هذه المرحلة:

- هزيمة الأنظمة العربية في ١٩٦٧م، وتراجع المد القومي واليساري.
- ظهور الهوية الوطنية الفلسطينية بقوة، وسيطرة المنظمات الفدائية على م.ت.ف ١٩٦٨م، والاعتراف بها ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني ١٩٧٤م.
- الاندفاع نحو التسوية السلمية مع الكيان الإسرائيلي على الصعيد العربي، وعقد مصر لاتفاقيات كامب ديفيد Camp David ١٩٧٩م.

- بروز نشاط الكفاح المسلح الفلسطيني ضدّ الكيان الإسرائيلي، وتعرضه لعمليات تصفية وضربة قاسية أدت إلى تحجيمه وإضعافه، خصوصاً إثر الاجتياح الإسرائيلي للبنان ١٩٨٢م.
- تنامي المدّ الإسلامي على الساحة الفلسطينية والعربية والإسلامية، بحيث أصبح الاتجاه الإسلامي الفلسطيني أحد أبرز القوى المؤثرة على الساحة الشعبية. وهذا ينطبق على الساحة العربية، وخصوصاً في الأردن ومصر والسودان والجزائر والكويت وتونس واليمن، كما ينطبق على الساحة الإسلامية بنجاح التجربة الإسلامية في إيران، والتجربة الجهادية في أفغانستان، وتنامي الاتجاه الإسلامي في الباكستان وماليزيا وأندونيسيا، وبين الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا....

ولأننا نركز على التجربة الإسلامية الجهادية في فلسطين، فإن حديثنا سينحصر في هذا الإطار.

معسكرات الشيوخ:

كانت أولى المشاركات الإسلامية الجهادية الفلسطينية فيما يعرف بـ"معسكرات الشيوخ" في الأردن والتي شكلها الإخوان المسلمون تحت مظلة فتح ١٩٦٨م، واستمرت في عملها حتى إغلاق معسكرات العمل الفدائي الفلسطيني في الأردن ١٩٧٠م.

وكانت قيادة الإخوان المسلمين قد أصدرت قراراً بفتح معسكرات لتدريب الإخوان ومؤيديهم، حيث استفاد الإخوان من أجواء حرية العمل الفدائي والتأييد الشعبي الهائل له، والذي ظهر خصوصاً بعد هزيمة ١٩٦٧م، غير أن الإخوان لم يستطيعوا العمل باستقلالية كاملة نتيجة أجواء العداء ضدّ الإسلاميين التي كانت ما تزال مستمرة، وبالذات من عبد الناصر والقوى اليسارية...، فضلاً عن صعوبة التمويل.

وقد وافقت حركة فتح على توفير الغطاء لمعسكرات الإخوان، كما التزمت بتقديم التموين والسلاح والذخيرة، فضلاً عن مصاريف الأفراد ١٥ ديناراً للأعزب و٣٠ ديناراً للمتزوج، وكانت العمليات الفدائية تحدث بالتنسيق معها. بينما كان للإخوان حريتهم الكاملة في تصريف أمور التدريب والانتقاء وشؤونهم الخاصة[٩٤].

افتتح أول معسكر للشيوخ في منطقة العالوك (باتجاه طريق الزرقاء – السخنة)، وتولى التدريب صلاح حسن وإبراهيم حسن (وهم إخوان في الدم) وعبد العزيز علي، وكان ينسق معهم من جهة إخوان الأردن إسحق الفرحان وأبو بشير الزميلي. ومن

الذين تدربوا في المعسكر أحمد نوفل وعبد الله عزام، وإبراهيم المشوخي وذيب أنيس. وشارك في هذه القواعد أفراد من جنسيات عربية مثل فلسطين والأردن وسورية والسودان (حوالي سبعة سودانيين)، ومصر واليمن[٩٥].

والدفعة الأولى التي تمّ تدريبها كانت من ٣٠–٤٠ رجلاً ذهبوا جميعاً بعد ذلك إلى منطقة إربد، حيث فتحت لهم قاعدة جهادية. وبلغ عدد الذين تمّ تدريبهم في معسكرات الشيوخ حوالي ٢٥٠–٣٠٠ رجل من الإخوان المسلمين ومؤيديهم، وبينما بلغ عدد القواعد التي فتحت سبع قواعد[٩٦].

ويذكر الشيخ عبد الله عزام رحمه الله أن السرية الأولى قدمت نماذج رفيعة، وكان من بينها مجموعة من الإخوة السودانيين على رأسهم الوزير السوداني السابق محمد صالح عمر. وقال الشيخ عبد الله عزام: "كان القائد الشهيد صلاح حسن يربينا بعمله دون قوله، وكان أخوه أبو خليل يعتبرنا إخوة له ولسنا تلاميذ، وكان قائدنا العام عبد العزيز علي له في قلوبنا هيبة وأيما هيبة، وحباً ومودة لا نظير لها"، وأضاف الشيخ عبد الله عزام بأن معسكرات الشيوخ نجحت في كسب ودّ الناس واحترام الجيش الأردني[٩٧].

ومن العمليات البارزة التي نفذتها معسكرات الشيوخ عملية "الحزام الأخضر" في ١٩٦٩/٨/٣١م بالتعاون مع فتح حيث استهدفت ثلاث مستعمرات متقاربة هي "ياروينا" و"بيت يوسف" و"بيت يور" وتم الهجوم في ليلة واحدة، وكانت أصداؤها مدوية. وهناك أيضاً عملية "دير ياسين"، المشتركة مع فتح، في الجولان ضدّ مستعمرة "ناحال هجولان" في ليلة ١٩٦٩/٩/١٤م حيث تمّ تدمير نادي الضباط ومحطة للوقود ومستودعات التموين وسيارات عسكرية إسرائيلية، وقد اعترف اليهود بمقتل واحد و١٢ جريحاً، غير أن المشاركين في العملية قالوا: إنهم أحصوا حوالي ستين قتيلاً إسرائيلياً، وكانت خسائر المجموعة الفدائية شهيداً واحداً وثلاثة جرحى[٩٨].

ويروي الشيخ عبد الله عزام أن أبا عمرو "صلاح حسن" أعد لعملية بالصواريخ يسميها عملية "سيد قطب" ضدّ دورية من عدة دبابات إسرائيلية، ورتب الخطة، وأشرف على المكان، وزرع الصواريخ التي سيطلقها بالكهرباء. ولكن الجنود الصهاينة كمنوا له قرب الشارع، ودارت بينهم معركة سقط فيها أبو عمرو شهيداً، واستشهد معه محمود البرقاوي وزهير قيشو، ومن الموافقات أنها حدثت في الذكرى الرابعة لاستشهاد سيد قطب، أي في ١٩٧٠/٨/٢٨م[٩٩].

أما عملية ١٩٧٠/٦/٥م فقد شارك فيها ستة من المجاهدين حيث تصدوا لدبابتين وكاسحة ألغام، وكان موشيه دايان قد أرسل مراسلاً كندياً وآخر أمريكياً ليطوف بهما على الحدود، ويريهما أن العمل الفدائي قد انتهى، ففاجأهم المجاهدون، وجرح الصحفيان، واعترف الصهاينة بـ ١٢ قتيلاً، ولكن القتلى، كما يذكر الشيخ عبد الله عزام، كانوا أكثر من هذا بكثير. وقد ضجّ الإعلام العربي بهذه العملية، واستشهد من المجاهدين ثلاثة منهم مهدي الإدلبي من قاعدة "بيت المقدس" التي يقودها الشيخ عبد الله عزام، وبلال المقدسي من قاعدة "غزة"[١٠٠].

وقد رصدت الاستخبارات الإسرائيلية معسكر العالوك، ثم هاجمته الطائرات الإسرائيلية صباح يوم أحد الأيام، غير أن جميع من فيه كانوا خارج المعسكر في الطابور الرياضي الصباحي، ولم يكن هناك إلا شخص واحد أصيب بشظية، وقد ضربت الخيام (أي المهاجع) بالصواريخ، ودمرت تماماً، وتمّ رشّ المعسكر بالرصاص. وفي اليوم التالي استشهد اثنان نتيجة انفجار رصاصة (لم تكن قد انفجرت في الغارة) كان يطرق بها أحدهما تسلية فانفجرت واستشهدا فوراً[١٠١].

وحسب عبد العزيز علي فإن عدد شهداء معسكرات الشيوخ خلال الفترة ١٩٦٨–١٩٧٠م بلغ ١١ شهيداً[١٠٢]، غير أن عبد الله عزام يذكر أن عددهم كان ١٣ شهيداً، ومن هؤلاء الشهداء رضوان كريشان، ورضوان بلعة الدمشقي، ومحمد سعيد باعباد الضابط اليمني، وأبو الحسن إبراهيم الغزي[١٠٣].

اتساع التيار الإسلامي:

وفي منتصف السبعينيات بدأ الاتجاه الإسلامي يظهر ويقوى على الساحة الفلسطينية في الداخل والخارج، فبدأ يظهر في أواخر السبعينيات كأول أو ثاني اتجاه من ناحية القوة في الجامعات الفلسطينية، وأصبحت الفكرة الإسلامية والطرح الجهادي يلقى شعبية متزايدة في الأوساط المختلفة. ومع استمرار الوقت أخذت تتزايد الجمعيات الخيرية الإسلامية ولجان الزكاة والتكافل الاجتماعي، ومن أبرزها المجمع الإسلامي في غزة، كما تضاعفت أعداد المساجد في الضفة وقطاع غزة، وأصبح الكتاب الإسلامي والشريط الإسلامي هما الأكثر رواجاً.

وقويت الظاهرة الإسلامية في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨م، وأصبحت تحظى بشعبية متزايدة. وفي ١٩٨٠م كشف الكيان الإسرائيلي تنظيم "أسرة الجهاد" في قرى

المثلث العربي، واعتقل العشرات من أفراده (أكثر من ستين عنصراً) من قرى أم الفحم وكفر قاسم وقلنسوة وباقة الغربية، وكان أبرز قياداته فريد أبو مخ والشيخ عبد الله نمر درويش اللذان حكم عليهما وعلى رفاقهما بالسجن مُدداً مختلفة. وكان هذا التنظيم قد قام بتدمير العشرات من المرافق الاقتصادية، وإحراق السيارات والمعامل والبساتين الإسرائيلية[١٠٤].

وفي قطاع غزة أصبح الاتجاه الإسلامي أقوى اتجاه منفرد في مؤسسات التعليم، وفي العديد من القطاعات، وبرز دور المجمع الإسلامي والشيخ أحمد ياسين، وأصبحت الجامعة الإسلامية بغزة أحد أهم المعاقل الإسلامية، وتزايدت أعداد المساجد من ٢٠٠ مسجد ١٩٦٧م إلى أكثر من ٦٠٠ مسجد ١٩٨٧م.

وفي ١٩٨٣م كشفت السلطات الإسرائيلية أسلحة داخل قبو في أحد المساجد، وقبضت على الشيخ أحمد ياسين بتهمة انتمائه لتنظيم معادٍ لـ"إسرائيل" وحيازة الأسلحة، وحكمت عليه بالسجن ١٣ عاماً، غير أنه أفرج عنه في عملية تبادل الأسرى التي تمت في ١٩٨٥/٥/٢٠م، بين المنظمات الفدائية الفلسطينية والكيان الإسرائيلي[١٠٥].

وعلى الرغم من ضرب أولى المحاولات الجهادية للشيخ أحمد ياسين ورفاقه من أبناء الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمون)، والتي كان الشيخ أحد قادتها البارزين، إلا أن فكرة الإعداد الجهادي تعززت لدى قطاعات واسعة من الإسلاميين، وقد ضرب الشيخ ياسين مثلاً طيباً لإخوانه، فهو من مواليد ١٩٣٧م وأب لـ ١١ طفلاً، يعيش حياة متواضعة بسيطة في حارة جنوبي غزة تسمى "جورة الشمس". وقد نشط في الدعوة حتى غدا من أشهر خطباء قطاع غزة، حيث كان يخطب في مسجد الشاطئ، ثم الكنز، ثم العباس، وعرف بقوة حجته وجرأته في قول الحق. وقد عانى من شلل جزئي منذ صيف ١٩٥٢م، غير أنه استمر في العمل والدعوة على الرغم من أن حالة الشلل كانت تزداد انتشاراً حتى أصيب بالشلل الكامل. وفي أوائل السبعينيات تفرغ للعمل الدعوي بعد أن كان يعمل في التدريس بمدارس الحكومة، وكان له اهتمامه بإنشاء صناديق الزكاة وتربية النساء والأطفال، وقد أسس المجمع الإسلامي في غزة ١٩٧٩م كمؤسسة ثقافية صحية اجتماعية، وظلّ أميناً عاماً لهذا المجمع حتى ١٩٨٤م[١٠٦]. وقد كان للشيخ أحمد ياسين ورفاقه تأثير كبير خصوصاً في قطاع غزة في نمو التيار الإسلامي والإعداد للانتفاضة المباركة.

لقد كان من الواضح أن الفكرة الجهادية كنت تشغل بال الإسلاميين على اعتبار أنها ذروة سنام الإسلام، وبسبب ما أخذوا يستشعرون من مسؤولية متزايدة تجاه أرض الإسراء بعد استعداد الأنظمة العربية للدخول في تسويات سلمية مع الكيان الإسرائيلي تؤدي إلى الاعتراف بحقه على حوالي ٨٠٪ من أرض فلسطين، فضلاً عن حالة الضعف المتزايد الذي كانت تعاني منه م.ت.ف نتيجة ما تعرضت له من ضربات، وبسبب انجرارها التدريجي نحو الحلول السلمية.

وقد شهدت سنة ١٩٨٠م إنشاء حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، والتي قام بتأسيسها عدد من الشباب الفلسطيني الدارس في الجامعات المصرية برئاسة الدكتور فتحي الشقاقي رحمه الله.

وكان الدكتور الشقاقي قد انضم لجماعة الإخوان المسلمين في القطاع بزعامة الشيخ أحمد ياسين ١٩٦٨م واستمر في أطر الإخوان إلى أواخر السبعينيات[١٠٧].

ويذكر الشقاقي الذي ولد في غزة ١٩٥١م (عائلته تنتمي أصلاً إلى قرية زرنوقة قضاء الرملة) والذي درس الطب في جامعة الزقازيق بمصر ١٩٧٤–١٩٨١م أن فكرة إنشاء حركة الجهاد الإسلامي نشأت أيام الدراسة الجامعية، وأنه كان هناك خلافات بينه وبين الإخوان في المنهج والتغيير وقضية فلسطين، والموقف من الأنظمة ومن العالم الواقع والأدب والفن. وأضاف أنه كان يشعر أنه "ليس لدى الإخوان منهج، وأن هناك فوضى في المفاهيم في إطار الحركة..."[١٠٨].

وانتقد الشقاقي ما عدَّه سكونية مناهج التكوين لدى حركة الإخوان، والتخبط في طرائق العمل، وإهمال جانب التخطيط، وطغيان مبدأ السلامة والمبالغة فيها[١٠٩].

غير أن الشقاقي يرى أن حركة الإخوان المسلمين حركة أم للتيار الإسلامي في المنطقة، وأن البنا كان رائداً كبيراً، وقال: إنه وحركته يكنون "كل احترام وتقدير لهذه الحركة على دورها التربوي وحفظها للإسلام في المنطقة"[١١٠].

وقال الشقاقي: إنه مع مجيء ١٩٧٨م كان التمايز واضحاً بينه وعدد من زملائه وبين الإخوان، وتابع الشقاقي الثورة الإيرانية باهتمام، وانتهى من إعداد كتابه "الخميني: الحل الإسلامي والبديل" في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٩م قبيل نجاح الثورة، والذي صدر بعد نجاحها بأيام، ولم يلتقِ بأي مسؤول إيراني قبل ذلك، وقد اعتقل ليلة صدور الكتاب مدة أربعة أيام بسبب نشاطه الإسلامي في الجامعة، ثم أعيد اعتقاله

في ١٩٧٩/٧/٢٠م لأربعة أشهر، وبعد خروجه من السجن انقطعت صلته التنظيمية بالإخوان، حيث شعر أن فكرة "التأثير والتوافق لم تعد قائمة" بينه وبين الإخوان، فبدأ بتشكيل نواة حركة الجهاد الإسلامي في بداية ١٩٨٠م[١١١].

وقبل أن يعود الشقاقي إلى فلسطين ١٩٨١م كان قد سبقه عدد من إخوانه الذين تخرجوا في ١٩٨٠م من الجامعات المصرية، وبدأوا نشاطهم داخل الأرض المحتلة. وقد التحق الشقاقي بمستشفى فكتوريا بالقدس لمدة سنتين إلى أن اعتقل في ١٩٨٣م لمدة عام لإصداره مجلة الطليعة، ثم أعيد اعتقاله في ١٩٨٦م وحكم عليه بالسجن أربع سنوات بتهمة تشكيل تنظيم سري عسكري، ثم أبعد في ١٩٨٨م إلى لبنان، حيث عاش سنة واحدة، ثم انتقل إلى دمشق[١١٢].

وحسب فكرة حركة الجهاد الإسلامي فإنها جاءت لتعبِّر عن "الإسلام كمنطلق، والجهاد كوسيلة، وفلسطين كهدف للتحرير"، وأنها عندما قامت "كانت قوة تجديد داخل الفكر الإسلامي وداخل الحركة الإسلامية على مستوى الفكرة والمنهج والتنظيم وعلى مستوى الأداء داخل فلسطين"[١١٣].

وبشكل عام فإن الحركة ركزت على المعاني الجهادية، وتحرير الوطن، وتنظيم العناصر للقيام بالعمليات العسكرية، وتأثرت بتجربة الجهاد الإسلامي في مصر والتجربة الإيرانية والتجربة القسامية. وحافظت على علاقة متينة بإيران منذ إنشائها وحتى الآن.

وقد بدأ العمل العسكري لحركة الجهاد الإسلامي قبل الانتفاضة، وتعدُّ الحركة نفسها مسؤولة عن عملية "باب المغاربة" التي تضمنت قصف الجنود الإسرائيليين الذين كانوا يُعمَّدون عند حائط المبكى استعداداً للتخرج في ١٩٨٦/١٠/١٦م، وقد أدت إلى إيقاع ثمانين إصابة بين قتيل وجريح من لواء "غفعاتي" الإسرائيلي[١١٤].

كما أن أربعة من مجاهدي الحركة (اثنان منهم كانا قد هربا من سجن غزة المركزي في أيار/ مايو ١٩٨٧م) قد قاموا بعدد من العمليات الجهادية إلى أن استشهدوا في عملية الشجاعية في ١٩٨٧/١٠/٦م في اشتباك مسلح مع القوات الإسرائيلية. وترى الجهاد الإسلامي أن ذلك اليوم ١٩٨٧/١٠/٦م هو اليوم الأول للانتفاضة المباركة، وقد استمرت طيلة سنوات الانتفاضة تدعو إلى الإضراب الشهري لذكرى بدء الانتفاضة في هذا اليوم من كل شهر[١١٥].

رابعاً: مرحلة الانتفاضة المباركة والتسوية السلمية ١٩٨٧-١٩٩٦م:

تكاد المصادر تجمع على أن الحادث الذي أشعل شرارة الانتفاضة قد وقع في ١٩٨٧/١٢/٨م عندما جاءت شاحنة إسرائيلية إلى حاجز "إيرز"، على حدود قطاع غزة مع الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨م، حيث انحرف سائق الشاحنة إلى الاتجاه المعاكس، وحطم سيارتي أجرة تقلان عمالاً عرباً، مما أدى لاستشهاد أربعة وجرح تسعة آخرين، وقد هرب السائق بسيارة ذات نمرة صفراء شبيهة بسيارات المخابرات الإسرائيلية، كانت تقف قرب مكان الحادث. ويبدو أن هذا الحادث كان رداً صهيونياً على طعن ومقتل تاجر يهودي في ميدان فلسطين بمدينة غزة قبيل صلاة العصر من يوم ١٩٨٧/١٢/٦م[١١٦].

لقد كان لهذا الحادث أثر بالغ أدى لاشتعال انتفاضة شعبية عارمة، شارك فيها الشباب والشيوخ والنساء والأطفال، واتسعت لتشمل أراضي قطاع غزة والضفة الغربية لعدة سنوات.

وقد قررت الحركة الإسلامية منذ البداية المشاركة في الانتفاضة وتوجيهها، وبدأت التظاهرات العارمة بعد صلاة الفجر من يوم الأربعاء في ١٩٨٧/١٢/٩م من مسجد مخيم جباليا، وسقط الشهيد حاتم أبو سيس، وأصيب ٢٧ آخرون بجراح، ونظم طلاب الجامعة الإسلامية بغزة مسيرة صاخبة، وقرب مستشفى الشفاء حيث حدثت مواجهات عنيفة أدت إلى إصابة العديد من الطلاب، واستشهد رائد شحادة (من أبناء الحركة الإسلامية بالجامعة) متأثراً بجراحه[١١٧]، وتوالى سقوط الشهداء، واتسعت مظاهر الغضب والمقاومة لتعبر عن أقوى مظاهر جهاد الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال الصهيوني منذ ١٩٦٧م.

وقد تميزت هذه الانتفاضة ببروز العامل الديني ودور التيار الإسلامي ومؤسساته في إذكاء روح المقاومة والاستبسال وحبّ الاستشهاد في سبيل الله. كما تميزت بالشمول، ومشاركة كافة قطاعات الشعب الفلسطيني واتجاهاته وفئاته العمرية. وبرز جيل جديد من الشباب الجريء المتحمس، والذي لم تزده وسائل التركيع والإذلال والإفساد الصهيوني إلا تحدياً وجهاداً. وعلى الرغم من تنوع الإجراءات الصهيونية وقسوتها في قمع الانتفاضة إلا أن ذلك قوبل بصمود وثبات عظيم، بل وصاحبه تنويع وتطوير في أساليب المقاومة، كما ظهرت العديد من المظاهر الشعبية النبيلة من إيثار وتعاون ونخوة وشهامة.

وخلال الأشهر الثمانية الأولى كان قد استشهد حوالي ٤٠٠ فلسطيني، وجرح ١٢ ألفاً منهم ٣٤٠٠ أصيبوا بعاهات دائمة، وبلغت حالات الإجهاض بسبب القمع الإسرائيلي للنساء ١٧٠٠ حالة، كما بلغ عدد المعتقلين ٢٣ ألفاً[١١٨].

ولا شكّ أن هذه الانتفاضة لم تأتِ من فراغ، فقد أسهم في تأجيجها تراكم الآثار السلبية لسياسة القمع الصهيوني والقبضة الحديدية وهدم البيوت والاعتقال التعسفي والإبعاد والإذلال، والضرائب الباهظة، وسياسة إلحاق الضفة الغربية والقطاع اقتصادياً بالكيان الإسرائيلي، وحرمان أبناء فلسطين من الخدمات الاجتماعية، وتضييق فرص العمل. وزاد الأمر سوءاً تنامي التيار الصهيوني الأكثر تعصباً، وبروز المنظمات الصهيونية التي تقوم سياساتها على استفزاز المسلمين، وضمّ الضفة والقطاع للكيان الصهيوني، وطرد الفلسطينيين للخارج، والمحاولات الحثيثة لتهويد القدس، وزيادة الاعتداء على المساجد والآثار والمقدسات الإسلامية. ومن جهة أخرى فإن تنامي الصحوة الإسلامية، وبروز التيار الإسلامي كأحد أقوى التيارات الشعبية في فلسطين أسهم في نمو القيم الإسلامية والمشاعر الدينية، وإذكاء مشاعر الجهاد والدفاع عن أرض الإسراء والمعراج والمسجد الأقصى، والرباط والمقاومة مهما كانت التضحيات. وقد صاحب هذا كله اليأس من وعود التسوية السلمية أو العون الخارجي، والشعور الشعبي القوي بضرورة المبادرة الذاتية، وإثبات الهوية، وانتزاع الحق من الغاصبين. كما لا يجب أن يغيب عن البال بعض الإرهاصات والتفاعل الشعبي الذي رافق عملية الشجاعية في ١٩٨٧/١٠/٦م، وعملية الطائرة الشراعية في ١٩٨٧/١١/٢٥م عندما تمكن خالد أكر من الهبوط بطائرة شراعية قرب معسكر "جيبور" الإسرائيلي شمال فلسطين، وتمكن من قتل ستة جنود وجرح ثمانية آخرين قبل أن يستشهد، وقد أعلنت الجبهة الشعبية – القيادة العامة مسؤوليتها عن العملية[١١٩].

لقد قررت الحركة الإسلامية منذ الساعات الأولى خوض الانتفاضة وتصعيدها وقيادة الجماهير، وسارعت الحركة الإسلامية (الإخوان المسلمون) بالإعلان عن ذراعها الجهادي الضارب حركة المقاومة الإسلامية (حماس). وقد وزعت حماس بيانها الأول في ١٩٨٧/١٢/١٥م وهو أول بيان يصدر في الانتفاضة، وفيه أكدت للجماهير "المرابطة المسلمة" أنهم "اليوم على موعد مع قدر الله سبحانه النافذ في اليهود وأعوانهم... بل أنتم جزء من هذا القدر الذي سيقتلع جذور كيانهم إن آجلاً أم عاجلاً بإذن الله سبحانه وتعالى"...، وقال البيان: "ألا فليعلم المستوطنون المستهترون أن شعبنا عرف ويعرف

طريقه طريق الاستشهاد وطريق التضحية، وأن شعبنا جواد كريم في هذا الميدان"... "ارفعوا أيديكم عن شعبنا، عن مدننا، عن مخيماتنا، عن قرانا، معركتكم معنا معركة عقيدة ووجود وحياة"[١٢٠].

وهكذا فلأول مرة منذ ١٩٦٧م ينزل تيار الإخوان المسلمين بثقله في ميدان المواجهة بعد طول ترقب وإعداد. وقد هدف التيار الإسلامي من الانتفاضة إلى رفع الروح المعنوية للشعب، وتعميق ثقته بربه وإسلامه، ونفض مشاعر الاستكانة والعجزة والاستسلام للواقع، وتأكيد معاني العداء والصراع مع العدو الغاصب المحتل، كما هدف إلى التأكيد على الهوية الإسلامية لفلسطين وشعبها، والإبقاء على روح الجهاد، وتأجيج جذوتها. وسعى إلى كشف معادن أبنائه بالعمل وصقل قدراتهم في التحرك الميداني، وإكسابهم الخبرة في المواجهة والممارسة الجهادية. وهدف كذلك إلى الحدِّ من غطرسة الصهاينة وعنجهيتهم، وهزّهم نفسياً من داخلهم، والعمل على التأثير على معدلات الهجرة والاستيطان. هذا فضلاً عن إحياء القضية الفلسطينية عربياً وإسلامياً ودولياً.

ومن جهة أخرى، جاءت الانتفاضة كرافعة لمنظمة التحرير الفلسطينية التي عانت من محاولات عزلها وتهميشها وتجاوزها خصوصاً بعد ضرب بنيتها العسكرية في لبنان، فسعت المنظمة لتوظيف الانتفاضة في تحقيق استراتيجيتها للوصول إلى تسوية سلمية مع الكيان الإسرائيلي، تؤدي إلى انسحاب الصهاينة من الضفة والقطاع، وإقامة الدولة الفلسطينية على هذه الأرض التي احتلت سنة ١٩٦٧م. وبعد حوالي أسبوعين من الانتفاضة ارتأت م.ت.ف الاشتراك في الانتفاضة تمهيداً لاستثمارها سياسياً فدعت إلى إضراب عام يوم الإثنين في ١٩٨٧/١٢/٢١م، وبدأ ظهور صور ياسر عرفات وشعارات المنظمة، وشكلت م.ت.ف من الفصائل الفلسطينية المنتمية إليها ما عرف بالقيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، ومثلت فتح والجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية التيارات الرئيسية فيها، وصدر البيان الأول للقيادة الموحدة في ١٩٨٨/١/٨م[١٢١].

وهكذا بدأ يتنازع قيادة الانتفاضة تياران مختلفان هما التيار الإسلامي وتيار م.ت.ف باستراتيجيات وأهداف متباينة، ولكن بفعاليات نضالية جهادية متشابهة تقريباً ضدّ العدو من تظاهرات وإضرابات وقذف الصهاينة بالحجارة وقنابل المولوتوف الحارقة... وغيرها. على أن الجماهير كانت تستجيب لكلا التيارين، وتلتزم بالإضرابات التي يدعوان إليها.

وإذا كان من اليسير تحديد بداية الانتفاضة المباركة فلعله من الصعب تحديد تاريخ نهايتها، هذا إذا كان هناك اتفاق أنها انتهت. فبالنسبة لـ م.ت.ف (وتحديداً فتح) فإن الانتفاضة عُدَّت منتهية مع دخولها اتفاقية السلام مع الكيان الإسرائيلي، وتوقيع اتفاق أوسلو Oslo Accords (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣م). أما بالنسبة للتيار الإسلامي فإن حماس كانت ما تزال تصدر بياناتها المرقمة منذ بداية الانتفاضة وحتى وقت قريب، وتدعو إلى فعاليات محددة، كما صعدت عملياتها الجهادية بعد اتفاقية أوسلو، وخصوصاً إثر مذبحة الحرم الإبراهيمي في شباط/ فبراير ١٩٩٤م. وعلى الرغم مما وُجِّه وما يُوجَّه إليها من ضربات من الصهاينة ومن سلطة الحكم الذاتي فقد استمرت في عملياتها القوية ضدّ الكيان الإسرائيلي، كما تابعت حركة الجهاد الإسلامي مشاركتها الانتفاضية النوعية، وكذلك المنظمات المعارضة لاتفاق أوسلو بدرجات وأشكال انتفاضية متفاوتة.

غير أنه من الواضح الآن أن الانتفاضة فقدت كثيراً من وهجها الشعبي والمشاركة الجماهيرية اليومية... وأخذ يقتصر الأمر أكثر فأكثر على أعضاء القوى والحركات المنظمة؛ لأن الانتفاضة بحد ذاتها لم تتخذ شكلاً ثابتاً، وتنوعت وسائلها وطابعها العام من فترة لأخرى، ولأن القوى الحركية المنظمة أقدر على التخطيط والاستمرار وتنويع الأساليب مع ازدياد أنواع البطش والتنكيل والمواجهة الصهيونية. وعلى الرغم من أن الانتفاضة، مع الزمن، فقدت جانباً من حيويتها الجماهيرية، إلا أن زيادة العمليات النوعية وقتل الجنود والمستوطنين والانفجارات الاستشهادية، التي زادت مع مرور الوقت، كان لها أثرها القوي في إبقاء جذوة الصراع والتحدي مستمرة. وبشكل عام فمع دخول السلطة الفلسطينية أراضي الضفة والقطاع كانت مظاهر الانتفاضة تضعف أو تنتهي باعتبارها موجهة أصلاً ضدّ الاحتلال الصهيوني.

وعلى أي حال، فإن السنوات الست الأولى للانتفاضة (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧م – كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣م) حسب إحصائية أعدتها م.ت.ف قد شهدت استشهاد ١٥٤٠ فلسطينياً، وبلغ عدد الجرحى ١٣٠ ألفاً، واعتقل حوالي ١١٦ ألفاً لمدد مختلفة[١٢٢].

التطور السياسي:

نحاول هنا الإشارة باختصار إلى التطورات السياسية المتعلقة بالقضية (١٩٨٧–١٩٩٦م) بما يتناسب ومنهجنا في إعطاء الصورة العامة التي تعين في دراستنا للتيار الإسلامي وتجربته على أرض فلسطين.

إذا كانت الانتفاضة قد شكلت أحد أبرز المظاهر السامية في التاريخ الفلسطيني، وعلى الرغم مما حققته من نتائج إيجابية، ومن تعاطف دولي واسع مع حقوق الشعب الفلسطيني إلا أن التطورات التي تلت ذلك قد صبّت في اتجاه وأدِ الانتفاضة، واستغلال ظروف م.ت.ف والضعف العربي والإسلامي لتقديم المزيد من التنازلات للكيان الصهيوني، وعمل تسوية سياسية على حساب حقوق أبناء فلسطين والمسلمين في الأرض المباركة.

فقد سارعت م.ت.ف لاستثمار الانتفاضة سياسياً، وكان إحدى أوائل مؤشرات التنازل ما عرف بـ"وثيقة أبي شريف" التي وزعت على المراسلين الأجانب في مؤتمر القمة العربي بالجزائر (٧–١٩٨٨/٦/٩م) والتي أرسلت إلى إحدى الصحف الأمريكية بتوقيع المستشار الإعلامي لرئيس م.ت.ف بسام أبو شريف، حيث أشير للمرة الأولى وبصراحة بقبول مبدأ المفاوضات المباشرة مع الكيان الإسرائيلي، وذهبت الوثيقة لضرورة قيام علاقات سياسية واقتصادية بين الدولة اليهودية والدولة الفلسطينية "المرتقبة"[١٢٣]. وعلى الرغم من أن المنظمة لم تعلن رسمياً الموافقة على الوثيقة، لكن المراقبين اعتبروها "بالون اختبار" ترغب خلاله م.ت.ف أو تيار له وزنه داخلها بمعرفة انعكاساتها شعبياً وعربياً ودولياً قبل تبنيها رسمياً.

واستفادت م.ت.ف من قرار الأردن فكَّ روابطه الإدارية والقانونية مع الضفة الغربية في ١٩٨٨/٧/٣١م[١٢٤] لتخوض ما أسمته "هجوم السلام الفلسطيني".

ونجحت قيادة المنظمة في عقد المجلس الوطني الفلسطيني الـ ١٩ في الجزائر (١٢–١٩٨٨/١١/١٥م) في دورة غير عادية عرفت "بدورة الانتفاضة"، وشاركت في حضوره معظم فصائل م.ت.ف، وفي هذا المجلس تمّ وضع برنامج فلسطيني قائم على الاعتراف بقرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧م بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وانطلاقاً من ذلك واستناداً إلى "الحق الطبيعي والتاريخي والقانوني للشعب العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين..."

تمّ إعلان استقلال دولة فلسطين، ودعا المجلس إلى تسوية سياسية من خلال مؤتمر دولي قائم على أساس قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧م) ورقم ٣٣٨ (الصادر في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣م)، كما دعا إلى الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وإقامة كونفيدرالية فلسطينية – أردنية بعد إنجاز الاستقلال الفلسطيني[١٢٥].

وعلى الرغم مما أحدثه البرنامج من ترحيب دولي، وتوالي اعتراف عشرات الدول بالدولة الفلسطينية المأمولة قبل أن تقوم على أرض الواقع، وعلى الرغم مما تضمنه من تنازلات كبيرة... إلا أن ذلك كله لم يكن كافياً للولايات المتحدة لإعطاء ياسر عرفات حتى مجرد تأشيرة لحضور اجتماعات الأمم المتحدة في نيويورك.

وحتى يتم فتح حوار رسمي مع الولايات المتحدة اضطر عرفات للإعلان يوم ١٩٨٨/١٢/١٥م بعبارات محددة الاعتراف الصريح بـ"إسرائيل"، وبالقرارين رقم ٢٤٢ و٣٣٨، والتخلي عن "الإرهاب" ونبذه بكافة صوره وأشكاله[١٢٦]. غير أن الدور الأمريكي في الحوار لم يتجاوز محاولة جرّ الجانب الفلسطيني لتحقيق الشروط الإسرائيلية. وفي الانتخابات الإسرائيلية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٨م مالت الكفة لصالح الليكود Likud والأحزاب التي تلتقي معه، وتمّ تشكيل حكومة شراكة بين الليكود والعمل Labour[١٢٧]، استمرت في سياسة المراوغة والضغط على الفلسطينيين وم.ت.ف دون أي تنازل جاد من طرفها.

وفي أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات حدثت تغيرات على المستوى العربي والدولي أضعفت كثيراً الموقف الفلسطيني والعربي، فقد حدث مزيد من الضعف والتفكك في الساحة العربية، خصوصاً إثر الاجتياح العراقي للكويت في ١٩٩٠/٨/٢م وما نتج عنه من عداء بين البلاد العربية، واستنزاف الموارد والثروات العربية، وتدمير البنية العسكرية للعراق، وهجرة وتهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين من الكويت أثناء الاجتياح العراقي، وبعد تحرير الكويت، وما تلاه من حجب الدعم عن م.ت.ف... وبشكل عام فإن هذا الاجتياح وما استتبعه من "حرب الخليج" ونتائجها كان له آثار كارثية على قضية فلسطين.

أما في الإطار الدولي فقد شهدت هذه الفترة انهيار الاتحاد السوفييتي وتفككه، وكذلك كتلة الدول الاشتراكية، وتحولها من حالة المنافسة والعداء على أمريكا وحلفائها إلى

حالة من التوافق و"الاسترضاء" في ضوء التحول نحو الرأسمالية والديموقراطية الغربية، والحاجة إلى المساعدات الاقتصادية من الغرب. وقد أسهم ذلك في اختلال التوازن السياسي الدولي الذي كان يستفيد منه الجانب الفلسطيني والعربي إلى حدٍّ ما، عندما كانت هناك حالة من التنافر والاستقطاب تسمح بمجال للمناورة. وهكذا برزت الولايات المتحدة كقوة وحيدة أولى في العالم، خصوصاً بعد حرب الخليج في أوائل ١٩٩١م. وقد استثمرت ذلك في فرض هيمنتها وإرادتها وتصوراتها لنظام عالمي جديد، كما سعت لإغلاق الملف الفلسطيني بما يخدم مصالح حليفها الاستراتيجي "إسرائيل". بينما قطف الكيان الإسرائيلي ثماراً غالية نتيجة انهيار الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية، فأعادت هذه الدول علاقاتها الدبلوماسية معها، كما فتحت أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة التي وصلها، خصوصاً من الاتحاد السوفيتي، خلال الفترة ١٩٨٩-١٩٩٥م ما يزيد عن ٦٣٠ ألف يهودي الكثير منهم من الكفاءات العلمية والعسكرية العالية، مما زاد من خطورة الكيان الإسرائيلي ومشروعه في المنطقة[١٢٨].

وفي هذه الأجواء المثالية لأمريكا و"إسرائيل" نجحت الولايات المتحدة في جرّ البلاد العربية إلى مؤتمر السلام العربي - الإسرائيلي في مدريد في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١م تلته مفاوضات عربية - إسرائيلية مباشرة. ولم تنفع حوالي سنتين من المفاوضات بين الجانب الفلسطيني والجانب الإسرائيلي في كسر التصلب الصهيوني. وقد جاءت المفاجأة عندما أعلن عن اتفاق أوسلو بين الطرفين، حيث كشف النقاب عن مفاوضات سرية كانت تجري بين الطرفين منذ ١٩٩٣/١/٢٠م من وراء ظهر الوفد الفلسطيني الرسمي المفاوض (برئاسة حيدر عبد الشافي) دون علم معظم قادة م.ت.ف، وقد وقّع الاتفاق بالأحرف الأولى في ١٩٩٣/٨/١٩م في أوسلو بالنرويج، وتمّ التوقيع عليه رسمياً في واشنطن برعاية الرئيس الأمريكي بيل كلينتون Bill Clinton وحضور ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين Yitzhak Rabin، ووقعه عن الجانب الفلسطيني محمود عباس، وعن الجانب الإسرائيلي وزير الخارجية شمعون بيريز Shimon Peres، كما وقعه وزيرا خارجية أمريكا وروسيا كشاهدين[١٢٩].

ونظراً للأهمية الحيوية والتاريخية لاتفاق أوسلو، والذي ما زلنا نعيش ملابساته وانعكاساته فسنورده بشيء من التفصيل. فقد اتسم هذا الاتفاق بالمرحلية، إذ تضمن حكماً ذاتياً في قطاع غزة وأريحا أولاً بحيث تنسحب جزئياً القوات الإسرائيلية من هاتين المنطقتين فور التوقيع على الاتفاقية، ويكتمل الانسحاب بعد أربعة أشهر من

توقيعه. وخلال شهرين من دخول الاتفاق حيز التنفيذ يتوصل الطرفان لاتفاقية حول انسحاب "إسرائيل" من غزة وأريحا تشمل نقلاً محدوداً للصلاحيات للفلسطينيين، وتغطي التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة. وبعد تسعة أشهر من تطبيق الحكم الذاتي تجري انتخابات مباشرة في الضفة الغربية وقطاع غزة لانتخاب مجلس فلسطيني للحكم الذاتي، وتقوم القوات الإسرائيلية قبيل الانتخابات بالانسحاب من المناطق المأهولة بالسكان، وإعادة الانتشار في الضفة.

ويتم تشكيل سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية "المجلس المنتخب" تشمل الضفة الغربية والقطاع، على أن صلاحيات السلطة الفلسطينية لا تشمل الأمن الخارجي، والمستوطنات الإسرائيلية في الضفة والقطاع، والعلاقات الخارجية، والإسرائيليين، ولا القدس. وتستمر المرحلة الانتقالية من الحكم الذاتي خمس سنوات ولـ"إسرائيل" حقّ النقض "الفيتو" على أية تشريعات تصدرها السلطة الفلسطينية خلال المرحلة الانتقالية. وتجري المفاوضات على الوضع النهائي بين الطرفين بعد عامين من بدء الحكم الذاتي، حيث ستحسم القضايا المعلقة مثل مستقبل القدس، والمستوطنات الإسرائيلية، وعودة اللاجئين. وأشار الاتفاق إلى أن ما لا تتم تسويته بالتفاوض يمكن أن يتفق على تسويته من خلال آلية توفيق يتم الاتفاق عليها بين الطرفين[١٣٠].

وقد فشل الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي في الاتفاق على تفصيلات المرحلة الأولى (غزة – أريحا) وانقضت المهلة المحددة لانتهاء انسحاب القوات الإسرائيلية قبل أن تبدأ هذه القوات أصلاً بأي انسحاب. وبعد مزيد من التعنت الإسرائيلي والتنازل الفلسطيني توصل الجانبان لتوقيع اتفاق القاهرة (أوسلو ١) في ١٩٩٤/٥/٤م الذي فصَّل المرحلة الأولى من الاتفاق والجدولة الزمنية للانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة وأريحا والترتيبات الأمنية المتعلقة بذلك. وبدأ دخول الشرطة الفلسطينية قطاع غزة في ١٩٩٤/٥/١٨م، وأدى أعضاء سلطة الحكم الذاتي اليمين الدستورية أمام ياسر عرفات في أريحا يوم ١٩٩٤/٧/٥م[١٣١].

أما انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلي من المناطق المأهولة، وإعادة انتشارها في الضفة الغربية، وإجراء انتخابات فلسطينية في الضفة والقطاع، فقد تأخر حوالي سنة ونصف، حيث سعى الكيان الإسرائيلي لفرض شروطه وتفسيراته الخاصة، وربط إمكانية التقدم في المفاوضات بمدى تمكن السلطة الفلسطينية من تحقيق الأمن لـ"إسرائيل"، وبعبارة أخرى بمدى تمكن السلطة الفلسطينية من سحق المعارضة الفلسطينية، وخصوصاً التيار الإسلامي وعلى رأسه حركة حماس.

ولم يتم التوصل لتنفيذ اتفاق المرحلة الثانية من أوسلو إلا بعد "نجاح" السلطة إلى حدٍّ بعيد في "الاختبار" الإسرائيلي. وقد تمّ التوصل إلى هذا الاتفاق في طابا بمصر (أوسلو ٢) وتمّ توقيعه في ١٩٩٥/٩/٢٨م في واشنطن، حيث اتفق على نقل صلاحيات الحكم الذاتي إلى بعض أجزاء الضفة الغربية، وبالذات المدن والقرى الفلسطينية (أي المناطق المأهولة) وهي لا تزيد بأي حال عن ٣٠٪ من مساحة الضفة. وأبقيت أجزاء من مدينة الخليل تحت الإشراف الأمني الإسرائيلي، أما جميع القرى الفلسطينية فالإشراف الأمني عليها فلسطيني – إسرائيلي مشترك، وأما المناطق الأخرى والمستوطنات الإسرائيلية فالإشراف الأمني عليها إسرائيلي[١٣٢]. وهكذا بدا الحكم الذاتي الفلسطيني كجزر متناثرة في بحر أمني إسرائيلي!!

لقد سعى مؤيدو اتفاق أوسلو لتسويقه باعتباره أفضل ما يمكن تحصيله وفق الظروف الراهنة، وبكونه يفتح الأمل لإمكانية إنشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، ويوقف الزحف التهويدي الاستيطاني في الأرض المحتلة، ويتضمن لأول مرة اعترافاً إسرائيلياً رسمياً بالشعب الفلسطيني، وبعض حقوقه المشروعة، واعترافاً بـ م.ت.ف ممثلة للشعب الفلسطيني، ويتعامل مع الضفة والقطاع كوحدة إقليمية واحدة، فضلاً عن انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلي من مناطق في الضفة والقطاع.

وعلى الرغم من التأييد الذي لقيته الاتفاقات من حركة فتح المهيمنة على م.ت.ف، والتي ما يزال لها وزنها في الساحة الفلسطينية، بالإضافة إلى بعض الفصائل والقوى الهامشية على الساحة، فإنه لقي معارضة شاملة من التيار الإسلامي (حماس، الجهاد الإسلامي) ومن عدد من الفصائل الفلسطينية مثل الجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش، والجبهة الديموقراطية بقيادة نايف حواتمة وعدد آخر من الفصائل ذات الحضور المتواضع في الساحة الفلسطينية، وقد تشكل من هذه القوى تحالف يضم عشرة فصائل معارضة للاتفاق في ١٥-١٩٩٣/١٢/١٦م سعت من خلاله لمواجهة اتفاق أوسلو، وشكلت بمجملها تياراً فلسطينياً واسعاً، غير أنها لم تتمكن عملياً من إسقاط الاتفاق لأسباب لا مجال لذكرها هنا، وإن تمكنت من تنسيق مواقفها ضدّ هذا الاتفاق، كما لم يسلم هذا الاتفاق من المعارضة الشديدة أو المتحفظة من مجمل تيار المثقفين الفلسطينيين حتى من أولئك المؤيدين للعملية السلمية ومؤتمر مدريد ممن هالهم حجم التنازلات الضخم الذي قدمته م.ت.ف.

ونقف هنا لنشير إلى أبرز النقاط التي استند إليها التيار الإسلامي، ومن اتخذ موقفاً يماثله، في اعتراضه على اتفاقية أوسلو:

١. من الناحية الشرعية التي تشكل منطلق التفكير لدى الحركة الإسلامية، فإن علماء المسلمين الثقات أفتوا بعدم جواز التسوية السلمية حسبما يريد الداعون إليها، وبوجوب الجهاد المقدس لتحرير الأرض المغتصبة، وإرجاعها كاملة تحت راية الإسلام، وباعتبار هذه المعركة مع الصهيونية على أرض فلسطين المباركة معركة بين حقّ وباطل، تتوارثها الأجيال حتى يأذن الله بالنصر والتمكين، كما أن قضية فلسطين هي قضية كل المسلمين الذين يرفضون التنازل عن حقهم مهما طال الزمن، وليست قضية الفلسطينيين وحدهم، فضلاً عن أن تكون قضية م.ت.ف أو قيادتها، وهناك فتاوى عديدة أصدرها العلماء، وقد نُشرت إحداها سنة ١٩٩٠م وجاء فيها أن "الجهاد هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين، وأنه لا يجوز بحال من الأحوال الاعتراف لليهود بشبر من أرض فلسطين، وليس لشخص أو جهة أن تقر اليهود على أرض فلسطين، أو تتنازل لهم عن أي جزء منها أو تعترف لهم بأي حقّ فيها". وقد وقّع هذه الفتوى عشرات العلماء الكبار مثل يوسف القرضاوي، ومحمد الغزالي، ووهبة الزحيلي، وعمر الأشقر، وإبراهيم زيد الكيلاني، وخالد المذكور، وعبد الله عزام، وهمام سعيد، وعجيل النشمي، ومحرم العارفي، ومحمد أحمد الراشد، وعصام البشير، وفيصل مولوي، وطه جابر العلواني، وأحمد العسال، وعبد السلام الهراس. كما وقعها جمع من قادة الحركات الإسلامية أمثال راشد الغنوشي، ومصطفى مشهور، ونجم الدين أربكان، وبرهان الدين رباني، وحكمتيار، ومحفوظ النحناح، وأبو الليث الندوي، وقاضي حسين أحمد، وفتحي يكن[١٣٣].

٢. تعترف قيادة م.ت.ف من خلال الاتفاق "بحق إسرائيل في الوجود" وبشرعية احتلالها وملكيتها لـ ٧٨٪ من أرض فلسطين التي احتلت سنة ١٩٤٨م وتشكلت عليها "دولة إسرائيل" وتخرج هذه الأرض من دائرة المفاوضات والصراع.

٣. تتعهد م.ت.ف بالتوقف مطلقاً عن المقاومة المسلحة والانتفاضة، وبإلغاء وحذف كافة البنود الداعية لتحرير فلسطين، وتدمير الكيان الصهيوني من ميثاقها الوطني الذي قامت على أساسه، وتتعهد بحلّ كافة المشاكل بالطرق السلمية. وفي المقابل لا يوجد أي تعهد إسرائيلي بانسحاب كامل من الضفة والقطاع، أو إعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة كاملة في الضفة والقطاع.

٤. إن أهم وأخطر القضايا تمّ تأجيل بحثها إلى مفاوضات المرحلة النهائية، ولم يعطِ الكيان الإسرائيلي أية وعود إيجابية حقيقية بشأنها، وظلت المسألة مرتبطة بمدى "الكرم الإسرائيلي" الذي يملك عناصر القوة وأوراق اللعبة بعد أن جردت م.ت.ف نفسها من الانتفاضة والكفاح المسلح، والتزمت بالطرق السلمية فقط بالمفاوضات، وهذه القضايا هي:

أ. مستقبل مدينة القدس، والتي يجمع الإسرائيليون أنها عاصمتهم الأبدية، غير القابلة للمساومة أو التنازل.

ب. مستقبل اللاجئين الفلسطينيين خارج فلسطين، وهم يزيدون عن أربعة ملايين نسمة أي أكثر من نصف شعب فلسطين.

ج. مستقبل المستوطنات الإسرائيلية في الضفة والقطاع، حيث توجد ١٢٦ مستوطنة في الضفة و١٤ مستوطنة في القطاع، في الوقت الذي صادرت فيه "إسرائيل" أكثر من نصف أراضي الضفة والقطاع[١٣٤].

٥. لا يتضمن الاتفاق أية إشارة صريحة أو ضمنية عن إعطاء الفلسطينيين حقهم في تقرير المصير، أو إقامة دولتهم المستقلة، ولو على جزء من فلسطين.

٦. لا تتضمن مسؤوليات السلطة الفلسطينية الأمن الخارجي والحدود، ولا يستطيع أحد دخول مناطق السلطة دون إذن إسرائيلي حتى لو كان مسؤولاً فلسطينياً كبيراً، كما لا تتضمن مسؤوليات السلطة العلاقات الخارجية، وليس لها ولاية أو سلطة قانونية على الإسرائيليين في مناطقها، ولا تملك تشكيل جيش، وأية أسلحة تذهب للسلطة يجب أن تتم بموافقة إسرائيلية... .

٧. الحصيلة العملية للاتفاق إدارة حكم ذاتي بصلاحيات تنفيذية محدودة متعلقة بإدارة الشؤون اليومية للفلسطينيين كالصحة والتعليم والإسكان والضرائب، وهو ما حاولت "إسرائيل" أن تفعله لسنوات عديدة. وستكون هذه الإدارة "السلطة الفلسطينية" مرتبطة بالاحتلال، وتحت هيمنته المباشرة، ولا تملك السيادة أو السلطة على الأرض التي تحكمها.

٨. لـ"إسرائيل" حقّ النقض "الفيتو" على أية تشريعات تصدرها السلطة الفلسطينية خلال المرحلة الانتقالية.

٩. منذ البداية أخذت "إسرائيل" تتنكر لعهودها ومواثيقها، وتعدّ أن المواعيد المتفق عليها ليست مقدسة...، وأن الوصول للشكل النهائي لن يأخذ بالضرورة ثلاث سنوات، وإنما قد يصل إلى سنوات كثيرة.

١٠. أصبحت سلطة الحكم الذاتي، في ضوء تعهداتها السلمية، مضطرة لقمع وسحق أي جهاد وعمليات مسلحة ضدّ الكيان الإسرائيلي، ومحاربة الفصائل والمنظمات التي لم تدخل طرفاً في الاتفاق، والتي أصرت على استمرار المقاومة والجهاد. ووجدت السلطة نفسها، عملياً، أداةً لحماية الأمن الإسرائيلي في مناطقها، وتعاونت أمنياً مع السلطات الإسرائيلية، وقامت بحملات اعتقال واسعة للمجاهدين في عقب كل عملية جهادية يقومون بها ضدّ الصهاينة، إثباتاً لـ"حسن نواياها" وحرصها على "السلام". وقد يهدد هذا باحتمالات حرب أهلية فلسطينية يكون الخاسر الوحيد فيها الفلسطينيون أنفسهم.

١١. لا تشير الاتفاقية إلى الضفة والقطاع كأراضٍ محتلة، مما يعزز الاعتقاد بأنها مجرد أراضٍ متنازع عليها.

١٢. من حقّ "إسرائيل" الدخول متى شاءت في مناطق السلطة إذا رأت أن حالتها الأمنية تستدعي ذلك، وأن السلطة الفلسطينية لا تقوم بواجبها.

١٣. فتح هذا الاتفاق على مصراعيه للدول العربية والإسلامية وغيرها ممن يؤيد قضية فلسطين لعقد اتفاقات وبناء علاقات مع الكيان الإسرائيلي، وأعطى الفرصة للكيان الصهيوني لفكّ العزلة عن نفسه، والتغلغل في المنطقة، وتحقيق الهيمنة الاقتصادية، ونشر الفساد والانحلال، وغسل العقل العربي المسلم، وضرب القوى الإسلامية والوطنية في المنطقة.

١٤. تفردت قيادة م.ت.ف بالموافقة على الاتفاق والاتفاقات التي تلته دون الرجوع للشعب الفلسطيني، وحتى في أطرها القيادية كان هناك الكثير من الاعتراض والإرباك، وقاطع عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة الاجتماعات أو استقالوا، وكانت الموافقة تتم في اللجنة التنفيذية بأكثرية ضئيلة[١٣٥].

١٥. حتى في داخل حركة فتح وفي صفها الأول لقيت الاتفاقية معارضة قوية من فاروق قدومي وخالد الحسن وهاني الحسن، وأبدى اعتراضات وتحفظات عديدة قيادات مثل محمود غنيم وصخر حبش ومحمد جهاد وعباس زكي... وغيرهم. ونشرت العشرات من التصريحات والمقالات لهؤلاء القادة طوال الفترة الماضية، فمثلاً اعتبر فاروق قدومي مسيرة اتفاقية أوسلو مسيرة عابثة[١٣٦]، وأن حصيلة اتفاق أوسلو بعد عام من توقيعه هي صفر[١٣٧].

وقال هاني الحسن: إن التسوية ضرورة إسرائيلية وضرورة أمريكية وإلا لما حدثت، وطالب بـ"إسقاط الخط السياسي لمدرسة العجز الذاتي"، وذكر بأن أهل أوسلو أدخلوا الشعب في أزمة شاملة[١٣٨]. وحتى إن الشعور بالإحباط كان يلاحق عرَّابي اتفاق أوسلو، فنبيل شعث الذي كان يقود الوفد الفلسطيني لمفاوضات لجنة الارتباط الفلسطينية – الإسرائيلية في القاهرة قال بعد أكثر من سنة وثلاثة أشهر من توقيع الاتفاق: إن حصيلة عملية السلام هي "صفر حتى الآن"[١٣٩]. أما محمود عباس الذي وقع بنفسه اتفاق أوسلو، فقد اعتزل في فترة لاحقة، وحمل على أداء السلطة الفلسطينية ورئيسها ياسر عرفات بشدة، واتهم عرفات بالإصرار على السيطرة على كل الأمور، وتجاهله أعضاء اللجنة المركزية لفتح واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير[١٤٠]، وحتى عرفات نفسه قال: "أخشى بأني تسرعت في التصديق على أوسلو، وأخشى أن أكون قد أخفقت في مهمتي"، وأضاف "لقد خذلني العدو والصديق"[١٤١].

١٦. وحتى العديد من المفكرين الفلسطينيين ممن كانوا يؤيدون تسوية سلمية بشروط معينة أذهلهم حجم التنازلات في اتفاق أوسلو من أمثال الدكتور هشام شرابي والدكتور إدوارد سعيد. فمثلاً ذكر إدوارد سعيد لجريدة الحياة أن عرفات "ورَّط شعبه بمصيدة لا مخرج منها" وأنه ألقى بنفسه بين الإسرائيليين والأمريكيين، وأنه يريد السيطرة على الحكم بطريقة مطلقة، وأن يبقى مسؤولاً عن كل شيء دون أن يحاسبه أحد...[١٤٢]. واتهم هشام شرابي القيادة الفلسطينية بأنها "تبدو وكأنها لا تدري ما يجري حولها"، وأنها "لا تعرف كيف يؤخذ القرار، وكيف يتم تقرير المصير"، وقال: "إنها تقريباً على مستوى درجة الصفر بقدرتها على مجابهة الكفاءات الإسرائيلية والتعامل معها"[١٤٣].

حركة المقاومة الإسلامية (حماس)**:

تعدّ حركة حماس جناحاً من أجنحة الإخوان المسلمين بفلسطين، وامتداداً من امتداداتها، وهي حسب ميثاقها الذي صدر في ١٩٨٨/٨/١٨م تعدّ الإسلام منهجها، منه تستمد أفكارها ومفاهيمها وتصوراتها، وإليه تحتكم، ومنه تسترشد خطاها[١٤٤].

** ملاحظة: معلومات هذا الكتاب محدثة حتى صيف ١٩٩٦.

وتهدف حماس إلى تحرير فلسطين، وإقامة دولة الإسلام عليها، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، وتعدّ نفسها سنداً لكل مستضعف، ونصيراً لكل مظلوم[١٤٥].

وترى حماس أن فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين إلى يوم القيامة، لا يصح التفريط بها، أو بجزء منها، أو التنازل عنها، أو عن جزء منها، وأنه لا حلّ لقضية فلسطين إلا بالجهاد في سبيل الله، وأن العمل على تحريرها فرض عين على كل مسلم حيثما كان[١٤٦].

وأبدت حماس في ميثاقها اهتماماً بتربية الأجيال تربية متكاملة، وأعطت للمرأة المسلمة دوراً لا يقل عن دور الرجل في معركة التحرير، وشجعت الفن الإسلامي الذي يعبئ طاقات الأمة للجهاد، وأكدت على التكافل والتضامن الاجتماعي، ومراعاة مصالح الجماهير، ورفضت الطعن والتشهير بالأشخاص والجماعات، وحثت على بيان الحق، وتبنيه بحكمة وموضوعية[١٤٧].

ونظرت حماس نظرة احترام وتقدير إلى الحركات الإسلامية، وبادلت الحركات الوطنية الفلسطينية وم.ت.ف الاحترام، وقدرت جهودها والظروف التي أحاطت بها، لكنها رفضت في الوقت نفسه الفكرة العلمانية معتبرة أنها لن تؤدي إلى التحرير[١٤٨].

وأكدت حماس على اعتبارها حركة إنسانية تلتزم بسماحة الإسلام في النظر إلى أتباع الديانات الأخرى، ولا تعادي إلا من يناصبها العداء[١٤٩].

ودعت حماس الأدباء والمثقفين ورجال التربية والإعلام والخطباء وسائر القطاعات في العالم العربي والإسلامي إلى القيام بدورهم، كما حذرت من خطورة الهجمة الصهيونية على المنطقة، ومحاولات الاختراق والهيمنة والإفساد التي تقوم بها، ودعت إلى التصدي لها[١٥٠].

التأييد الشعبي:

ويحظى التيار الإسلامي الذي تتزعمه حماس بتأييد واسع في الساحة الفلسطينية. ومنذ سنوات عديدة تحصل الكتل الإسلامية المؤيدة لحماس (أو الإخوان المسلمين) التي تشارك في الانتخابات الطلابية والنقابات المهنية بشكل منفرد على ما لا يقل عن ثلث الأصوات، وبما يزيد أحياناً عن نصف الأصوات، وبمعدلات تقارب ٤٠–٤٥٪ من مجمل الأصوات.

ويفوز عادة مؤيدو حماس في جامعة غزة بنسب تزيد عن ٧٠٪ من الأصوات[151]، كما يفوزون عادة في انتخابات جامعة القدس وجامعة الخليل[152]، وقد فازوا في انتخابات جامعة بيرزيت في أيار/ مايو ١٩٩٦م، والتي تعدّ معقلاً لمؤيدي م.ت.ف[153]. وفي جامعة النجاح بنابلس يبدون كفرسي رهان مع الكتلة المنافسة والمؤيدة لفتح ومن يتحالف معها، حيث النتائج متقاربة[154]، ولهم حضورهم القوي في جامعة بيت لحم.

وينطبق معيار الشعبية نفسه على النقابات المهنية كاتحادات المهندسين والمحاسبين والأطباء والصيادلة والمحامين والمعلمين...، ففي جمعية المحامين بقطاع غزة حصلت الكتلة الإسلامية على ٣٨,٩٪، وفي جمعية المهندسين بقطاع غزة حصلت حماس على ٤٩٪، وفي جمعية المحاسبين القانونيين على ٤٨,٤٪، وفي اتحاد موظفي وكالة الغوث على ٤٤,٧٪...[155].

وفي انتخابات الغرف التجارية حصل الإسلاميون على نسب عالية، ففازوا بشكل ساحق في انتخابات غرفة تجارة وصناعة الخليل في آذار/ مارس ١٩٩٤م، كما فازوا في غرفة تجارة وصناعة رام الله التي تعد معقلاً تقليدياً للقوى الوطنية المنافسة، فحصلوا على ٤٩,٩٪، بينما حصل ائتلاف الفصائل الفلسطينية على ٣٨,٣٪. وفي غرفة تجارة وصناعة نابلس فاز التحالف المؤيد لـ م.ت.ف بـ ٥٠,٢٪، بينما حصل مؤيدو التيار الإسلامي على ٤٥,٦٪، وفي غرفة تجارة وصناعة غزة فاز تحالف الفصائل الفلسطينية المؤيد لـ م.ت.ف بـ ٥٤,٤٪، بينما حصل الاتجاه الإسلامي على ٣٧,٥٪ من الأصوات في الانتخابات التي جرت في ١٩٩١/١١/٤م[156].

وفي دراسة أجراها د. محمود الزهار حول نسب التأييد للاتجاهات المختلفة من خلال انتخابات الاتحادات الطلابية والمهنية في ٢٣ مؤسسة في الضفة والقطاع لانتخابات أجريت في ١٩٩١–١٩٩٢م وجد أن نسبة شعبية التيار الإسلامي في هذه الأوساط هي في حدود ٤٥,٨٪[157].

ولا يتوافر مراكز استطلاع للرأي العام يمكن الركون بارتياح إلى نتائجها، فبعضها يفتقر الكفاءة لإجراء استطلاعات واسعة تتسم بالدقة، وبعضها يفتقر إلى الحياد؛ لأنه مدعوم من أطراف يهمها خروج النتائج بشكل يخدمها. وينطبق ذلك على أنشط هذه المراكز، وهو مركز البحوث والدراسات الفلسطينية بنابلس المدعوم من ياسر عرفات وفتح، والذي تعطي مؤشرات الشعبية لديه عادة حركة فتح حوالي ٤٠٪ من الأصوات،

وحماس حوالي ١٥٪، والجبهة الشعبية ٦٪، والجهاد الإسلامي ٣,٨٪[١٥٨]، ولا يبعد ذلك كثيراً عن النتائج التي أعطاها "مركز القدس للإعلام والاتصال" الذي ذكر أن نتائج استبيانه (الذي نشر في حزيران/ يونيو ١٩٩٥م) تعطي فتح ٤٦,٦٪ وحماس ١٨,٢٪ من الأصوات[١٥٩].

وقد قاطع الإسلاميون ومعارضو التسوية السلمية انتخابات الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة، بما لم يوفر مجالاً لدراسة الشعبية الحقيقية للاتجاهات المختلفة. مع العلم أن شخصية إسرائيلية كبيرة هي يوئيل زنجر Yoel Singer، المستشار القانوني لوزارة الخارجية الإسرائيلية، قد توقعت أن يحصل التيار الإسلامي على ٤٠٪ من الأصوات في انتخابات الحكم الذاتي في حال مشاركتها، وقال: إن م.ت.ف المؤيدة لعرفات ستحصل على ٥٠٪ والجناح اليساري ١٠٪[١٦٠].

وبغض النظر عن نسب التصويت، فإنه مما لا شكّ فيه أن التيار الإسلامي يتمتع بحضور قوي على الساحة الفلسطينية، ولا ينبغي المبالغة في تقديره، أو التقليل من شأنه؛ لأن انتخابات الطلاب والقطاعات المهنية لا تعكس دائماً مجمل التداخلات والتعقيدات والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعيشها قطاعات المجتمع...، حيث تدخل العشائرية، ونوعية المرشحين، ومكانتهم الاجتماعية والسياسية، وإمكاناتهم المادية، وحملاتهم الدعائية، ودورهم في الأمور الخدماتية، وماضيهم النضالي... كعوامل مرجحة في الانتخابات. كما تؤثر الأحداث على مسار الانتخابات كالعمليات الاستشهادية، والحصار الاقتصادي، وتحقيق السلطة لبعض المكاسب المرحلية... وغير ذلك. كما لا ينبغي حصر دراسة نسب الشعبية والتمثيل الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة فقط. فالتيار الإسلامي هو الأقوى في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨م على المستوى الشعبي، وكذلك التيار الإسلامي في الأردن، حيث عبرت التجمعات ذات الأصول الفلسطينية في الانتخابات البرلمانية العامة (١٩٨٩م و١٩٩٣م) وفي النقابات والجامعات عن دعم متفوق للتيار الإسلامي...، كما يشهد التيار الإسلامي الفلسطيني في لبنان تصاعداً مُطرداً، وفي دول الخليج العربي كذلك، وبلاد المهجر في أوروبا والأمريكيتين.

وعلى أيِّ حال فإن حركة المقاومة الإسلامية أصبحت تمثل حالة شعبية متصاعدة، ومنهجاً متفرداً، وأصبحت تتصدر المقاومة الفعلية للاحتلال بعد دخول م.ت.ف في التسوية السلمية، وينبغي تقديرها وفق الدور الذي تلعبه في هذه المرحلة الحرجة.

إن المفكر الفلسطيني المعروف د. هشام شرابي، الأستاذ بجامعة جورج تاون Georgetown University، والمعروف بميوله العلمانية تحدث بإعجاب عن حماس في مقابلة مع جريدة هآرتس Haaretz، وقال: "إن حركة المقاومة الإسلامية هي حركة سياسية عسكرية، أفرزتها الانتفاضة الفلسطينية، وأصبحت اليوم الإطار الموحد والجامع للمقاومة الفلسطينية"، وقال: إنها ليست فصيلاً آخر ينضم تحت لواء م.ت.ف، ولكنها "الشكل الجديد للمقاومة الفلسطينية".... "إن المقاومة الإسلامية بعكس منظمة التحرير الفلسطينية لا تمثل فئات وتنظيمات تقاسمت فيما بينها مراكز مهمة "تحرير فلسطين" وأموال دعمها، بل تمثل إطاراً تنظيمياً، يجمع الشعب الفلسطيني تحت راية الإسلام، وشعارات تنبع من دين الشعب وتراثه، التي يؤمن بها الكبير والصغير، المثقف والأمي، والأكثرية الفقيرة من الشعب"... وقال شرابي: "لقد نجحت هذه المقاومة حتى الآن فيما عجزت عنه منظمة التحرير وفصائلها خلال أكثر من ربع قرن، في استنباط أشكال جديدة لتنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من الصراع العسكري الفعال باستقلال عن كلّ عون خارجي"[١٦١].

القيادة السياسية:

ومع استمرار الانتفاضة أخذت تتكشف تدريجياً في الصحف أسماء العديد من القيادات السياسية لحماس أو المحسوبة عليها، وكان أبرزها الشيخ أحمد ياسين الذي يعدّ مؤسس حماس وشيخ الانتفاضة، وفي قطاع غزة عرفت قيادات عديدة أمثال د. عبد العزيز الرنتيسي ود. محمود الزهار ومحمد شمعة وعبد الفتاح دخان وسيد أبو مسامح وأحمد بحر...، وفي الضفة الغربية برزت أسماء جمال سليم وحسن يوسف وجميل حمامي...، وفي خارج فلسطين ترددت أسماء د. موسى أبو مرزوق، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، وخالد مشعل، نائب رئيس المكتب السياسي، وإبراهيم غوشة، الناطق الرسمي باسم حماس، ومحمد نزال، ممثل حماس في الأردن، ومنير سعيد، ممثلها في السودان، ومصطفى القانوع، ممثلها في سورية، ومصطفى اللداوي، ممثلها في لبنان، وعماد العلمي الذي كان يمثلها في إيران، وأسامة حمدان، ممثلها الحالي في إيران.

وقد عانت القيادات والرموز السياسية المحسوبة على حماس، خصوصاً داخل فلسطين المحتلة من عمليات الاعتقال والتعذيب والإبعاد، وما يزال العديد من قياداتها في السجون الإسرائيلية من أمثال الشيخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي...، أو في

سجون سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية وكثيراً ما تتعدد مرات الاعتقال والإفراج لهذه الشخصيات حيث طال الاعتقال والإيذاء معظمهم إن لم يكن كلَّهم.

وفي خارج فلسطين كان أبرز أحداث الاعتقال هو قبض الولايات المتحدة في ١٩٩٥/٧/٢٥م على د. موسى أبو مرزوق، رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، بمطار كنيدي في نيويورك بحجة مخالفة قوانين الهجرة الأمريكية. ويبدو أن هذا الاعتقال كان وفق رغبة "إسرائيلية" إذ إن أسس الاتهام لا تستند إلى أي أدلة منطقية ثابتة، فأبو مرزوق وعائلته يملكون البطاقة الخضراء Green Card، ولم يخالف القوانين الأمريكية طوال إقامته السابقة فيها مدة ١٤ عاماً، ولم يرتكب عملاً ضدّ الولايات المتحدة، ثم إن حماس حصرت عملها في داخل فلسطين لمقاومة الاحتلال، والذي أجازته مواثيق الأمم المتحدة وقراراتها. وقد بدا واضحاً أن سبب الاعتقال كان سياسياً عندما أصدرت محكمة إسرائيلية أمراً باعتقال أبو مرزوق لأول مرة في ١٩٩٥/٧/٣١م، وطالب الكيان الإسرائيلي الولايات المتحدة رسمياً بتسليمه في ١٩٩٥/٨/٧م ريثما يقدم الكيان الإسرائيلي المستندات اللازمة في مهلة أقصاها شهرين. وقد قدَّمت هذه الأوراق قبل انتهاء المهلة، واشتملت على حوالي ألف صفحة، وتتضمن عريضة الدعوى ٢٢ بنداً تستند أساساً على اعترافات تحت التعذيب أدلى بها عضو حماس محمد صلاح الذي كان يعمل بأمريكا، والذي اعتقلته السلطات الإسرائيلية عندما زار فلسطين المحتلة. وتتضمن لوائح الاتهام ارتكاب جرائم القتل العمد وغير العمد وإيقاع الأذى المتعمد والإصابة بجروح... وتوجيه وتنسيق الأعمال "الإرهابية" لحماس في الأرض المحتلة[١٦٢].

غير أنه من الصعب توجيه تهم متعلقة بالعمل المسلح لقيادات حماس السياسية؛ لأنها لا تقوم بالتوجيه المباشر لجهازها العسكري الذي يتمتع باستقلالية وحرية حركة واسعة، بينما تقوم قيادات ورموز حماس السياسية بالتعبير عن أيديولوجية الحركة ومنهجها ومواقفها السياسية، وتعبئة الجماهير دون أن تمارس أي عمل مسلح. ويُظهر اعتقال أبي مرزوق مدى التنسيق والتعاون بين الإدارة الأمريكية والكيان الإسرائيلي ضدّ حماس الذي يهدف إلى إضعافها وإرباك عملها، ودفع مسيرة التسوية السلمية، وتحقيق مكاسب انتخابية إسرائيلية – أمريكية.

وقد استمرت محاكمة أبو مرزوق أشهر عديدة، وفي ١٩٩٦/٥/٨م أصدر القاضي الاتحادي الأمريكي كيفين دافي Kevin Duffy، المعروف بعدائه للإسلاميين، قراراً بالسماح بتسليم أبي مرزوق إلى السلطات الإسرائيلية، واعتبر أن الأدلة التي قدمتها

السلطات الإسرائيلية كافية لتسليمه وأن أبو مرزوق "ينتمي إلى مؤامرة اسمها حماس"[١٦٣]!! وقد رفعت قضية أبو مرزوق إلى محاكم الاستئناف الأمريكية، وما يزال إلى لحظة كتابة هذه السطور معتقلاً في أمريكا... وربما تأخذ القضية وقتاً طويلاً.

أما حركة حماس فبذلت جهوداً عديدة للإفراج عن زعيمها، وأصدرت بيانات اتهمت فيها الإدارة الأمريكية بالخداع والخبث، وحذَّرت من تسليمه للكيان الإسرائيلي باعتبار ذلك خطأً أحمر سيعني تجاهله دخولها بشكل مباشر طرفاً في الصراع بين الشعب الفلسطيني والاحتلال الصهيوني "وهو ما لا تحمد عقباه"، وتعهدت بصون كرامة قادتها السياسيين والإفراج عنهم بكافة الوسائل المتاحة لديها[١٦٤].

دور حركة حماس في الانتفاضة والجهاد:

ربما يتساءل البعض عن مدى قوة وتأثير العمل الجهادي الفلسطيني المعاصر، ولعل البعض يجده ضئيلاً قياساً إلى التجربة الجهادية في أفغانستان مثلاً أو الجزائر حيث بذلت مئات الآلاف من الشهداء في معارك ضارية لسنوات عديدة. ولسنا هنا في معرض الرد، ولكن توضيحاً للأمور نقول: إن المقارنة غير صحيحة وتفتقر إلى الدقة، ولعل النقاط التالية تعين في استيعاب الصورة بشكل أفضل:

١. إن الكيان الإسرائيلي من أكفئ وأقوى الأنظمة العسكرية في العالم وما ينفقه على الأمن يزيد عن الميزانيات الكاملة لعدد من الدول العربية مجتمعة. ويستطيع أن يحشد في حالة التعبئة حوالي مليون جندي من أصل ٤,٥ ملايين هي عدد اليهود في فلسطين المحتلة (حسب الإحصائيات في نهاية ١٩٩٥م)، ثم إن كل اليهود ذكوراً وإناثاً يبدؤون التدريب العسكري في سنٍّ مبكرة، ثم يدخلون التدريب العسكري الإجباري في سنّ الـ ١٨، وكل من انتهى من تدريبه، إن لم يدخل الجيش، يعدّ جندي احتياط يستدعى للخدمة عند الحاجة.

٢. الكيان الإسرائيلي يتمتع بالتأييد والدعم الدولي من الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة، ويتلقى منها مساعدات بقيمة ثلاثة مليارات دولار سنوياً، ويستفيد أولاً بأول من التكنولوجيا العالمية المتطورة في السلاح والأمن والمعدات وغيرها. والدول الكبرى وأوروبا وكثير من دول العالم تعترف بـ"حقّ إسرائيل في الوجود" وبدولتها المنشأة على ٧٨٪ من أرض فلسطين. وهذه الدول تقف مع هذا الكيان في حال تعرضه للخطر أو أي تحديات جدية. وهذا بخلاف ما حدث في أفغانستان مثلاً عندما دعمت

الولايات المتحدة وأوروبا، فضلاً عن العالم الإسلامي الجهاد ضدّ الاتحاد السوفيتي، الذي كانت تجد فيه عدوها ومنافسها التقليدي.

٣. مساحة أرض فلسطين صغيرة مقارنة بالجزائر وأفغانستان مثلاً، فهي حوالي ١٪ فقط من مساحة الجزائر، فضلاً عن أن التضاريس في فلسطين لا تساعد كثيراً على حرب العصابات وتشكيل قواعد عسكرية طويلة الأمد مقارنة بأفغانستان والجزائر، وهذا أفقد مجاهدي فلسطين الكثير من القدرة على المناورة والعمل والاستمرار.

٤. لم ينعم مجاهدو فلسطين بقواعد عسكرية ومراكز تحشيد وانطلاق في الدول المحيطة بالكيان الإسرائيلي، بعكس المقاومة الأفغانية التي كان لها قواعدها في باكستان، وقد مُنع مجاهدو فلسطين من شنِّ العمليات من خارج الأرض المحتلة، وأغلقت في وجوههم طرق الإمداد والتسليح، وقد جعل هذا أي عمل على مستوى كبير أمراً يكاد يكون مستحيلاً.

٥. إن أبناء فلسطين الموجودون بكثافة في مساحات ضيقة تحت الاحتلال موضوعون تحت رقابة أمنية لصيقة تحصي عليهم أنفاسهم، تصادر أرضهم، وتدمر بيوتهم، وتحاربهم في معيشتهم، وتعتقل وتقتل دونما تردد.

٦. إن قضية فلسطين أساساً ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، وإنشاء الكيان الإسرائيلي جاء نتيجة تآمر دولي كبير لزرعه في قلب العالم الإسلامي وتمزيقه ومنع وحدته وإبقاء الهيمنة الغربية – الصهيونية عليه. ولذلك فالقضية أكبر من أن تكون قضية الفلسطينيين وحدهم، وإنما قضية المسلمين كلهم، ولا يمكن أن تحُلَّ هذه القضية إلا إذا ارتقى المسلمون أنفسهم إلى مستوى التحدي.

٧. إن المعركة لم تتخذ بعد طابعها الإسلامي العام، ولم تتولَّ الحركة الإسلامية الفلسطينية بعد القيادة السياسية للشعب الفلسطيني، وهي ما تزال تعاني من ضعف الإمكانات، وشحّ الدعم العربي والإسلامي، وعدم توفر قواعد التدريب والتحشيد والإسناد.

٨. إن منظمة التحرير الفلسطينية التي لا شكّ بأن لها ثقلها الكبير في الساحة قد دخلت في التسوية السلمية وتخلت عن البندقية، وتعاونت مع السلطات الإسرائيلية في ضرب المقاومة الإسلامية والجهاد، بحجة الحفاظ على التزاماتها في اتفاقيات السلام.

٩. لا يجوز حصر الجهاد في فلسطين في فترة الانتفاضة وما بعدها، فمنذ العشرينيات من هذا القرن وجذوة الجهاد مستعرة، وقد بذل الفلسطينيون عشرات الآلاف من

الشهداء ومئات الآلاف من الجرحى، وما يزال هناك حوالي أربعة ملايين فلسطيني مشرد في أرجاء الأرض.

إن العوامل السابقة جعلت العمل الجهادي في فلسطين (في هذه المرحلة) كمن يسبح عكس تيار جارف، بل إن عملاً جهادياً مهما كان نوعه وبساطته يستحق التقدير في مثل هذه الأجواء التي تخاذل فيها الكثيرون وهم يلهثون نحو اتفاقات السلام مع الكيان الإسرائيلي، ويضيقون حتى على من يجمع الزكاة والخيرات لأيتام فلسطين ونسائها وشيوخها، فضلاً عن مجاهديها، ويدينون كل عملية يقوم بها المجاهدون، ويصفونها بـ"الإرهاب".

غير أن ما سبق لا يخلي أبناء فلسطين، وخصوصاً التيار الإسلامي من المسؤولية، فما زال أمامه الكثير من العمل للارتقاء بأفراده وتقوية صفه الداخلي ومؤسساته، وتحديد برامجه واستراتيجياته، وفي توسيع دائرة انتشاره وتأييده وسط الشعب الفلسطيني، وفي توعية العالم الإسلامي بدوره ومسؤولياته...، وفي إبقاء جذوة المقاومة والجهاد مهما غلت التضحيات....

وفي مثل هذه الظروف، فإن جهاد الحركة الإسلامية في فلسطين لا يستهدف تحريرها عاجلاً ومباشرة، وإنما يتعامل معها كمعركة طويلة الأمد ربما تتداولها الأجيال حتى يأذن الله بالنصر. ففي مثل هذه الأجواء الحالكة تسعى الحركة الإسلامية لتجاوز المرحلة بالمحافظة على الحق وإبقاء جذوة الجهاد. وهو ما عبر الناطق الرسمي باسم حركة حماس إبراهيم غوشة عنه عندما قال:

> حركة حماس هي حركة شعبية محدودة الإمكانات والفعاليات، هدفها الرئيسي والأساسي، كما ذكرت سابقاً، أن تبقى جذوة الجهاد والمقاومة في أرض فلسطين، ولتبقى مائة سنة أخرى...، وإذا كانت الحروب الصليبية قد استمرت طوال مائتي عام حتى تمّ التخلص من الغزاة فإن حركة حماس تنظر إلى الصراع مع الصهاينة بنفس طويل، ليستمر الصراع مع الصهاينة مائة سنة أخرى نحن لسنا في عجلة من أمرنا، أهم ما في الموضوع أن يبقى الشعب الفلسطيني متمسكاً بأرضه، ويعبر عن هذا التمسك بالمقاومة والجهاد[١٦٥].

وفي ضوء ما سبق يمكن فهم الدور الجهادي لحركة حماس وغيرها من الحركات الجهادية، وهو دور أثبت تواجده على الساحة، وفرض نفسه على الأحداث على

الرغم مما واجهه من صعوبات وضعف الإمكانات، وقد أمكن لحماس تجاوز هذه الصعوبات بوجود نوعية من الرجال مستعدة للتضحية والاستشهاد. ويعترف المحللون الإسرائيليون أن "حماس قد صكت نماذج جديدة للإنسان الفلسطيني، وهم الاستشهاديون الجدد"[١٦٦]، ويذكر أحد الخبراء أن حماس قد أثبتت أنها الرقم الأصعب في المعادلة الفلسطينية[١٦٧].

ويقول زئيف شيف Ze'ev Schiff، الخبير العسكري الإسرائيلي، عن حماس "أن إسرائيل تواجه كياناً أيديولوجياً يلتزم بمبادئه مهما كانت الظروف والضغوط قاسية، فكلما نجحت قوات الأمن في اعتقال عدد من ناشطي حماس كانت حماس تتعافى وتعود من جديد"[١٦٨].

ومن جهة أخرى فقد طورت حماس إمكاناتها وقدراتها الذاتية وكفاءة عملها، فقد ذكر مصدر عسكري رفيع المستوى في الجيش الإسرائيلي "أن هناك ارتفاعاً هاماً في قدرتهم التنفيذية، وهناك تحسن واضح في جمع المعلومات الاستخبارية، ولا سيّما على مستوى المعلومات الضرورية للعمليات، وهم يستخلصون العبر، ويحللون ويفحصون، ويجمعون الحقائق قبل التنفيذ، ويحددون ويصيبون من الضربة الأولى"[١٦٩]. ونسبت جريدة الجيروزاليم بوست The Jerusalem Post الإسرائيلية إلى د. يفراح زلبرمان Yifrakh Zilberman من معهد ترومان Truman Institute التابع للجامعة العبرية، وهو خبير مهتم بحماس قوله عنها "المنظمة تتمتع بالديناميكية، وهذا جزء مهم من سرّ قوتها، إنها تعمل على أساس المبادرة والقيادة في الشارع الفلسطيني، وهناك مجموعات متفرعة متحالفة لكن بغير بنية قيادية ثابتة، وتحت ظروف الانتفاضة يعتبر ذلك ميزة"[١٧٠]. أما الجنرال أوري ساغي Uri Sagi، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية، فذكر في مقابلة مع جريدة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية Yedioth Ahronoth في ١٩٩٣/٤/٥م أن رجال حماس "يعرفون المنطقة أكثر من القوات الإسرائيلية التي تواجههم ولديهم أساليب عمل متطورة...، لديهم مستوى عالٍ من السرية ومن مراقبة القوات الإسرائيلية، ويحضرون لعملياتهم تحضيراً جيداً"، وقال: إن حماس تنفذ عمليات "بارزة وقاسية"[١٧١].

إن قوة أداء حماس على الساحة دفع وزير الإسكان والبناء الإسرائيلي الجنرال بنيامين بن إليعازر Binyamin Ben-Eliezer، الذي شغل منصب القائد العسكري

للضفة الغربية سابقاً، إلى القول في أواخر آذار/ مارس ١٩٩٣م إن أمام "إسرائيل" خيارين، إما الرضوخ وإما مواصلة المواجهة حتى النهاية، و"نحن اخترنا الثاني، وعلينا أن نقرر من يحكم هنا حركة حماس أم حكومة إسرائيل"[١٧٢].

وحسب تصريح إبراهيم غوشة فإن حماس قد قدمت منذ الانتفاضة حوالي ٧٠٠ شهيد[١٧٣] فضلاً عن آلاف الجرحى والأسرى والمعتقلين، وهو رقم لا يبدو يسيراً في أجواء العمل الصعبة في فلسطين، ودون الدخول في معارك "تحرير" وحروب ومواجهة ذات طبيعة شاملة مع الكيان الإسرائيلي.

وعلى أي حال، فسنقدم في الصفحات التالية مجملاً لفعاليات حماس الجهادية.

مع بروز حماس بشكل متزايد منذ بدء الانتفاضة تصاعدت وتيرة نشاطها الجهادي، فقد تطورت هذه الفعاليات من الإضرابات والمظاهرات وكتابة الشعارات على الجدران والبيانات، وإشعال الإطارات في الشوارع إلى إلقاء الحجارة وقنابل المولوتوف على جنود العدو. وتطورت إلى عمليات طعن الجنود الإسرائيليين بالسكاكين وتصفية العملاء والخونة، ثم إلى مهاجمة العدو بالأسلحة الرشاشة ونصب الكمائن وتفجير السيارات الملغومة. وقد زادت سنوات الانتفاضة حماس خبرة وصلابة وإبداعاً، واستعصت على حملات السحق والإبادة والاعتقال، ولولا أن م.ت.ف دخلت في التسوية السلمية ونسقت بنشاط وفعالية مع السلطات الإسرائيلية لوأد جهاد حماس وإيقافه، لكان لفعالية حماس الجهادية شأن آخر.

كان من أوائل عمليات حماس العسكرية ضدّ جنود الاحتلال خطف الجندي آفي ساسبورتس Avi Sasportas في ١٩٨٩/٢/٣م وقتله، ثم خطف الجندي إيلان سعدون Ilan Sa'adon في ١٩٨٩/٥/٣م وقتله[١٧٤]. وقد تلى ذلك حملة مكثفة شنتها السلطات الإسرائيلية في أيار/ مايو ١٩٨٩م ضدّ عناصر حماس ومؤيديها، حيث اعتقلت المئات، وكان من أبرز المعتقلين شيخ الانتفاضة ومؤسس حماس الشيخ أحمد ياسين، الذي اتهم بقيادة حماس وإصدار التوجيهات والفتاوى بالعمليات وقتل العملاء. وقد حُكم على الشيخ أحمد ياسين بالسجن المؤبد مرتان، بالإضافة إلى ١٥ عاماً أخرى!! وهو الشيخ المقعد المشلول الجسد تماماً، والذي يعاني من أمراض مزمنة وصعبة وناهز عمره الستين عاماً، لكنه يحتفظ بعزة المسلم، ويستعلي على آلامه وأعدائه، ويحرِّك بهمته وإصراره أمةً همدت واستكانت وشُلَّت حركتها تجاه قُدسها وأرضها المباركة، ويلهم بصبره وتضحيته الأجيال، نسأل الله أن يأجره ويثبته ويفرِّج عنه.

ومما قاله الشاعر خالد أبو العمرين في إثر اعتقال الشيخ أحمد ياسين:

كنت الهلال سجين الجسم هامد	واليوم تمّ البدر والأنوار
هي حكمة المولى بأنك مقعد	يهوي أمام حماسه الفجار
يا أحمد الياسين أنت إمامنا	ويشدنا إيمانك الجبار
قد أقعدتنا شهوة وهزيمة	وتقوم أنت يمينك الإعصار
يا أحمد الياسين خفف سرعة	زعماؤنا أقدامهم فخَّار
يا أيها البطل المحرِّك أمة	هلا تحرك سادة وكبار
يا ميت الجسم الصغير أقمتنا	تحي هزال جسومنا الأحجار
سبحان ربي إن هذي آية	وبها يزول الخوف والإعذار[١٧٥]

وقد ظهر من التحقيقات التي انتزعتها السلطات الإسرائيلية تحت التعذيب وجود ثلاثة أجنحة لحركة حماس:

- الجناح السياسي الذي اتهم الشيخ أحمد ياسين بقيادته.
- والجناح العسكري (المجاهدون) الذي اتهم صلاح شحادة بقيادته.
- والجناح الأمني (مجد) الذي اتهم يحيى السنوار بقيادته[١٧٦].

غير أن حماس سرعان ما أعادت ترتيب صفوفها واستأنفت نشاطها الجهادي، فكان منها عملية الشيخ عجلين في غزة في ١٩٨٩/١١/١٣م، والتي أدت لمقتل جنديين، وعملية البقعة في ١٩٩٠/١٠/٢٠م، حيث أوقع عامر أبو سرحان ثلاثة قتلى، وعملية هيثم شفيق جملة في ١٩٩٠/١٠/٢٩م التي أدت لاستشهاده ومقتل مستوطن، وعملية الانطلاقة في ١٩٩٠/١٢/١٤م، والتي أوقعت ثلاثة قتلى، وبعد هذه العملية الأخيرة بالذات تعرضت حماس لحملة اعتقالات واسعة شملت معظم عناصرها ومؤيديها، غير أنها تجاوزت المحنة، وخرجت أصلب عوداً، وأكثر تنبهاً وجرأة وخبرة، فكانت عملية محمد أبو جلالة في ١٩٩١/٣/١٠م التي أوقعت أربعة قتلى، وعملية راتب زيدان في ١٩٩١/١٠/١١م التي أوقعت قتيلين و١١ جريحاً[١٧٧]. ونشطت عناصرها الجهادية تحت تشكيل "كتائب الشيخ الشهيد عز الدين القسام" الذي تُعزى بدايات تشكيله السرية إلى أيار/ مايو ١٩٩٠م[١٧٨]،

وأخذت تقوم بعمليات نوعية قوية لم تستطع الحملات المتوالية وكافة وسائل البطش والتنكيل والملاحقة الصهيونية أن توقفها، مما يظهر مدى إصرار حماس على الجهاد وتجذُّرها وشعبيتها وقدرتها على التجنيد وكفاءتها في العمل والاستمرار في ظروف صعبة جداً.

وليس هنا مجال لتتبع كافة عمليات حماس العسكرية، وإنما سنمرّ بأبرز محطات جهادها. فمع الذكرى الخامسة للانتفاضة صعدت حماس عملياتها فهاجم مجاهدوها في "عملية الشجاعية" في ١٩٩٢/١٢/٧م سيارة جيب عسكرية وقتلوا ثلاثة جنود إسرائيليين، ووصفت جريدة يديعوت أحرونوت في عددها الصادر في ١٩٩٢/١٢/٨م كتائب القسام بأنها "أجرأ الخلايا الموجودة في المناطق، حيث تمتاز بالحكمة والجرأة القتالية، ويمتازون بالذكاء والمهارة العسكرية"[١٧٩].

ثم قامت حماس "بعملية الحاووز" في الخليل في ١٩٩٢/١٢/١٢م فهاجمت دورية إسرائيلية وقتلت جندياً وجرحت اثنين آخرين أحدهما جروحه خطيرة[١٨٠]. غير أن الحادث الذي هزّ أمن الكيان الصهيوني في الصميم، وكانت له انعكاساته الواسعة محلياً ودولياً هو عملية "الوفاء للشيخ أحمد ياسين" إذ قام مجاهدو حماس باختطاف العسكري الإسرائيلي نسيم توليدانو Nissim Toledano وهو برتبة رقيب أول في ١٩٩٢/١٢/١٣م، بينما كان يغادر منزله في مدينة اللد متوجهاً إلى مقر سريته في حرس الحدود في رام الله، وقاموا بإخفائه وطالبوا بإطلاق سراح الشيخ أحمد ياسين مقابل إطلاق سراحه وأعطوا مهلة عشر ساعات لذلك. وقد ماطلت السلطات الإسرائيلية ورفضت "الرضوخ تحت ضغط الخاطفين" فقامت حماس بتنفيذ تهديدها، إثباتاً لجديتها، وقتلت توليدانو بعد انتهاء المهلة المقررة[١٨١].

شكَّل اختطاف توليدانو إهانة وصفعة كبيرة للأمن الإسرائيلي الذي يفاخر بأنه من أكفئ الأجهزة في العالم، وهزّ اختطافه من أمام بيته مَنْ هم "أحرص الناس على حياة"، فقامت السلطات الإسرائيلية بحملة تنكيل واعتقالات شملت حوالي ١٣٠٠ من مؤيدي حماس، وألقى رئيس الوزراء إسحق رابين خطاباً في البرلمان الإسرائيلي "الكنيست" أعلن فيه الحرب الشاملة على حركة حماس، ونقلت إذاعة الجيش الإسرائيلي عن مصدر عسكري رفيع المستوى في الجيش أن "حماس أصبحت العدو الأول والصانع الرئيسي للإرهاب، وسيشمل القمع كل البنية السياسية والعسكرية..."[١٨٢]. وقامت السلطات الإسرائيلية بإبعاد ٤١٥ رجلاً أغلبهم من الإسلاميين المؤيدين لحماس ومن

ضمنهم أيضاً عدد من مؤيدي حركة الجهاد الإسلامي، ونفذ هذا القرار مساء الخميس ١٧/١٢/١٩٩٢م حيث قُذف بالمبعدين خارج الحدود الفلسطينية الشمالية مع لبنان، غير أن المبعدين رفضوا الإبعاد وأقاموا في "مرج الزهور" بين الحاجزين الحدوديين اللبناني والإسرائيلي. وقد عانى المبعدون وصمدوا في ظروف قاسية، وعرف العالم حقيقة الظلم الذي يعانيه شعب فلسطين، خصوصاً وأن الإبعاد شمل الكثير من الشخصيات الأكاديمية والعلماء والأساتذة والمهندسين والأطباء. وتحت الضغط الدولي ولأن المبعدين كسبوا المعركة الإعلامية، وافق الإسرائيليون على العودة التدريجية للمبعدين التي اكتملت بعد عام من الإبعاد[١٨٣]، غير أن العديد منهم لم يسلم من الاعتقال والسجن وعلى رأسهم د. عبد العزيز الرنتيسي الذي ظلّ معتقلاً حتى آب/ أغسطس ١٩٩٦م.

وشهدت ١٩٩٣م تطوراً نوعياً في أداء كتائب عز الدين القسام، الذراع العسكري لحركة حماس، فحسب إحصائية أعدها الباحث غسان دوعر قامت حماس بـ ١٣٨ عملية عسكرية تنوعت من الكمائن إلى الهجمات الخاطفة وخطف الجنود والعمليات الاستشهادية والاشتباكات المسلحة وغيرها. وقد خسر الكيان الصهيوني جراء هذه العمليات ٧٩ قتيلاً و ٢٢٠ جريحاً حسبما ذكرت المصادر الإسرائيلية، غير أن الخسائر حسبما تشير الدلائل أكبر من ذلك بكثير، أما حماس فقد قدت ٣٣ شهيداً[١٨٤]، وليس هناك تقليل لخسائر حماس فجميع الأحداث والأسماء معروفة، لكن أساليب حرب العصابات ونصب الكمائن والعمليات الاستشهادية وتفجير السيارات المفخخة التي اعتمدتها حماس جعل إمكانية الإصابة في القوات الإسرائيلية أكبر منها في حماس.

وكان من العمليات المميزة عملية تصفية النقيب حاييم ميخائيل نحماني Haim Nahmani في ٣/ ١/ ١٩٩٣م، وهو ضابط في جهاز الأمن العام (الشاباك) Israel Security Agency–ISA (Shabak)، وكان نحماني المعروف باسم "كابتن عفيف" يُعد أحد أفضل وأنشط عناصر جهاز الشاباك، وقد شكلت هذه العملية اختراقاً لجهاز الأمن الصهيوني، إذ تمكن ماهر أبو سرور من توثيق صلته بـ"الكابتن عفيف" وإظهار التعاون معه كـ"مخبر" بينما أعد له ماهر كميناً محكماً أدى إلى مقتله طعناً بالسكاكين في ضاحية ريهافيا بالقدس[١٨٥].

أما عملية "مسيرة الأكفان" الاستشهادية في ١٦/٤/١٩٩٣م فقد اخترقت سيارة جيب مفخخة مستوطنة ميحولا Mehola داخل فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨م شمال شرق

فلسطين، وانفجرت السيارة في ساحة مطعم، يعجُّ عادة بالجنود الصهاينة، بين حافلتين عسكريتين كانتا تنزلان جنوداً مما أسفر عن سقوط عشرات القتلى والجرحى، غير أن السلطات الإسرائيلية أعلنت عن مقتل اثنين فقط وجرح سبعة آخرين[١٨٦].

وفي ١٩٩٣/٤/٢٠م قتل زكريا الشوربجي الكابتن "أبو عوني" ضابط في الشاباك وثلاثة جنود، قبل أن يستشهد في اشتباك عنيف في حي التفاح في غزة، ولم يتمكنوا من قتله إلا بعد قصف المنازل بالصواريخ والقذائف المضادة للدروع وتدمير ١٩ منزلاً، حيث استشهد بشظايا أحد الصواريخ التي أطلقت على المنزل الذي كان يتحصن فيه[١٨٧].

وفي معركة وادي الخليل في ١٩٩٦/٥/١٩م حاصرت قوات كبيرة مجموعة من المجاهدين في حي عيطة جنوب غرب الخليل، وتمكن المجاهدون من الانسحاب بعد أن أحصوا ثلاثة قتلى و١١ جريحاً إسرائيلياً، واستشهد اثنان من حماس هما حاتم المحتسب ويعقوب مطاوع[١٨٨].

ومرة أخرى ووفاءً للشيخ أحمد ياسين وللمعتقلين في السجون الإسرائيلية قام ثلاثة من مجاهدي حماس (صلاح عثمان وماهر أبو سرور ومحمد الهندي) في ١٩٩٣/٧/١م باحتجاز باص إسرائيلي في القدس يُقلُّ أربعين راكباً، وطالبوا مقابل الإفراج عن الرهائن بالإفراج عن الشيخ أحمد ياسين، وعن خمسين عنصراً من كتائب عز الدين القسام، وعن عشرة من الجهاد الإسلامي، وعشرة من فتح، وعشرة من الجبهة الشعبية، وعشرة من الجبهة الشعبية – القيادة العامة، وعشرة من الجبهة الديموقراطية والإفراج كذلك عن الشيخ عبد الكريم عبيد زعيم "حزب الله" اللبناني غير أن الجيش الإسرائيلي هاجم الحافلة وحدث تبادل لإطلاق النار جرح على أثره صلاح عثمان بجروح خطيرة، وتمكن الآخران من الانسحاب حيث تمت ملاحقتهما إلى أن استشهدا، وأصيب من الإسرائيليين حسب روايتهم قتيلان وثلاثة جرحى[١٨٩].

وقام عضو حماس سليمان زيدان في ١٩٩٣/١٠/٤م بتفجير سيارته المفخخة في حافلة عسكرية إسرائيلية تقلُّ جنوداً من القوات الخاصة قرب مستوطنة بيت إيل شمال مدينة رام الله، واعترفت السلطات الإسرائيلية بجرح ٢٨ جندياً وسائق الحافلة ومستوطن. وفي اليوم نفسه أعلنت السلطات الإسرائيلية عن مصرع ثلاثة جنود اثنان منهم انتحاراً والثالث في مباراة كرة القدم!![١٩٠]، ومن عادة الصهاينة نسبة إصاباتهم إلى حوادث متفرقة مراعاة للروح المعنوية والوضع الإسرائيلي الداخلي.

وكان من أبرز نماذج الاستشهاد التي اهتزت لها فلسطين استشهاد عماد حسن عقل، الذي ولد في مخيم جباليا في ١٩٧١/٦/١٩م ونشأ نشأة إسلامية وسجن في ١٩٨٨/٩/٢٣م بتهمة الانتماء لحماس والمشاركة في الانتفاضة وخرج من المعتقل في آذار/ مارس ١٩٩٠م، ثم أصبح مسؤولاً في مجموعة "الشهداء" التابعة لكتائب القسام، والتي عملت شمال القطاع، وأصبح مطارداً من القوات الإسرائيلية منذ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١م، وقد تنقل في جهاده وتجنيده للعناصر بين قطاع غزة والقدس والخليل[١٩١].

واستطاع على الرغم من حالة المطاردة الحثيثة أن يقوم بعمليات عديدة موجعة وناجحة حولته إلى كابوس يطارد مطارديه. وكان يسعى للشهادة دائماً ويقول: "ماذا يستطيع رابين أن يفعل ضدّ شاب قرر أن يموت؟"[١٩٢]، وتنسب إليه المصادر العسكرية الإسرائيلية قتل ١١ جندياً وأحد المستوطنين الإسرائيليين وأربعة عملاء، فضلاً عن الكثير من الجرحى، وهو ما كانوا يعدّونه "أكثر السجلات دموية لأي مخرب فلسطيني"[١٩٣].

وقد كان استشهاد عماد عقل في ١٩٩٣/١١/٢٤م، بعدما أفطر من صيام تطوع عند بعض زملائه في حي الشجاعية في قطاع غزة، إذ شعر بمحاصرة المكان فقال لإخوانه "حضر موعد استشهادي". وبالفعل فقد كانت قوات كبيرة من الجيش الإسرائيلي وحرس الحدود قُدِّرت بستين سيارة عسكرية تحاصر المكان، فصعد عماد عقل إلى سطح المنزل وتبادل إطلاق النار مع الجنود حتى أصابته قذيفة مضادة للدروع مزّقت جسده أشلاء. وعندما أخرجت جثته، أطلق الجنود الصهاينة النار بغزارة عليها حيث استقرت في جثته حوالي سبعين رصاصة، فضلاً عن قيام بعض الجنود بطعنها بالسكاكين!![١٩٤]، وقد اعتبر إسحق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي قتل عماد عقل إنجازاً ضخماً وعظيماً[١٩٥].

وقد انتقمت كتائب القسام لاستشهاد عماد عقل في "عملية عماد عقل" بعد شهر من استشهاده في ١٩٩٣/١٢/٢٤م، عندما نصبت كميناً في حي الشيخ رضوان في غزة لسيارتي جيب إسرائيليتين، مما أدى لمقتل العقيد مئير مينتس Meir Mintz (منسق نشاطات الوحدات العسكرية الخاصة في قطاع غزة) وإصابة ضابط يرافقه برتبة رائد

إصابات بالغة أدت لوفاته بعد يومين، بينما أصيب اثنان آخران بجراح. وقد كانت هذه العملية ضربة قاسية للجيش الإسرائيلي؛ لأن العقيد مئير مينتس يُعدُّ حسبما ذكر المعلق الإسرائيلي المعروف أليكس فيشمان Alex Fishman في جريدة معاريف Maariv الصادرة في ١٩٩٣/١٢/٢٦م "القلب والعقل المفكر للحرب الخاصة ضدّ الإرهاب، ورمزاً من رموز الجيش الإسرائيلي في محاربة الانتفاضة"[١٩٦].

ومنذ ١٩٩٤ ازدادت صعوبة الأداء الجهادي لحركة حماس بعد دخول اتفاقات أوسلو حيز التنفيذ، وتسلُّم منظمة التحرير الفلسطينية الحكم الذاتي في قطاع غزة وأريحا، اعتباراً من أيار/ مايو ١٩٩٤م، ثم توسع مناطق الحكم الذاتي ليشمل قرى الضفة الغربية ومعظم مدنها في أواخر ١٩٩٥م، وقد وجدت حماس نفسها تحت ضغط سلطة فلسطينية تمنعها من ممارسة عملها الجهادي، وتحت حملات قمع وتنكيل واعتقال متوالية تُشنُّ عليها بالتنسيق بين السلطات الفلسطينية والإسرائيلية.

وفي الوقت الذي ربطت السلطات الإسرائيلية مدى التقدم في عملية السلام وتسليم بعض الصلاحيات لسلطة الحكم الذاتي الفلسطيني بمدى قدرة ونجاح سلطات الحكم الذاتي الفلسطيني في قمع حماس، وتصفية وجودها، إلا أن حماس رفضت الدخول في حرب مع السلطة الفلسطينية وصبرت على الأذى، وكلما زاد الضغط عليها كلما ركزت انتقامها وفعالياتها ضدّ العدو الصهيوني.

وبشكل عام فإن الفعالية النوعية لأداء حماس الجهادي قد ازدادت منذ ١٩٩٤م على الرغم من قسوة الظروف، وبرز نجم يحيى عياش، وتلقى الكيان الإسرائيلي ضربات موجعة، خصوصاً بعد نجاح أسلوب العمليات الاستشهادية في التجمعات الإسرائيلية. فعندما وقعت مجزرة الحرم الإبراهيمي للمصلِّين الذين كانوا يؤدون صلاة الفجر في منتصف رمضان ١٤١٤هـ - ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩٤م على يد ضابط الاحتياط الإسرائيلي باروخ جولدشتاين، تعهدت حماس بالانتقام للمصلين الأبرياء الذين استشهدوا وكان عددهم ٢٩ ولعشرات الجرحى، فبعد أن كانت حماس تركز على الأهداف العسكرية فقط والجنود الإسرائيليين، وسّعت حماس دائرة الصراع ليشمل المجتمع الإسرائيلي كله، وذلك لاعتبارات هي حسب رأي حماس:

- إن السلطات الإسرائيلية لم تتورع يوماً عن قتل الأبرياء من النساء والشيوخ والأطفال طوال تاريخها ومن بينهم المئات ممن سقطوا بأسلحتها الفتاكة خلال فترة الانتفاضة. (نشرت جريدة الأسواق في ١٩٩٦/٣/٢٥م تقريراً لمؤسسة

التضامن الدولي لحقوق الإنسان أن السلطات الإسرائيلية قتلت خلال الانتفاضة ١٢٧ شهيدة من النساء، و٢٦٨ طفلاً).

- إنه لا بدّ من المعاملة والمواجهة بالمثل ليدرك الطرف الآخر مدى المعاناة والألم التي يسببها للجانب الفلسطيني بقتل نسائه وأطفاله وشيوخه، وهو ما أجازه الإسلام ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ﴾[١٩٧]، وعلى حدِّ تعبير إبراهيم غوشة، الناطق الرسمي باسم حماس: "لا يعقل أن يكون الدم اليهودي للمدنيين مقدساً والدم الفلسطيني للمدنيين مهدوراً بلا ثمن"[١٩٨].
- إن المجتمع الإسرائيلي مجتمع محارب مغتصب للأرض وحقوق المسلمين والفلسطينيين، ورجاله ونساؤه محاربون يتدربون على القتال منذ الصغر، وهو ما أشار إليه عدد من العلماء المسلمين بجواز قتالهم والعمليات الاستشهادية في أوساطهم، مثل الشيخ يوسف القرضاوي[١٩٩].
- إن حماس قدَّمت أكثر من مبادرة (منذ نيسان/ أبريل ١٩٩٤م) بأن يتم إخراج المدنيين الفلسطينيين واليهود من دائرة الصراع، ولكن الحكومة الإسرائيلية رفضت الاستجابة، واستمرت في إجراءاتها وسياساتها ضدّ المدنيين[٢٠٠] (كان أحدها مجزرة قانا في جنوب لبنان عندما قصفت القوات الإسرائيلية ملجأ يحتمي فيه المدنيون وقتلت أكثر من مئة من النساء والأطفال والشيوخ في نيسان/ أبريل ١٩٩٦م).

وكانت أولى عمليات الانتقام لمجزرة الحرم الإبراهيمي تفجير رائد زكارنة نفسه في حافلة للركاب الإسرائيليين في العفولة في ١٩٩٤/٤/٦م، مما أدى لمقتل ثمانية إسرائيليين، وجرح خمسين آخرين، ثم تفجير عمار عمارنة حافلة أخرى للركاب في الخضيرة في ١٩٩٤/٤/١٣م، مما أدى لمقتل خمسة وجرح ٣٢ آخرين، وكان بين القتلى والجرحى عدد من الجنود الصهاينة[٢٠١].

وفي عملية القدس في ١٩٩٤/١٠/٩م فتح عضوا كتائب القسام حسن عباس (من غزة) وعصام الجوهري (من مصر) النار باتجاه الصهاينة في حي نحلات شفعا، مما أدى لمقتل اثنين وجرح ١٦ آخرين، ودخلا في معركة استمرت أربعين دقيقة أدت لاستشهادهما[٢٠٢].

وفي ١٩٩٤/١٠/١١م أعلنت كتائب القسام أنها تحتجز الجندي الصهيوني نحشون فاكسمان Nahshon Waxman، وطالبت بالإفراج عن مئات المعتقلين وعلى رأسهم

الشيخ أحمد ياسين مقابل إطلاق سراحه. وقد هزت هذه العملية الكيان الإسرائيلي الذي قطع مفاوضات نقل الصلاحيات، وتوسيع الحكم الذاتي في القاهرة، وضغط على السلطة الفلسطينية بقيادة عرفات، والتي قامت من جهتها بحملة اعتقالات واسعة شملت أكثر من ٤٠٠ من كوادر وعناصر حماس وقامت بتحقيقات أدت لحصولها على طرف الخيط الذي قاد القوات الصهيونية لمعرفة مكان احتجاز الجندي. وفي مساء ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر، وبعد أن قررت كتائب القسام تمديد الاحتجاز ٢٤ ساعة بعد أن أبدى رابين مرونة في الاستجابة لبعض مطالبها، قامت وحدة خاصة من الجيش الإسرائيلي بعملية غادرة أدت إلى مقتل الجندي الرهينة وقائد الوحدة وجرح ١٢ جندياً إسرائيلياً واستشهد ثلاثة من أعضاء كتائب القسام كما تمّ اعتقال آخر.

وقد سارعت حركة حماس بتوجيه ردها الخامس على مجزرة الخليل في عملية نفذها صالح صوي في ساحة ديزنكوف بقلب تل أبيب في ١٩٩٤/١٠/١٩م، حيث فجر باصاً مكتظاً بالركاب في منطقة مزدحمة، مما أدى لاستشهاده، وإلى مقتل ٢٢ إسرائيلياً وجرح ٤٨ آخرين[٢٠٣].

وفي ١٩٩٤/١٢/٢٥م قام أيمن راضي بتفجير نفسه بجانب باص إسرائيلي يُقلُّ ضباطاً وجنوداً يخدمون في سلاح الطيران الإسرائيلي، مما أدى إلى استشهاده وإصابة ١٢ إسرائيلياً منهم اثنين بحالة خطرة[٢٠٤].

وفي تلك الفترة برز اسم يحيى عياش كمسؤول أول عن التفجيرات الاستشهادية وباعتباره المطلوب رقم واحد للسلطات الإسرائيلية. وكان يحيى عياش هو قائد مجموعات الاستشهاديين في كتائب القسام الذراع العسكري لحماس. وقد ولد عياش في قرية رافات شمال الضفة الغربية في ١٩٦٦/٢/٢٢م وأتم حفظ القرآن وتخرج مهندساً كهربائياً من جامعة بيرزيت في ١٩٩٣م[٢٠٥]، حيث بدأت مطاردته في تلك الفترة، وقد زادت كثافة البحث عن عياش منذ أواخر ١٩٩٤م، وقالت مصادر أمنية إسرائيلية: إن آلافاً من الجنود وحرس الحدود وعناصر قوات الأمن والاستخبارات يشاركون في أوسع حملة مطاردة تستهدف يحيى عياش...، ووصفه مسؤول أمني كبير بأنه "ذكي ومتملص بارع"[٢٠٦]. وقال شمعون رومح أحد كبار الضباط السابقين في الشاباك في ندوة بثها التلفزيون الإسرائيلي شارك فيها عدد من الخبراء حول عياش: "إنه لمن دواعي الأسف

أن أجد نفسي مضطراً للاعتراف بإعجابي وتقديري لهذا الرجل الذي يبرهن على قدرات وخبرات فائقة في تنفيذ المهام الموكلة إليه، وعلى روح مبادرة عالية، وقدرة على البقاء، وتجديد النشاط دون انقطاع"[٢٠٧].

وأعلن رئيس الشاباك قبل تسلمه منصبه في ١٩٩٥/٣/١م أن الهدف الأول له هو إلقاء القبض على عياش[٢٠٨]. واستطراداً نقول: إن رئيس الشاباك هذا واسمه "كارمي غيلون" Carmi Gillon قد قدَّم استقالته بعد ثلاثة أيام من استشهاد عياش، أي في ١٩٩٦/١/٨م، بعد نجاحه في هذه المهمة[٢٠٩]. وحتى منتصف آب/ أغسطس ١٩٩٥م كان الجنود الإسرائيليون قد داهموا منزل يحيى عياش ٩٦ مرة، وفي كل مرة يقومون بتخريب المنزل وشتم الموجودين وإرهابهم[٢١٠].

لم تمنع هذه الظروف التي تكاد تكون مستحيلة يحيى عياش ورفاقه من الاستمرار في العمل، وزادته مطاردات السلطات الإسرائيلية والفلسطينية المكثفة والمضنية إصراراً على المضي، وبرع في التخفي ودرَّب الكثير، من رفاقه على مهارات القنابل المفخخة التي يملكها. وتابعت حماس عملياتها وتقديم الشهداء.

وفي ١٩٩٥/٤/٢م استشهد كمال كحيل، المطلوب رقم ٢ لدى الإسرائيليين بعد عياش، وعدد من رفاقه في انفجار مدبَّر وقع في منزل يختبئ فيه في حي الشيخ رضوان بغزة. وكحيل معروف بحزمه ونشاطه، وكان معروفاً في غزة أنه "الأكثر جرأة والأقل خوفاً" وهو مطارد منذ ١٩٩٢م، وسبق له أن قاد الهجوم الذي أدى لمقتل مئري منتس، منسق عمل الوحدات الخاصة في قطاع غزة، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣م[٢١١].

وفي ١٩٩٥/٦/٢٥م فجر معاوية روكة نفسه بدوريتين إسرائيليتين، مما أسفر عن جرح ثلاثة جنود حسب المصادر الإسرائيلية واستشهاد الشاب نفسه[٢١٢].

ونفذت حماس أيضاً عملية رامان غان في ١٩٩٥/٧/٢٤م عندما قام أحد أبنائها بتفجير نفسه فقتل سبعة إسرائيليين وجرح ٣٢ آخرين[٢١٣]. وفي الذكرى الـ ٢٦ لإحراق المسجد الأقصى نفذ أحد مجاهدي حماس عملية القدس الاستشهادية في رامات أشكول Ramat Eshkol فقتل خمسة إسرائيليين وجرح ١٠٢ آخرين[٢١٤].

هذه بعض نماذج عمليات حماس خلال ١٩٩٥م، وهناك عمليات وصدامات أخرى يصعب حصرها هنا... كاستشهاد طاهر قفيشة، القائد المحلي لكتائب القسام في الخليل، في ١٩٩٥/٦/٢٩م بعد معركة قوية[٢١٥]، واستشهاد إبراهيم قواسمي ونادر شحادة عضوا كتائب القسام بعد معركة مع الجيش الإسرائيلي في مدينة الخليل في ١٩٩٥/٨/٢٥م[٢١٦].

وكان يوم الجمعة ١٩٩٦/١/٥م يوماً حزيناً في تاريخ فلسطين، إذ استشهد يحيى عياش في ذلك اليوم بعد مطاردات طويلة استمرت ثلاث سنوات وظّف خلالها الكيان الإسرائيلي جميع إمكاناته الأمنية والعسكرية التي تعدّ ضمن أكفأ الأجهزة عالمياً، وحمَّلته "إسرائيل" مسؤولية ستّ عمليات كبرى استشهادية أدت لمقتل سبعين إسرائيلياً وجرح ما لا يقل عن ٣٤٠ آخرين[٢١٧].

وقد تمّ اغتيال عياش باستخدام تقنيات عالية، في مخبئه في منطقة بيت لاهيا في قطاع غزة. واتهم أسامة حماد، الذي كان يؤوي عياش في بيته، والذي كان صديقه منذ الدراسة في جامعة بيرزيت وهو نفسه الرئيس السابق للكتلة الإسلامية فيها، اتهم خاله كمال حماد بتفخيخ هاتف نقال كان قد أعطاه لأسامة قبل ثلاثة أشهر بعد أن بدأ أسامة العمل معه في شركته، وكان يستعيده بين حين وآخر بأعذار مختلفة. وفي صباح ذلك اليوم عطَّل الإسرائيليون هاتف البيت العادي، مما اضطر والد عياش للاتصال به على التليفون النقال، وعندما بدأ الحديث معه قال لأبيه "يا أبي لا تظل تتصل على التليفون" وانفجر الهاتف في رأس يحيى. جريدة معاريف الإسرائيلية قالت: إن طائرة هليكوبتر إسرائيلية كانت تحلق فوق بيت لاهيا، وأن أحد طاقم الطائرة ضغط زر انفجار العبوة الناسفة الموضوعة في الهاتف النقال والتي تزن خمسين جراماً بعد أن تأكدوا أن المتحدث هو يحيى عندما قال "يا أبي..."[٢١٨].

وذكرت مصادر صحفية إسرائيلية أن العميل كمال حماد استطاع الهرب وهو تحت الحماية الإسرائيلية، وأنه حصل على قرابة مليون دولار نقداً وجواز سفر مزور يستطيع به بدء حياة جديدة[٢١٩].

وقد نعت حماس استشهاد عياش، الذي أصبح رمزاً للبطولة والمقاومة لدى كل الفلسطينيين، واجتمع على حبه واحترامه معارضو اتفاقات السلام وحتى مؤيدوها وكافة الفصائل الفلسطينية في م.ت.ف وخارجها. وقام ياسر عرفات بنفسه بزيارة لمنزل د. محمود الزهار لتعزية حماس وأهله في يحيى عياش[٢٢٠].

وكانت جنازة الشهيد عياش من أكبر الجنازات في تاريخ فلسطين، إذ شارك في جنازته في غزة حوالي ٢٥٠ ألف شخص أي حوالي ثلث سكان قطاع غزة، كما خرجت مسيرات ضخمة في مدن الضفة الغربية شارك فيها عشرات الآلاف في نابلس ورام الله وجنين...

وغيرها. كما أعلن الحداد العام والإضراب في الضفة الغربية وقطاع غزة استجابة لدعوة حماس[٢٢١].

وفي بيان أصدرته حماس يوم استشهاد عياش عاهدت الله على المضي قدماً في برنامج الجهاد والمقاومة، وتعهدت بالرد على الجريمة الصهيونية. كما أصدرت بياناً آخر في ١٩٩٦/١/٧م ثمنت فيه خروج مئات الآلاف من أبناء القطاع في وداع عياش، وقالت: إن ذلك يؤكد التفاف الجماهير على برنامج المقاومة، وأشارت إلى أن النقمة الجماهيرية التي سادت شعوب الأمة الإسلامية تؤكد أنها ما زالت تنبض بالحياة وحبّ الجهاد والمجاهدين، وتلتف حول مشروعهم الجهادي من أجل فلسطين[٢٢٢].

وقد جاء ردُّ حماس قاسياً اهتز له الكيان الصهيوني بأسره، وعاش تسعة أيام من الرعب الذي أفقده صوابه. ففي عملية القدس الأولى في ١٩٩٦/٢/٢٥م التي نفذها إبراهيم أحمد السراحنة فجر نفسه في حافلة إسرائيلية (تعمل على خطّ الحافلات رقم ١٨) مكونة من مقطورتين عند توقفها عند إشارة مرورية، مما أدى لمقتل ٢٤ إسرائيلياً بينهم ١٣ جندياً، وعدد من ضباط وكوادر الشاباك الذين كانوا في طريقهم إلى مقر عملهم، بالإضافة إلى إصابة خمسين إسرائيلياً بجروح، وذلك حسبما أعلن متحدث رسمي باسم الشرطة الإسرائيلية. وفي اليوم نفسه قام مجدي محمد أبو وردة الذي كان يحمل نحو ١٥ كغ من المتفجرات المحشوة بالمسامير، ويرتدي زي الجنود الإسرائيليين، بتفجيرها في محطة لسفر الجنود الإسرائيليين في عسقلان وسط أكثر من ٣٥ جندياً. ولأن الهدف كان عسكرياً صرفاً لجأت السلطات الإسرائيلية لإخفاء خسائرها كعادتها حيث أعلنت في البداية عن مقتل ثلاثة وإصابة ثلاثين، ثم عادت واكتفت بالإعلان عن مقتل مجندة، وإصابة ٣١ آخرين بجراح وصفت جراح ١٩ منهم بأنها خطيرة[٢٢٣].

وفي اليوم التالي ١٩٩٦/٢/٢٦م اقتحم أحمد عبد الحميد حميدة بسيارة يقودها موقفاً للحافلات في حي التلة الفرنسية الاستيطاني على الطريق بين القدس ورام الله كان يغص بالعسكريين الإسرائيليين، مما أسفر عن مقتل رقيب أول في جيش الاحتلال، وإصابة أكثر من ٢٢ عسكرياً آخر بجروح وكسور مختلفة[٢٢٤].

وفي الأسبوع التالي ويوم الأحد ١٩٩٦/٣/٣م فجر رائد عبد الكريم شغنوبي عبواته الناسفة داخل الحافلة التي تعمل على خطّ الحافلات رقم ١٨ نفسه، مما أدى حسبما

أعلن متحدث باسم الشرطة الإسرائيلية إلى مقتل ١٩ إسرائيلياً بينهم ثلاثة جنود، وجرح عشرة آخرين بينهم سبعة بجراح بالغة[٢٢٥].

وفي عملية يظهر أنها مشتركة بين حماس وحركة الجهاد الإسلامي فجّر رامز عبيد (من الجهاد الإسلامي) في ١٩٩٦/٣/٤م في وسط تل أبيب كيساً كبيراً من المتفجرات وسط حشد إسرائيلي، مما أدى لمقتل ١٤ بينهم جنديان على الأقل، وإصابة ١٢٥ بجروح وصفت جراح عشرين منهم بأنها بالغة الخطورة[٢٢٦].

لقد كانت هذه العمليات صفعة كبيرة لدولة تُعدُّ أكثر الدول في العالم من ناحية الاحتياطات الأمنية حتى في الظروف العادية، وعلى الرغم من أن أجهزتها الأمنية اتخذت إجراءات استثنائية تحسباً من الانتقام لمقتل عياش إلا أن رجال حماس تمكنوا من تنفيذ عمليتين موجعتين في ٢٥ شباط/ فبراير، ثم عادت فاتخذت إجراءات لم يسبق لها مثيل منذ احتلالها للضفة الغربية وقطاع غزة قبل حوالي ٢٩ عاماً، ومع ذلك تمكن رجال حماس من ضرب أهدافهم في المكان نفسه في القدس بعد أسبوع واحد، ثم وسط تل أبيب في اليوم التالي، حيث نفذها أحد مجاهدي الجهاد الإسلامي.

وقد أثارت هذه العمليات حالة من الإرباك والذهول في الأوساط السياسية والعسكرية والأمنية، وألقت بظلالها على مستقبل بيريز السياسي وإمكانات فوز حزب العمل في الانتخابات الإسرائيلية (التي خسرها فعلاً أمام تحالف الليكود في أيار/ مايو ١٩٩٦م)، بل وعلى مستقبل عملية السلام في المنطقة المتعثرة أصلاً بسبب التعنت والصلف الإسرائيلي، فقامت الحكومة الإسرائيلية وأجهزتها الأمنية والعسكرية بحملة شعواء، بالتنسيق مع السلطة الفلسطينية، ضدّ حماس ومؤيديها وكافة المؤسسات التعليمية الخيرية والاجتماعية التي يمكن أن تدعم فكر حماس وجهودها، وكل ما يمكن أن يكون له صلة بالتيار الإسلامي الحركي في فلسطين. وقامت السلطات الإسرائيلية بإغلاق الضفة والقطاع، وأعادت احتلال مناطق واسعة من القرى كانت قد سلمتها للسلطات الفلسطينية، وتحرك المجتمع الدولي لينفخ الروح في عملية السلام، وانعقد في شرم الشيخ في ١٩٩٦/٣/١٣م في مصر مؤتمر دولي لمكافحة "الإرهاب" أو ما سمي بقمة صانعي السلام بحضور الرئيس الأمريكي كلينتون، والرئيس الروسي بوريس يلتسين Boris Yeltsin ورئيس الوزراء البريطاني جون ميجور John Major، والرئيس الفرنسي جاك شيراك Jacques Chirac، والزعيم الألماني كول Helmut Kohl، ورئيس الوزراء الإسرائيلي بيريز، وياسر عرفات، وعدد من زعماء الدول العربية والعالم.

وتلقى بيريز وحكومته دعماً غير مسبوق، وحضر كلينتون بنفسه اجتماعاً لمجلس الوزراء الإسرائيلي المصغَّر. وسخرت أمريكا جهودها الدبلوماسية والأمنية والتقنية لخدمة الأجهزة الإسرائيلية، وأرسلت معدات أمريكية للكيان الإسرائيلي للكشف عن المتفجرات بقيمة خمسين مليون دولار...[٢٢٧].

والحقيقة أن حركة حماس ومؤيديها وجميع المؤسسات الإسلامية المساندة مرّت بمرحلة من أقسى المراحل، وتعرضت لمحاولات اقتلاع، وعانت من ضربات قاسية من السلطة الفلسطينية التي شعرت أن مشروعها السلمي أصبح "في مهب الريح" على حدِّ تعبير المسؤول الفلسطيني صائب عريقات في مقابلة له مع القسم العربي لإذاعة لندن في ١٩٩٦/٣/٨م.

الجهاد الإسلامي:

على الرغم من أن حركة الجهاد الإسلامي لا تتمتع إلا بشعبية جماهيرية محدودة مقارنة بحماس حسبما يظهر من انتخابات المؤسسات التعليمية والنقابية والمهنية...، إلا أن هذه الحركة قدمت نماذج جهادية مميزة، وعانى أفرادها من السجن والمطاردة والإبعاد، واستشهد العديد من أفرادها في عمليات عسكرية جريئة. وتستجيب لإضرابها الذي تدعو إليه في اليوم السادس من كل شهر قطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني في الضفة والقطاع.

ومن الفعاليات المميزة لحركة الجهاد الإسلامي عملية نتساريم حيث قام الشهيد هشام حمد بتفجير نفسه مع دراجة هوائية محملة بعبوات ناسفة في تجمع عسكري صهيوني وسط قطاع غزة في ١٩٩٤/١١/١١م، مما أدى لمقتل ثلاثة صهاينة وجرح ١٦ آخرين. وقد جاءت هذه العملية رداً سريعاً من الحركة لاغتيال المخابرات الصهيونية للشهيد هاني عابد أحد قادة حركة الجهاد الإسلامي في القطاع في ١٩٩٤/١١/٢م[٢٢٨].

أما عملية بيت ليد في ١٩٩٥/١/٢٢م التي هزت الكيان الإسرائيلي، فقد أعلنت حركة الجهاد الإسلامي مسؤوليتها عنها. وقد ارتدى منفذا العملية ملابس الجنود الإسرائيليين، وقدما إلى محطة من أكبر محطات تجمع العسكريين الإسرائيليين بيت ليد حيث دخل أنور محمد سكر الاستراحة والكافيتريا التي يرتادها الجنود، وفجر عبواته الناسفة وسطهم، مما أدى إلى تدمير المبنى، وسقوط عدد كبير منهم بين قتيل وجريح، وخرج العشرات ممن نجوا وهم في حالة فزع شديد، بينما تجمع حولهم عشرات آخرون

من الجنود الذين وصلوا لتوهم للمكان، عند ذلك تسلل صلاح عبد الحميد شاكر بينهم، وقام بتفجير الحقيبة التي يحملها، مما أدى لسقوط عدد أكبر من القتلى والجرحى. وقد قتل فيها ٢١ إسرائيلياً (أربعة ضباط و١٧ جندياً وضابط صفّ) وجرح ٦٦ جندياً آخرين[٢٢٩]. وتشير بعض الدلائل إلى تنسيق ميداني بين حماس والجهاد الإسلامي في تنفيذ هذه العملية، خصوصاً فيما ذكر عن إعداد يحيى عياش للمتفجرات، وفي إيصال منفذي العملية إلى أهدافهم[٢٣٠].

وفي ١٩٩٥/١٠/٢٦م اغتيل في مالطا د. فتحي الشقاقي، الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي، عندما هاجمه اثنان يركبان دراجة نارية، وأطلقا عليه خمس رصاصات. وقد نعته حركة الجهاد الإسلامي، واتهمت المخابرات الصهيونية بقتله، وتعهدت بالثأر والانتقام[٢٣١]. وأعلنت الجهاد الإسلامي انتخاب د. رمضان عبد الله شلح، أميناً عاماً جديداً خلفاً للشقاقي، وهو حاصل على الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة درهام Durham University في بريطانيا ١٩٨٩م، وقد أشرف بعد ذلك على إصدار المجلة الفصلية "قراءات سياسية" في تامبا Tampa بولاية فلوريدا Florida الأمريكية لفترة من الزمن[٢٣٢].

وفيما اعتبر انتقاماً سريعاً لاستشهاد الشقاقي، تمّ تنفيذ عمليتين استشهاديتين في القطاع، اعترف الإسرائيليون بإصابة ١١ إسرائيلياً فقط بجروح[٢٣٣].

أما عملية تل أبيب، التي سبقت الإشارة إليها، التي نفذها أحد مجاهدي الجهاد الإسلامي في ١٩٩٦/٣/٤م، والتي أدت لمقتل ١٤ وإصابة ١٢٥ بجراح، فقد أعلنت حركة الجهاد الإسلامي أنها نفذتها انتقاماً لمقتل د. الشقاقي الذي كان مدنياً أعزل عندما قتلته المخابرات الصهيونية، واعتبرت الحركة أن "المجتمع الإسرائيلي كله مجتمع عسكري" وقالت "لا هدنة في عقيدتنا الجهادية، لا هدنة لدم الشقاقي، إذا أراد بيريز هدنة مع حركتنا فليعد لنا فتحي الشقاقي كما كان، وليعيدوا لنا وطننا فلسطين، وليرحلوا عنا إلى حيث جاءوا من أصقاع الأرض". وكانت حماس في البداية قد أعلنت مسؤوليتها عن العملية، ويظهر أن هناك تنسيقاً بين الحركتين في إعداد وتنفيذ هذه العملية[٢٣٤].

وعلى الصعيد السياسي فقد تحسنت العلاقات بين حركتي حماس والجهاد الإسلامي، خصوصاً بعد توقيع م.ت.ف لاتفاقات أوسلو، ودخولها في التسوية السلمية، حيث نسقت الحركتان مواقفهما بالتعاون مع فصائل المعارضة الأخرى ضدّ اتفاقيات أوسلو.

وذكر الشقاقي في كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥م أن العلاقة مع حماس "ممتازة، علاقة ودية وأخوية، ونحن نسعى إلى زيادة التعاون على الأرض" وقال: إن انبثاق حماس من الإخوان ودورها المهم في الانتفاضة والحركة الوطنية الفلسطينية "صنع درجة كبيرة من التقارب بعدما كان هناك تباعد"[٢٣٥]. وأكد رمضان شلح هذه المعاني عندما قال: إن هناك تفاهماً ولقاء في خندق المواجهة مع العدو بيننا وبين الإخوة في حماس، ونحن حريصون على تطوير العلاقة وتمتينها لترتقي إلى مستوى الحرب الشرسة التي تستهدف المشروع الإسلامي في فلسطين والمنطقة[٢٣٦].

ومع أن هناك عدداً من التنظيمات الفلسطينية التي أطلقت على نفسها "الجهاد الإسلامي" وانشقت عن حركة الجهاد الإسلامي الأم، مثل "الجهاد الإسلامي – بيت المقدس" و"الجهاد الإسلامي – كتائب الأقصى" فإن حركة الجهاد الإسلامي بقيادة الشقاقي ثم رمضان شلح بقيت أكثرهن قوة وتأثيراً.

التيار الإسلامي وسلطة الحكم الذاتي:

منذ أن وقّعت م.ت.ف بقيادة ياسر عرفات اتفاقيات أوسلو في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣م كانت هناك مخاوف حقيقية من أن يؤدي ذلك إلى أن يتصارع مؤيدو اتفاقات السلام ومعارضوها، وأن يتصاعد التوتر ليؤدي إلى حرب أهلية. فمنذ البداية التزم الموقعون على اتفاقيات أوسلو بنبذ "الإرهاب" والتخلي عن أي عمل من أعمال العنف، والتعهد بتدارك أي انتهاكات لهذه التعهدات، وباتخاذ إجراءات تأديبية ضدّ أي مخالف لها، وذلك حسب رسالة ياسر عرفات إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي في ١٩٩٣/٩/٩م. وفي اتفاق القاهرة (١٩٩٤/٥/٤م) تعهدت السلطة الفلسطينية بمنع الحملات الدعائية والتحريض ضدّ الكيان الإسرائيلي في المناطق التي تسيطر عليها، كما تعهدت باتخاذ الإجراءات الضرورية لمنع الأعمال "الإرهابية" والجرائم والاعتداءات ضدّ الكيان الإسرائيلي أو أي من أفراده[٢٣٧].

ولأن اتفاقات الحكم الذاتي مؤقتة ويتبعها فيما بعد الدخول في مفاوضات المرحلة النهائية حول القضايا الجوهرية بات تحقيق أي تقدم مرهوناً برضى الطرف الإسرائيلي، وكرم تنازلاته، وبدا الطرف الفلسطيني تحت رحمة الطرف الآخر، وأصبح مضطراً للاستجابة للضغوط الإسرائيلية لتحقيق أي تقدم في المفاوضات أو أية مكاسب مهما كانت ضئيلة، ولأن الأطراف الفلسطينية المعارضة لاتفاقيات أوسلو

وعلى رأسها التيار الإسلامي اعتبرت نفسها غير معنية بهذه الاتفاقيات، واستمرت في مقاومتها للاحتلال الإسرائيلي، فإن الكيان الإسرائيلي أخذ يماطل في تنفيذ اتفاقياته مع السلطة الفلسطينية، ما لم تقم بكبح جماح المعارضة وإيقاف جهادها. وتطور الأمر لدفع السلطة الفلسطينية لسحق التيار الإسلامي، وضرب بنيته التحتية ومؤسساته الإسلامية التعليمية والخيرية والاجتماعية. وسواء كانت راغبة أم غير راغبة، فإن السلطة الفلسطينية وجدت نفسها تمضي شوطاً بعيداً في محاربة التيار الإسلامي وعلى رأسه حركة حماس تحقيقاً لالتزاماتها في العملية السلمية، وتمكيناً لنفسها ونفوذها على الساحة الفلسطينية، وتشجيعاً للطرف الإسرائيلي للمضي في العملية السلمية. وهكذا نجحت "إسرائيل" في وضع حماس والجهاد الإسلامي والمعارضة الفلسطينية كعائق في الطريق، على السلطة الفلسطينية أن تدكه بمداحِلها وجرافاتها حتى تصل إلى ما تحسبه أهدافاً وطنية فلسطينية.

وكما ذكر ستيفن بيلليتير Stephen Pelletiere في دراسة نشرها معهد الدراسات الاستراتيجية في الكلية الحربية للجيش الأمريكي Strategic Studies Institute of the U.S. Army War College، فإن حكومة رابين قررت أن تعهد لعرفات ومنظومته بالقيام بدور الشرطي بالوكالة لقمع الانتفاضة وسحق حماس[٢٣٨]. ولأن "إسرائيل" هي الطرف الذي يفرض شروطه في هذه التسوية، وبيده أوراق اللعبة، فإن السلطة الفلسطينية، إذا لم تصل كفاءة أدائها ضدّ المعارضة للمدى الذي ترغبه "إسرائيل"، ستكون مهددة بتراجع "إسرائيل" عن التزاماتها، أو بخنق الاقتصاد الفلسطيني بإغلاق الضفة والقطاع، أو بإعادة احتلال أجزاء كانت قد سلمت للسلطة الفلسطينية. وفي كل الأحوال كان مطلوباً من السلطة الفلسطينية تحقيق العمل بكفاءة أعلى من كفاءة الإسرائيليين، وأن تنجح فيما فشل الكيان الصهيوني في تحقيقه طوال الـ٢٧ سنة الماضية!!

ومنذ دخول السلطة الفلسطينية مناطق غزة وأريحا ثم استلامها لإدارة مدن وقرى الضفة الغربية، وجانب الأمن الداخلي يأخذ الجانب الحيوي في ميزانية السلطة واهتماماتها. وزاد عدد الشرطة الفلسطينية إلى ٣٠ ألفاً ليشكل أعلى نسبة شرطة في العالم مقارنة بعدد السكان، وشكلت السلطة الفلسطينية ثمانية أجهزة أمنية!! هي الأمن الوطني، والأمن الوقائي، والمخابرات العامة، والاستخبارات العسكرية، والأمن الخاص، والقوة ١٧، والدفاع المدني، بالإضافة إلى الشرطة المدنية[٢٣٩]، وقد تحقق ذلك على حساب الحالة الاقتصادية التي تراجعت كثيراً، وعلى حساب مؤسسات التعليم

والحريات السياسية، والمؤسسات الاجتماعية. وفي أيار/ مايو ١٩٩٥م نشر تقرير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية أشار إلى أن دخل الفرد في قطاع غزة تراجع إلى ٥٠٠ دولار في العام بنسبة تراجع ٣٨٪ عما كان عليه في ١٩٩٣م[٢٤٠]. وذكر تقرير نشرته وكالة رويترز وكتبته وفاء عمرو من غزة أن الأحوال الاقتصادية في قطاع غزة بعد مرور عام على الحكم الذاتي هي أسوأ أحوال يشهدونها منذ ربع قرن، ونقلت عن تيري رود لارسن Terje Rod-Larsen –منسق الأمم المتحدة الخاص في غزة– قوله بأن الموقف خطير للغاية، وأن البطالة والبطالة المقنعة قد تجاوزتا ٦٥٪ في قطاع غزة[٢٤١].

ولم تسلم سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني من الفساد الإداري والتجاوزات التي أخذت تصيب الشارع الفلسطيني بالضيق والإحباط، حتى إن تحليلاً إخبارياً نشرته جريدة الشرق الأوسط في ١٩٩٥/٣/٢٢م نقل عن أحد العاملين في جهاز الأمن الوقائي بأن الشارع الفلسطيني يغلي...، ونقل عن آخر قوله إن هناك:

> اعتقالات عشوائية لكثير من الشرفاء لمجرد الشائعات أو تقارير كاذبة كتبها أحد الحاقدين أو المندسين الذين يعملون في أجهزة المخابرات. وتتم الاعتقالات دون الرجوع إلى القضاء... العربدات تمارس بشكل يومي في الشارع. كما أن الفقر والجوع يزداد يوماً بعد يوم، ولا ننسى ممارسات الأجهزة العسكرية في الشارع والبيروقراطية في المكاتب المدنية والعسكرية، والحديث عن الانحلال والرشوة والمحسوبية يزكم الأنوف[٢٤٢].

ولم يتورع أحد كبار قادة حركة فتح التي يرأسها عرفات، والتي تقود مسيرة التسوية من أن يتهم عرفات بأنه أحاط نفسه بثلة من اللصوص والمبتزين[٢٤٣].

وتلقت السلطة الفلسطينية نقداً لاذعاً من المفكر الفلسطيني المعروف الدكتور هشام شرابي عندما قال: "إن السلطة الفلسطينية بتركيبها الحالي لا تمثل الشعب الفلسطيني أو إرادة الشعب الفلسطيني...، إنها عاجزة عن إحداث أي تغيير في الوضع الذي يعيشه الشعب الفلسطيني، وهي نفسها أحد أسباب تفاقم وضعه المأساوي"[٢٤٤].

وقد وجد التيار الإسلامي نفسه في وضع صعب في مثل هذه الأجواء؛ تحت سلطة فلسطينية حيث رفاق النضال في الماضي هم الذين يمنعونه من العمل والجهاد، وأصبحت أية عملية ضدّ الكيان الإسرائيلي تعني عملياً مواجهة السلطة الفلسطينية. وقد حدد التيار الإسلامي وعلى رأسه حماس ضوابط للتعامل في مثل هذه الظروف

تضمنت المحافظة على الوحدة الوطنية، والسعي لعدم إيجاد أية مبررات للاصطدام مع السلطة الفلسطينية، وعدم الدخول في حرب أهلية، وتبني معارضة بناءة تستهدف كشف عورات اتفاقيات التسوية، والمحافظة على حقّ الشعب الفلسطيني في أرضه ومقدساته، وحماية الحريات السياسية، وحقّ التعبير، وحرية الصحافة، والحفاظ على كرامة أبناء فلسطين ومكتسباتهم، وفي الوقت نفسه أعلنت أنها غير داخلة أو ملزمة باتفاقيات أوسلو، وأن جهادها مستمر لدحر الاحتلال الإسرائيلي، وأن بنادقها موجهة نحو المحتلين الغاصبين فقط[٢٤٥].

أما من الناحية العملية، فإن مسيرة الأحداث لم تمنع من حدوث احتكاكات وصدامات مؤسفة، فمع كل عملية جهادية ضد الاحتلال الصهيوني كانت السلطة الفلسطينية تقوم بحملة اعتقالات واسعة في صفوف حماس والجهاد الإسلامي وفصائل المعارضة، ومنذ أيار/ مايو ١٩٩٤م وحتى آب/ أغسطس ١٩٩٥م شنت السلطة الفلسطينية ١٢ حملة اعتقال شملت أكثر من ألف فلسطيني. وفي قطاع غزة الذي لا تتجاوز مساحته ٣٦٠ كم^{٢} يتبع السلطة ٢٤ مركز توقيف واعتقال، وهناك ٣٢ حاجزاً عسكرياً[٢٤٦] وخلال شهر واحد فقط (١٩ نيسان/ أبريل – ١٩ أيار/ مايو ١٩٩٥م) داهمت السلطة حوالي ٥٧ مسجداً ١٣٨ مرة، حيث تعرضت للتفتيش والعبث والتخريب[٢٤٧]، وفي ١٩٩٥/٢/٧م أصدر ياسر عرفات قراراً بإنشاء "محكمة أمن الدولة" وهي محاكم عسكرية قضاتها من ضباط الأمن، وبدأت عملها في ١٩٩٥/٤/٩م، وحتى ١٩٩٥/٥/٢٧م كانت قد حاكمت ما لا يقل عن ٣٣ شخصاً معظمهم من حماس أو الجهاد الإسلامي، وتمت المحاكمات بعد منتصف الليل، وبشكل سرّي، ولم تشهدها الصحافة أو الإعلام، وبعضها لم يستغرق سوى دقائق معدودة، ولم يتمكن موظفو منظمة العفو الدولية من حضور هذه المحاكمات على الرغم من الطلبات المتكررة، أو الحصول على لوائح الاتهام، أو نسخ من القضايا، أو محاضر المحاكمات...، وقد أدانت منظمة العفو الدولية هذه المحاكم، وطالبت السلطة الفلسطينية بإيقافها فوراً[٢٤٨]. وكان أحد ضحايا هذه المحاكم سيد أبو مسامح، أحد قيادات حماس، الذي حوكم ليلة ١٩٩٥/٥/١٤م، وصدر عليه الحكم بالسجن ثلاث سنوات بتهمة "التشهير" بالسلطة و"التحريض" ضدها[٢٤٩].

وكان من أكثر الأحداث المؤسفة دموية ما يعرف بـ"مجزرة الجمعة الأسود" التي ارتكبتها شرطة الحكم الذاتي ضدّ المصلين الذين كانوا ينوون الخروج بمسيرة سلمية بعد صلاة الجمعة من مسجد فلسطين بغزة باتجاه منزل الشهيد هشام حمد، وذلك في ١٩٩٤/١١/١٨م، مما أدى لاستشهاد ١٣ مصلياً، وجرح أكثر من ٢٠٠ آخرين... .

وقد اتهمت حماس السلطة بتدبير المذبحة "النوايا مبيتة والمجزرة مدبرة" ورفضت محاولات السلطة لتبرير ما حدث، وحملتها المسؤولية، واتهمتها بأنها تسعى لـ"إرضاء إسرائيل" والإثبات لها أنها تستطيع وبجدارة قمع المعارضة الفلسطينية، وبصورة لا تقدر عليها "إسرائيل". وقد سارعت سلطة عرفات بمحاولة إظهار شعبيتها، فحشدت مظاهرة من ثلاثة آلاف شخص، غير أن حماس نظمت مهرجاناً جماهيرياً حاشداً في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر حضره حوالي ٧٠ ألف شخص[٢٥٠].

وقد زادت حدة التوتر مع السلطة عندما قامت باعتقال عدد من قيادات حماس في قطاع غزة في أواخر حزيران/ يونيو ١٩٩٥م، بينهم محمود الزهار وأحمد بحر وأحمد نمر، وخضعوا للتعذيب والإهانة، وحُلقت لحاهم التي تعدُّ رمز التزامهم الإسلامي[٢٥١] مما أثار غضباً واسعاً في الساحة الفلسطينية. غير أن أشد حملات الاعتقال قد تمت في شهري آذار/ مارس، ونيسان/ أبريل ١٩٩٦م بعد سلسلة العمليات الاستشهادية التي هزت الكيان الإسرائيلي، وقد طالت هذه العمليات أكثر من ألف من نشطاء حماس والجهاد الإسلامي، وخضعوا للتعذيب، واستهدفت البنية التحتية للتيار الإسلامي، فأغلقت المدارس والجمعيات الخيرية ولجان الزكاة ورعاية الأيتام التي يديرها أنصار حماس والجهاد الإسلامي[٢٥٢]. وقد أشار رئيس أركان الجيش الإسرائيلي آمنون شاحاك Amnon Shahak ورئيس الشاباك عامي أيالون Ami Ayalon بالتحرك "المنهجي" الذي يقوم به ياسر عرفات ضدّ حماس[٢٥٣].

وفي تقرير بثته "قدس برس" في ١٩٩٦/٤/٨م قال اللواء محمد جهاد، المسؤول الكبير في حركة فتح: إن السلطة الفلسطينية تنتهك بصورة مخجلة القوانين الدولية المعترف بها، وأن التعذيب الذي يمارس بحقّ المعتقلين "لا يطاق" وأن هناك ممارسات حدثت بحقّ المعتقلين "يندى لها الجبين" مشيراً إلى حدوث عمليات اغتصاب لسجناء سياسيين، إضافة إلى التعذيب بواسطة الشبح والجلد وإطفاء السجائر في أبدان المعتقلين. وفي حديثه لجريدة الشرق الأوسط قال محمد جهاد: إن إجراءات بعض أجهزة السلطة الأمنية ضدّ حماس "قمعية وغير مبررة"[٢٥٤].

وقد توفي عدة أشخاص تحت التعذيب في سجون السلطة كان آخرهم (حتى كتابة هذه السطور) محمود جميل في ١٩٩٦/٧/٣١م وهو محسوب على حركة فتح نفسها، لكن يبدو أنه قد اتخذ خطاً مغايراً وأكثر تشدداً من خطّ ياسر عرفات ومؤيديه، وقد أدى استشهاده إلى موجة سخط عارمة. وفي اليوم التالي حدثت تظاهرات في مدينة طولكرم

إثر ورود أنباء عن الحالة الصحية المتدهورة للعشرات من معتقلين حماس المضربين عن الطعام، حيث قام المتظاهرون باقتحام السجن وتحرير العشرات من المعتقلين، وقد واجهت شرطة الحكم الذاتي المتظاهرين، وقتلت إبراهيم الحدايدة المحسوب على حركة حماس، وجرحت العديدين[٢٥٥].

وتجدر الإشارة إلى ما يعرف بـ"مداولات وتوصيات لجنة الطوارئ المشتركة" التي شكلها ياسر عرفات لتقديم توصياتها ورؤيتها لكيفية مكافحة حركة حماس، والتي رفعت تقريرها إلى عرفات في آذار/ مارس ١٩٩٦م، واعترفت بمحدودية معرفة الجهات الأمنية التابعة للسلطة بحركة حماس. وتضمنت توصياتها ثلاثة محاور، الأول: تصفية البنية العسكرية لحماس (كتائب القسام)، ومما تضمنه استمرار الطوق الأمني الإسرائيلي حتى انتهاء الانتخابات الإسرائيلية (في نهاية أيار/ مايو ١٩٩٦م)، والتعاون الأمني مع الإسرائيليين...، والتصفية الجسدية لعدد من قادة كتائب القسام على فترات متباعدة، وإظهارها على أنها تجاوزات فردية أو اختراقات إسرائيلية يعاقب المتورطون بها، والسعي لاختراق التنظيم السري للقسام، ورصد ومراقبة أساليب العمل والتجنيد والتنقل... وغيرها. أما المحور الثاني فهو: تفكيك القدرة السياسية لحركة حماس بإظهار تعدد الرؤى الدينية حول المسار السياسي للقضية، وإظهار تناقضات في الخطاب السياسي بين قادة حماس أنفسهم، واتهام حماس بالمثالية الحالمة، والتركيز في الاستقطاب على شخصيات حماس "المعتدلين منهم ممن يتمتعون بمحدودية النظرة، متوسطو الذكاء، المندفعين، ممن تسهل قيادتهم، وهذا يتطلب تركيز الحوار مع أمثال هؤلاء وليس مع أصحاب الرؤى الاستراتيجية في صفوف الحمساويين"، وتدعيم مكانة المعتدلين منهم بتسليمهم المنابر والمؤسسات الجماهيرية بدلاً من الكوادر الملتزمة بالخط الآخر، والتضييق على آليات اتخاذ القرار لدى حماس. وأما المحور الثالث فهو إرباك وجود حماس في الخارج وهزّ توازنه وخصوصاً في الأردن[٢٥٦].

وعلى الرغم من أن السلطة الفلسطينية أنكرت نسبة هذه الوثيقة إليها، إلا أن الأوساط المؤيدة لحماس تؤكد ذلك، كما أن القراءة المتأنية للوثيقة تدفع إلى الميل بأنها بالفعل من صياغة إحدى اللجان الأمنية في السلطة، خصوصاً لمن يطلع على خلفياتها السابقة وأدائها الحالي، ثم إن الحقائق العملية على الواقع تؤكد على الأقل العديد من النقاط التي أوصت بها اللجنة.

ومن جهة أخرى شنت السلطة الفلسطينية حرباً إعلامية ضدّ حركة حماس، واتهمتها بالتواطؤ مع الليكود الإسرائيلي المتشدد لإسقاط حكومة حزب العمل، وتعطيل التسوية، واتهمتها بتلقي الدعم المادي والأوامر من إيران، كما ادعت أن حماس تعد لحرب ضدّ السلطة، واغتيال ياسر عرفات، وحاولت السلطة شقّ حركة حماس، وإظهار وجود معتدلين ومتشددين، ووجود تيار "الداخل" وتيار "الخارج" وتعارضهما، وقد حاولت استقطاب بعض عناصر حماس كما حدث مع عماد الفالوجي الذي فصلته حماس من عضويتها، بينما تلقفته السلطة، وأدرجته على قوائم فتح في انتخابات الحكم الذاتي (كانون الثاني/ يناير ١٩٩٦م) وعينته وزيراً في السلطة الفلسطينية. ودعمت تشكيل أحزاب إسلامية أخرى خرج أفرادها عن مظلة حماس مثل حزب الوطن برئاسة خضر محجز، وحزب المسار الوطني الإسلامي برئاسة محمود أبو دان[٢٥٧].

أما حماس فقد أصرت على الالتزام بسياساتها العامة، ورفضت التخلي عن المقاومة المسلحة، كما رفضت الدخول في مواجهات مع السلطة، لكنها استمرت بالتعبير بصراحة وقوة عن موقفها من السلطة وأدائها وممارستها. وقد نوَّه هاني الحسن، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، بـ"موقف الإخوة في حماس لأنهم مارسوا ضبطاً للنفس يشكرون عليه وسيسجله لهم التاريخ"[٢٥٨].

وفي سياق توضيحها لممارسات السلطة الفلسطينية، أصدرت حماس بيانات كثيرة جاء في أحدها أن "السلطة الفلسطينية تصرُّ على تجاهل كل الدعوات لحقن الدم الفلسطيني، وصون المحرمات الوطنية عبر مواصلتها حملة المداهمات الليلية والاعتقال والتعذيب في حق أبناء شعبنا ومجاهديه، إضافة إلى استمرارها إصدار الأحكام الباطلة، وعقد المحاكمات الصورية الظالمة داخل محكمة السلطة العسكرية"[٢٥٩]. وفي بيان آخر اتهمت حماس السلطة بانتهاك حرمة المساجد، وأنه لا يكاد يمرّ يوم دون أن تشن مجموعة من عناصر هذه الأجهزة سلسلة من الانتهاكات لحرمة المساجد، وترويع المصلين، وإتلاف محتوياتها وممتلكاتها بأسلوب أشبه ما يكون بممارسات الاحتلال الصهيوني البغيضة[٢٦٠].

وذكر إبراهيم غوشة، الناطق الرسمي باسم حماس، أن هناك محاولات حثيثة من السلطة بهدف تفتيت حركة حماس، وتحويلها من العمل الجهادي إلى السياسي. وقال: إن تأثير السلطة كان على شخصيات غير أساسية في الحركة اشتراها عرفات بالمال والمناصب والألقاب العسكرية الفارغة، ولكنه لم يستطع الوصول إلى قلب الحركة

النابض، وأي إنجازات له، لن تؤثر على مسار الحركة. وقال: إن عرفات موَّل نفقات سيناريوهات لانشقاق الحركة، وأشرف على تنفيذها الطيب عبد الرحيم، أمين عام الحكم الذاتي، ونصر يوسف وأجهزته الأمنية، ولكن حماس أحبطتها[٢٦١].

وبعد حملة الاعتقالات الضخمة ضدّ حماس في آذار/ مارس ١٩٩٦م روَّجت السلطة الفلسطينية اتهامات ضدّ حماس بالتخطيط لحرب ضدّ السلطة واغتيال عرفات، غير أن حماس نفت ذلك وقالت إن ذلك مما تفتق عنه ذهن "مدبري الفتنة في سلطة الحكم الذاتي عن مسرحية جديدة تثير الضحك والرثاء في آنٍ واحد"، "أولئك الذين أفلسوا شعبياً فاتجهوا نحو اجترار الأكاذيب". واتهمت حماس الطيب عبد الرحيم بالتخصص في إصدار البيانات المزورة باسم حماس وكتائب القسام وتلفيق الوثائق. وأكدت حماس نهجها القائم على رفض مبدأ الاغتيال السياسي، واستخدام العنف لحسم الخلافات بين أبناء الشعب الواحد، وأكدت أن جهادها موجه ضدّ الاحتلال الصهيوني، وأن سلطة الحكم الذاتي تمارس لعبة خطيرة بالتصدي للشعب الفلسطيني ومؤسساته وقواه المجاهدة "وهي لم تتوقف لحظة عن اتهام المجاهدين بالعمالة لجهات خارجية دون أدنى دليل غير فبركاتها، فيما تتعامى عن آلاف الأدلة المعلنة التي تؤكد تحالفها مع الصهاينة لدرجة تلقي الأوامر والإملاءات منهم لقمع الشعب الفلسطيني". وقالت حماس: إن العالم ما زال يشهد لها بالنجاح في ضبط النفس، وضبط أفرادها عن الاستجابة لاستفزازات السلطة، ومحاولات جرّ المجتمع الفلسطيني إلى حرب أهلية. وأضافت أن حماس تؤمن أن "احتضار السلطة ورئيسها سياسياً أقسى على السلطة من القتل اغتيالاً"!![٢٦٢].

وبشكل عام، فإن علاقة السلطة الفلسطينية بالتيار الإسلامي قد اتسمت بالتوتر طوال الفترة الماضية، وما يزال هناك حوالي ألف معتقل من عناصر حماس ومؤيديها في سجون السلطة، بالإضافة إلى أربعة آلاف معتقل آخر لهذه الحركة في السجون الإسرائيلية. ولكن أجواء التوتر لم تمنع من وجود محاولات بين كلا الطرفين لتخفيف الشدّ والاحتقان. والحقيقة أن قنوات الحوار والتفاوض بين الطرفين تعود إلى ما قبل قيام السلطة الفلسطينية، أي مع م.ت.ف وتحديداً مع التيار السائد فيها أي فتح بقيادة ياسر عرفات، فقد عُرضت على حماس بعض مقاعد المجلس الوطني الفلسطيني سنة ١٩٨٨م، بينما طالبت حماس في نيسان/ أبريل ١٩٩٠م بـ ٤٠٪ من مقاعد المجلس، وبتغييرات جوهرية في سياسة المنظمة (م.ت.ف) كشرط لدخولها. ووقع في ٢١/٩/١٩٩٠م "اتفاق الشرف" بين فتح وحماس لتنسيق الجهود في مواجهة العدو بما

يعزز الوحدة الوطنية. وفي الخرطوم عاصمة السودان في ١٩٩٣/١/٢م جرى حوار بين وفد من فتح برئاسة ياسر عرفات ووفد من حماس برئاسة موسى أبو مرزوق. كما جرت عدة حوارات رسمية وغير رسمية منذ دخول السلطة الفلسطينية قطاع غزة في أيار/ مايو ١٩٩٤م، وبعد مجزرة مسجد فلسطين "الجمعة الأسود" في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٤م تمّ تشكيل لجنة مشتركة بين الطرفين للتحقيق، وتجاوز الأزمة دون أن تحقق أية نتائج ملموسة[٢٦٣].

وفي آب/ أغسطس ١٩٩٥م دعا الشيخ أحمد ياسين من سجنه أبناء الشعب الفلسطيني إلى وضع صيغة للتفاهم، وللمحافظة على وحدة الشعب وسلامته ومستقبله "مع المحافظة على مواقفنا المبدئية وقناعاتنا" وجدد تحريمه لسفك الدم الفلسطيني، معتبراً توجيه السلاح الفلسطيني إلى صدور الفلسطينيين جريمة لا تغتفر[٢٦٤]. وفي ١٩٩٥/٩/٤م دعت حماس إلى حوار وطني شامل وجاد يكون ملزماً لكل الجماعات المؤثرة في الساحة بما فيها السلطة والمعارضة، والهدف هو التوصل إلى تفاهم ينظم طبيعة العمل الوطني الفلسطيني[٢٦٥]. وفي اليوم التالي رحبت السلطة بدعوة حماس للحوار[٢٦٦]. وشهدت تلك الفترة نشاطاً ملحوظاً في الأوساط المختلفة لتشجيع الحوار. وقد تكللت الجهود بانعقاد الحوار في القاهرة بين السلطة الفلسطينية وحماس في ١٨–١٩٩٥/١٢/٢١م برئاسة سليم الزعنون عن السلطة، وبرئاسة خالد مشعل عن حماس. وقد سعت السلطة إلى هذا اللقاء لخوفها من احتمال إفشال حماس، وتعطيلها لانتخابات الحكم الذاتي الفلسطيني في الضفة والقطاع، وحاولت إقناع حماس بالمشاركة فيها، كما حاولت إقناع حماس بوقف عملياتها ضدّ الكيان الإسرائيلي والمعارضة تحت سقف اتفاقيات أوسلو وبما لا يخل بالتزامات السلطة تجاه عملية السلام. وخلال هذا الحوار أصرت حماس على مقاطعة الانتخابات، لكنها التزمت بعدم إفشالها بالقوة أو إجبار أحد على المقاطعة، كما أكدت حماس على استمرار عملياتها المسلحة ضدّ الكيان الإسرائيلي[٢٦٧].

ولم يخلُ حوار القاهرة من الإيجابية لكلا الطرفين، وأفادت أجواء الحوار الصريح والجاد في تقليص الخلافات، وتحديد نقاطها، والعمل على عدم تصادم الطرفين. وقد اتفق الوفدان على التأكيد على الوحدة الوطنية على قاعدة التعددية السياسية، وتحريم الاقتتال الداخلي، واعتماد مبدأ الحوار نهجاً حضارياً ووحيداً في التعامل بين مختلف الأطراف على الساحة الفلسطينية، وتشكيل لجنة مشتركة لمعالجة المشكلات الطارئة،

والتأكيد على تهيئة الأجواء من أجل تعميق الثقة، والتعاون لتحقيق الأهداف الوطنية، والسعي من أجل الإفراج عن المعتقلين في سجون الاحتلال[٢٦٨].

وبالطبع، وكما رأينا سابقاً، فإن كل محاولات الحوار لم تنجح في تحقيق أهدافها، وتكرر أن تعتقل السلطة الفلسطينية محاوريها من حماس، وتعذب عدداً منهم في سجونها حتى ممن شارك منهم في حوار القاهرة أمثال حسن يوسف وعبد الفتاح دخان ومحمد شمعة وجمال سليم... وغيرهم[٢٦٩].

وقد علق إبراهيم غوشة على تجربة الحوار مع م.ت.ف والسلطة الفلسطينية بأن أبا عمار يلجأ للحوار عندما يكون في مأزق، وعندما يريد أن يحصل على شيء. وأضاف أنه في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١م كان هناك لقاء مع أبي عمار الذي ألحَّ على حماس بالدخول في المجلس الوطني الفلسطيني كي يأخذ قراراً بالتوجه إلى مدريد، وعرض على حماس ١٨ مقعداً من أصل ٤٨٠. أما حوار الخرطوم في أوائل ١٩٩٣م فكان يريد موافقة حماس على م.ت.ف ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني "ولم يحصل على ما يريد"[٢٧٠]، أما محمد نزال، ممثل حماس في الأردن، فقال: إنه من وجهة نظر حماس فإن الحوار هو الأسلوب الحضاري الذي لا بدّ للجميع الاحتكام إليه "أما فيما يتعلق بحواراتنا مع فتح في الخرطوم وتونس وعمّان والداخل كلها لم تحقق ما نصبو إليه ونريد، ذلك أن حماس لم تلمس لدى الطرف الآخر رغبة جدية في علاج المشكلات القائمة بين الطرفين، أو حتى رغبة في تطبيق ما يتم التوصل إليه على أرض الواقع..."[٢٧١].

ويرى خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس أن مستقبل العلاقة بين حماس والسلطة الفلسطينية، بل بين الشعب الفلسطيني والسلطة "مستقبل غير مطمئن؛ لأن السلطة قد رهنته لحساب علاقتها مع العدو، وأخضعته للمزاج الصهيوني وأولوياته، وقدمت مصالح عدونا ومطالبه على مصالح شعبنا ووحدته الوطنية وتماسك نسيجه الاجتماعي"[٢٧٢].

وحتى الآن فإن شوكة حماس وجذورها قد استعصت على الاقتلاع، ولم تزعزع حملات الاعتقال والاستئصال مكانتها الشعبية، وما يزال مؤيدوها في الجامعات والنقابات المهنية يحافظون على مكانتهم القوية، بل ويتقدمون في مواقع عديدة.

يقول خالد مشعل: إن عمليات الضغط على حماس لن تنجح "إذ نتبع سياسة لا مركزية، وليس ثمة عصب ظاهر يضغطون عليه لا في قطاع غزة ولا في الضفة الغربية أو

خارجها. ولقد استفدنا من ضغوط السنوات الماضية، وبدلنا أجيالاً قيادية عدة في وقت قصير، وطورنا أسلوب العمل والاتصال ليتعايش مع كل الظروف"[٢٧٣].

ومهما يكن من أمر، فما دامت الأرض المباركة المقدسة مغتصبة، وما دامت القدس محتلة، والمسجد الأقصى أسيراً، وما دام المسلمون يؤمنون بحقهم في فلسطين، فإن الأمر يتجاوز مجرد ضرب حماس أو حتى اقتلاعها؛ لأن هناك من سيأتي من المسلمين والأجيال ليطالب بحقه، ويتابع الطريق، ولعل من مصلحة السلطة الفلسطينية تعزيز الوحدة الوطنية جدياً، وعدم الدخول في عمليات "التركيع" و"كسر العظم" مع التيار الإسلامي وأطراف المعارضة، خصوصاً وأن خصمها الإسرائيلي ما يزال يتصرف بغطرسة وصلف، ويتلكأ في اتفاقيات حقق من خلالها مكاسب كبيرة، بينما لم يحصل الطرف الفلسطيني على "فتات" يُقتّر الطرف الإسرائيلي حتى في إعطائها.

وبعد

فإن أمام التيار الإسلام في فلسطين تحديات عظيمة مع دخول التسوية السلمية مرحلة التنفيذ، وسيكون مستهدفاً من الجميع بالتصفية أو التحجيم أو التحييد أو التشويه أو محاولات الاستيعاب. وسيكون مطلوباً منه أن يوقف برنامجه الجهادي وإلا تعرض لمرحلة من المحنة والابتلاء على يدّ مناضلي الأمس. وسيحتاج التيار الإسلامي إلى الكثير من المهارة والحنكة والذكاء والالتصاق بالجماهير، وقبل ذلك كله عون الله وتوفيقه لاجتياز هذه المرحلة.

على أن المسلمين لن يتنازلوا عن حقهم في كل فلسطين مهما طال الزمن، ومرت الأجيال، فالحق لا يزول بسبب هزيمة أنظمة أو ضعف ثورات أو تخاذل قادة، وهو حتماً سيعود بعودة الفئة المؤمنة الصادقة إلى توجيه دفة الأمة والجهاد وتحقيق وعد الله بالنصر على الأعداء ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

هوامش الفصل الرابع

[١] انظر: عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس** (القدس: فوزي يوسف، ١٩٦١)، ج ١، ص ٣٦٥–٣٦٦؛ وأحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار، ١٩٦٩)، ص ٤٢.

[٢] انظر: عجاج نويهض، **رجال من فلسطين** (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١)، ص ٩٨–٩٩.

[٣] **المرجع نفسه**، ص ١٣٤–١٣٥؛ وانظر أيضاً: خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا** (دون مكان: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨٢)، ص ١٣٤–١٣٥.

[٤] انظر: حسان علي حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧–١٩٠٩**، ط ٢ (بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص ٨٦–٩٠، و١٠١–١٠٥.

[٥] سمير أيوب، **مرجع سابق**، ج ١، ص ١٢٨؛ وصالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** (بيروت: دار الفتح، ١٩٧٠)، ص ٣١.

[٦] **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ترجمة وتعليق محمد حرب عبد الحميد (القاهرة: دار الأنصار، ١٩٧٨)، ص ٦٥.

[٧] سمير أيوب، **مرجع سابق**، ج ١، ص ٢٦٩–٢٧٠.

[٨] مقدمة **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ص ١١.

[٩] **المرجع نفسه**، ص ١١–١٢.

[١٠] عبد العزيز محمد عوض، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ١٨٣١–١٩١٤** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – مكتبة المحتسب، ١٩٨٣)، ص ٦٢؛ وحسان حلاق، **مرجع سابق**، ص ٩٦–٩٨.

[١١] وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين** (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤)، ص ٣٦.

[١٢] انظر: خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨–١٩١٨**، سلسلة كتب فلسطينية، رقم ٤١ (بيروت: مركز الأبحاث، ١٩٧٣)، ص ٤١–٤٩.

[١٣] صالح أبو يصير، **مرجع سابق**، ص ٣٣.

[١٤] وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، **ملف وثائق فلسطين**، الجزء الأول: ١٩٣٧–١٩٤٩، (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩)، ج ١، ص ١٥٥.

[١٥] خيرية قاسمية، **مرجع سابق**، ص ٤٠٣.

[١٦] انظر: محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد ١٩١٧–١٩٤٨**، ط ٢ (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩)، ص ٥٩–٦١.

[١٧] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٦٢–٧٨.

[١٨] إميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً** (بيروت: دار النهار، ١٩٧٢)، ص ٢٨–٣٠.

[١٩] محمد سلامة النحال، **سياسة الانتداب البريطاني حور أراضي فلسطين العربية**، ط ٢ (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١)، ص ٧١–٧٢.

[٢٠] انظر: **حرب فلسطين ١٩٤٧–١٩٤٨** (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ترجمه عن العبرية أحمد خليفة (قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤)، ص ٢٦.

[٢١] انظر: محمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين: في معركة الحياة والموت ضد بريطانيا والصهيونية العالمية ١٩١٧–١٩٤٨** (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٩)، ص ٩٨؛ ومحمد أمين الحسيني، **حقائق عن قضية فلسطين**، ط ٢ (القاهرة: مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، ١٩٥٧)، ص ٥٠.

[22] حول طبيعة هذه الفترة ودور التيار الإسلامي في الانتفاضات، انظر: محسن صالح، **مرجع سابق**، ص ٨٩-١٩١.

[23] حول شخصية القسام بالتفصيل، انظر: **المرجع نفسه**، ص ٢٣١-٢٤٧.

[24] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين: ١٩٣٦-١٩٣٩** (القاهرة: وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧)، ص ٣٣.

[25] إميل الغوري، **مرجع سابق**، ص ٢٤٨، التوكيد للباحث.

[26] عوني العبيدي، **ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني** (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، دون تاريخ)، ص ٩.

[27] بيان الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٣١٧-٣١٨.

[28] سميح حمودة، **الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام ١٨٨٢-١٩٣٥**، ط ٢ (عمّان: دار الشروق، ١٩٨٦)، ص ٤٢.

[29] انظر: صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص ٣١؛ وأكرم زعيتر، **الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩: يوميات أكرم زعيتر** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠)، ص ٣٠؛ ومحمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة** (دمشق: المطبعة العمومية، ١٩٥١)، ص ٨٧.

[30] انظر: علي حسين خلف، **تجربة الشيخ عز الدين القسام** (عمّان: دار ابن رشد، ١٩٨٤)، ص ٤٤-٤٧، و٥٨-٦٠؛ وسميح حمودة، **مرجع سابق**، ص ٤٨-٥٠.

[31] بيان الحوت، **مرجع سابق**، ص ٣٢٤؛ وكامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٢٩** (طرابلس، ليبيا: المنشأة العامة للنشر، ١٩٨٢)، ص ٥٨٤.

[32] صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين** (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر - دار الكتاب العربي، دون تاريخ)، ص ٧٩؛ وصبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص ٣٣-٣٤.

[33] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص ٣٣-٣٤.

[34] إبراهيم الشيخ خليل، "رسالة من مجاهد قديم: ذكريات مع القسام،" مجلة **شؤون فلسطينية**، عدد ٧، آذار/ مارس ١٩٧٢، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ وبيان الحوت، **مرجع سابق**، ص ٣٢٣.

[35] صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين**، ص ٦٨؛ ومحمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين**، ص ٢٩.

[36] عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام** (بيروت: دار الأمة للنشر، ١٩٨٤)، ص ٩٩. التوكيد للباحث.

[37] كامل خلة، **مرجع سابق**، ص ٥٨٤.

[38] علي خلف، **مرجع سابق**، ص ٥٣-٥٤؛ ومحمد نمر الخطيب، **مرجع سابق**، ص ٨٨؛ وانظر أيضاً:

S. Abdullah Schleifer "The Life and Thought of Izziddin Al-Qassam", *The Islamic Quarterly*, vol. 23, no. 2, 1979, p. 75.

[39] صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين**، ص ٧٠.

[40] **المرجع نفسه**، ص ٧٠.

[41] عوني العبيدي، **ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني**، ص ٤٢.

[42] كامل خلة، **مرجع سابق**، ص ٥٩٣-٥٩٤؛ وعبد الستار قاسم، **مرجع سابق**، ص ٦٤-٦٥؛ و انظر أيضاً:

The Palestine Police Force, *Annual Administrative Report, 1935* (Jerusalem: Government Printing Press, Undated), p. 40.

[٤٣] زهير المارديني، **ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني** (دون مكان: دون ناشر، ١٩٨٠)، ص ٨٣.

[٤٤] **عن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦: وصف وأخبار ووقائع ووثائق**، إعداد مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي بمصر (القاهرة: اللجنة الفلسطينية العربية، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦)، ص ٤١.

[٤٥] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص ٤٠.

[٤٦] وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٣٩٧. وانظر أيضاً:

Police Report, 1935, p. 40.

[٤٧] عبد الستار قاسم، **مرجع سابق**، ص ٦٦-٦٧.

[٤٨] أكرم زعيتر، **مرجع سابق**، ص ٣٢.

[٤٩] صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى**، ص ٣٩- ٤١.

[٥٠] محمد عزة دروزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها** (بيروت: دار الكلمة، ١٩٨٠)، ج ٢، ص ٥٢.

[٥١] محمد نمر الخطيب، **مرجع سابق**، ص ٨٨.

[٥٢] كامل خلة، **مرجع سابق**، ص ٥٩٤.

[٥٣] Despach, High Comissioner of Palestine to Secretary of State for the Colonies, 7 December 1935, Secret, C.O. (Colonial Office-London), 733/297/1.

[٥٤] عبد الستار قاسم، **مرجع سابق**، ص ١٠٦.

[٥٥] إميل الغوري، **مرجع سابق**، ص ١٥٦-١٥٩، و٢٣٢-٢٣٥.

[٥٦] "**وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨-١٩٣٩**،" جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨)، ص ٦١٤-٦١٦.

[٥٧] انظر خلاصة هذه الدراسة في: محسن صالح، **مرجع سابق**، ٣٥٨-٣٦٠.

[٥٨] حول دور جماعة القسام والإسلاميين بشكل عام في الثورة الكبرى، انظر: **المرجع نفسه**، ص ٣٦١-٤١٢.

[٥٩] حول الثورة الكبرى، انظر: **المرجع نفسه**، ص ٣٣١- ٣٥١.

[٦٠] حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، ط٥ (بيروت - دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٣)، ص ٢٨.

[٦١] حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**، ص ٢٧١-٢٧٣.

[٦٢] **المرجع نفسه**، ص ١٥٦-١٥٧.

[٦٣] حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، ص ١٩٨-١٩٩.

[٦٤] حول نشأة جماعة الإخوان في فلسطين، انظر: محسن صالح، **مرجع سابق**، ص ٤٣٨-٤٤٥.

[٦٥] **المرجع نفسه**، ص ٤٤٧-٤٥٠؛ وبيان الحوت، **مرجع سابق**، ص ٥٠٣.

[٦٦] كامل الشريف، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين** (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، ١٩٨٤)، ص ٤٦٤.

[٦٧] مقابلة مع كامل الشريف، عمَّان، ١٩٨٥/١٠/٢٨.

[٦٨] مقابلة مع يوسف عميرة، الكويت، ١٩٨٥/١١/٦.

[٦٩] عارف العارف، **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥٢** (صيدا - بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٤)، ج ١، ص ٢٢٧-٢٢٩.

[٧٠] مقابلة مع يوسف عميرة، الكويت، ١٩٨٥/١١/٦.

[٧١] مقابلة مع كامل الشريف، عمَّان، ١٩٨٥/١٠/٢٨.



[٧٢] عارف العارف، **النكبة**، ج ١، ص ٢٣٤.

[٧٣] مقابلة مع يوسف عميرة، الكويت، ١٩٨٥/١١/٦.

[٧٤] حول دور الأخوان المسلمين المصريين، انظر: كامل الشريف، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**؛ ومحسن صالح، **مرجع سابق**، ص ٤٦٨–٤٧٥. حول دور الإخوان المسلمين السوريين، انظر: مصطفى السباعي، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين** (دار النذير، ١٩٨٥)، وعارف العارف، **النكبة**، ج ١، ص ٣٢٦، و٣٢٩، و٤٣٥–٤٣٧.

[٧٥] حول دور الإخوان المسلمين السوريين، انظر: مصطفى السباعي، **مرجع سابق**؛ وعارف العارف، **النكبة**، ج ١، ص ٣٢٦، و٣٢٩، و٤٣٥–٤٣٧.

[٧٦] حول دور الإخوان المسلمين الأردنيين، انظر: محسن صالح، **مرجع سابق**، ص ٤٧٦–٤٧٧؛ وسليمان موسى، **أيام لا تنسى: الأردن في حرب ١٩٤٨** (الأردن: مطبعة المسلحة الأردنية، ١٩٨٢)، ص ٤٤–٤٥.

[٧٧] حول دور الإخوان المسلمين العراقيين، انظر: محسن صالح، **مرجع سابق**، ص ٤٧٧–٤٧٨؛ وبيان الحوت، **مرجع سابق**، ص٦١٢–٦١٣.

[٧٨] حول دور القساميين، انظر: محسن صالح، **مرجع سابق**، ص ٤٧٩–٤٨٠.

[٧٩] حول دور الجهاد المقدس، انظر: مسعود أبو يصير، **مرجع سابق**، ص ٣٤٠–٣٥٦.

[٨٠] كتب الكثير عن الحاج أمين ودوره، انظر مثلاً: بيان الحوت، **مرجع سابق**، ص ٢٠١–٢٤٩، و٥٨٥–٥٩٤؛ وزهير المارديني، **مرجع سابق**؛ وغيرها.

[٨١] مقابلة مع يوسف عميرة، الكويت، ١٩٨٥/١١/٦.

[٨٢] فايز سارة، "الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الأيديولوجيا وانقسام السياسة،" مجلة **المستقبل العربي**، عدد ١٢٤، حزيران/ يونيو ١٩٨٩، ص ٥٢.

[٨٣] انظر: **المرجع نفسه**؛ وربعي المدهون، "الحركة الإسلامية في فلسطين ١٩٢٨–١٩٨٧،" مجلة **شؤون فلسطينية**، عدد ١٨٧، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٨، ص ٢٠–٢٣.

[٨٤] حول ما سبق انظر: عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية** (الكويت: دار القلم، ١٩٨٦)، ص ٢٦–٣٨، و٤٨–٥٣.

[٨٥] Ammon Cohen, *Political Parties in the West Bank under the Jordanian Regime, 1949-1967* (London: Cornell University Press), p. 145.

[٨٦] مقابلة مع عبد العزيز علي، الكويت، ١٩٨٥/٩/٢٧.

[٨٧] مقابلة مع سليمان حمد، الكويت، ١٩٨٦/١/٢٥.

[٨٨] Alan Hart, *Arafat: A Political Biography*, 4th edition (Bloomington & Indianapolis (U.S.A.): Indiana University Press, 1989), p. 123. (Originally published as *Arafat: Terrorist or peacemaker*).

[٨٩] Helena Cobban, *The Palestinian Liberation Organization: People, Power & Politics* (U.S.A.: Cambridge University Press, 1988), pp.23-24.

[٩٠] Hart, *op. cit.*, pp. 556-557.

[٩١] عبد الله أبو عزة، **مرجع سابق**، ص ٧١–٩٦.

[٩٢] حول ما سبق: رسالة من سليمان حمد، الكويت، ١٩٩٤/٧/١٧.

ملاحظة: اطلع الأستاذ سليمان حمد على مسودة ما كتبه المؤلف حول نشأة فتح وعلاقتها بالإخوان، وقام بإضافة بعض المعلومات والتعديلات من خلال الرسالة المشار إليها.

وانظر أيضاً حول الموضوع نفسه: عبد الله أبو عزة، **مرجع سابق**، ٧١–٩٦.

[٩٣] انظر: ربعي المدهون، **مرجع سابق**، ص ٢٣-٢٤؛ وانظر: عوني جدوع العبيدي، **حزب التحرير الإسلامي** (عمّان: دار اللواء، ١٩٩٣). وانظر أيضاً:

Cohen, *op. cit.*, p. 209.

[٩٤] مقابلة مع عبد العزيز علي، الكويت، ١٩٨٥/٩/٢٧؛ وانظر: عبدا لله أبو عزة، **مرجع سابق**، ص ١٢٧-١٤٤.

[٩٥] مقابلة مع عبد العزيز علي، الكويت، ١٩٨٥/٩/٢٧.

ملاحظة: يذكر محمد الحسن أن الإسلاميين السوريين أسهموا بـ ٩٥٠ مجاهداً، منهم ٢٥٠ من الإخوان وأسهمت حماة وحدها بـ ١٦٠ مجاهداً، واستشهد منهم العشرات وكان نشاطهم ضمن معسكرات الشيوخ. وقال أيضاً: إنه أسهم من إخوان السودان خمسون أخاً منهم ٢٢ يحملون الدكتوراه و٢٦ دراسات عليا واثنان مدرسان. غير أن محمد الحسن لا يشير إلى مصدر هذه المعلومات التي يبدو لنا أنها لا تخلو من المبالغة. انظر: محمد الحسن، **موقف الإسلاميين من قضية فلسطين** (قطر: مكتبة الفتح ومكتبة الغزالي، ١٩٩٥)، ص ١٣٩، و ٢١١.

[٩٦] مقابلة مع عبد العزيز علي، الكويت، ١٩٨٥/٩/٢٧.

[٩٧] عبد الله عزام، **حماس: حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين: الجذور التاريخية والميثاق** (بيشاور، باكستان: مكتب خدمات المجاهدين، ١٩٨٩)، ص ٧١-٧٣.

[٩٨] محمد الحسن، **مرجع سابق**، ص ١٣٩.

[٩٩] عبد الله عزام، **مرجع سابق**، ص ٧٤.

[١٠٠] **المرجع نفسه**، ص ٧٣-٧٤.

[١٠١] مقابلة مع عبد العزيز علي، الكويت، ١٩٨٥/٩/٢٧.

[١٠٢] المرجع نفسه.

[١٠٣] عبد الله عزام، **مرجع سابق**، ص ٧٦.

[١٠٤] انظر: زياد محمود علي، **عداء اليهود للحركة الإسلامية** (عمّان: دار الفرقان، ١٩٨٢)، ص ١٠٠-١١٤؛ وفايزة سارة، **مرجع سابق**، ص ٥٥.

[١٠٥] ربعي المدهون، **مرجع سابق**، ص ٢٧.

[١٠٦] انظر: أحمد بن يوسف، **أحمد ياسين: الظاهرة المعجزة وأسطورة التحدي**، ط ٢ (عمّان: دار الفرقان، ١٩٩٠)، ص ٧-٢١، و ٨٠، و ٩٢.

[١٠٧] انظر: مقابلة مع الدكتور فتحي الشقاقي، مجلة **الوسط**، لندن، ١٩٩٥/١١/٦.

[١٠٨] **المرجع نفسه**.

[١٠٩] انظر: حمد سعيد الموعد، "المصادر الفكرية لحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين،" جريدة **الحياة**، لندن، ١٩٩٥/١/٢٧.

[١١٠] **الوسط**، ١٩٩٥/١/٣٠.

[١١١] **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/١١/٦.

[١١٢] **المرجع نفسه**، وانظر أيضاً: جريدة **الأسواق**، عمَّان، ١٩٩٥/١٠/٣٠.

[١١٣] **الوسط**، ١٩٩٥/١/٣٠.

[١١٤] **المرجع نفسه**.

[١١٥] **المرجع نفسه**؛ وانظر أيضاً حول حركة الجهاد الإسلامي: زياد أبو عمرو، **الحركة الإسلامية في الضفة وقطاع غزة** (عكا، فلسطين المحتلة: دار الأسوار، ١٩٨٩)، ص ١١١-١٤٨.

[١١٦] انظر: غسان حمدان، **الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد** (الكويت: دار الفلاح، ١٩٨٩)، ص ٣٦.



[117] **المرجع نفسه**، ص ٣٧–٣٨.

[118] جريدة **صوت الشعب**، عمَّان، ١٩٩٣/٨/١٧.

[119] حول عملية الطائرة الشراعية، انظر: عبد القادر ياسين، **مجتمع الانتفاضة الفلسطينية**، سلسلة كتاب الأهالي، رقم ٤١ (القاهرة: أيار/ مايو ١٩٩٢)، ص ٣٦، وانظر أيضاً: غسان حمدان، **مرجع سابق**، ص ٣٠.

[120] غسان حمدان، **مرجع سابق**، ص ٤٣٥–٤٣٦.

[121] انظر نص البيان الأول للقيادة الموحدة في: أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، **الانتفاضة: مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق** (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩)، ص ١٩٤–١٩٥.

[122] **صوت الشعب**، ١٩٩٣/١٢/٨.

[123] نشرت جريدة **نيويورك تايمز** ملخصاً لوثيقة أبي شريف في ١٩٨٨/٦/٢٢، انظر:

Rex Brynen (Editor), *Echoes of Intifada: Regional Repercussions of Palestinian Israeli Conflict* (U.S.A.: Westview Press, 1991), p. 144.

[124] انظر: جريدة **الرأي**، عمَّان، ١٩٨٨/٨/١.

[125] انظر: لطفي الخولي، **الانتفاضة والدولة الفلسطينية** (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨)، ص ٣٤٠–٣٥١.

[126] انظر: **الرأي**، ١٥–١٩٨٨/١٢/١٦.

[127] انظر: النتائج النهائية للانتخابات، **المرجع نفسه**، ١٩٨٨/١١/٥.

[128] انظر: جريدة **الدستور**، الأردن، ١٩٩٦/٦/١٣.

[129] انظر: جواد الحمد، **عملية السلام في الشرق الأوسط: وتطبيقاتها على المسارين الفلسطيني والأردني** (عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٦)، ص ٢٠–٤١.

[130] انظر نص الاتفاق في: عماد يوسف، **الانعكاسات السياسية لاتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني** (عمَّان: مركز الدراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤)، ص ١٢٨–١٣٦.

[131] انظر: **الدستور**، ٤–١٩٩٤/٥/٥؛ وداود سليمان، **السلطة الوطنية الفلسطينية في عام ١٩٩٤–١٩٩٥** (عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٥)، ص ٢٣.

[132] انظر: جواد الحمد، **مرجع سابق**، ص ٤٣–٤٤.

[133] انظر: **فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين** (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٠). وهو كتاب يتضمن مجموعة من الفتاوى في هذا الموضوع. كما أصدر علماء المسلمين فتاوى عديدة بعد توقيع اتفاقية أوسلو، وكان من بينها "بيان نصرة وتضامن" وقعه علماء المسلمين ومعهم قادة الحركات الإسلامية والكثير من المفكرين وممثلي القوى الوطنية والسياسية، والذي أكد على أن قضية فلسطين هي القضية المركزية للأمة العربية والإسلامية، وأن الأمة لن تقبل التفريط بأي جزء من الأرض المباركة مهما كانت مبررات التفريط، وأن نهج التسوية الذي تحاول فرضه قوى الاستكبار العالمي والصهيوني هو نهج مُدان ومرفوض، وأن الاعتراف السياسي بالاحتلال أو التطبيع معه أمر مرفوض، وأن خيار الجهاد هو خيار الأمة المشروع، كما طالبوا بدعم ومناصرة الشعب الفلسطيني بكل الوسائل الممكنة، ودعم حركات الجهاد والمقاومة، وحذروا من التعرض لها بسوء. ومن بين من وقَّع على هذا الاتفاق يوسف القرضاوي، ومحمد حامد أبو النصر، ومصطفى مشهور، وحسن الترابي، وأبو الحسن الندوي، والقاضي حسين أحمد، وراشد الغنوشي، وعبد المجيد الزنداني، وفتحي يكن، وعبد المجيد ذنيبات، وعمر الأشقر، وجاسم الياسين، وعجيل النشمي، ومأمون الهضيبي، وإسحق الفرحان، وجاب الله عبد الله... وغيرهم كثير. وقد صدر هذا البيان في نيسان/أبريل ١٩٩٥، ونشرته مجلة **فلسطين المسلمة**، لندن، نيسان/أبريل ١٩٩٦.

[١٣٤] حسب تقرير دائرة الشؤون الفلسطينية في الأردن، فقد صادر الكيان الإسرائيلي حتى نهاية حزيران/ يونيو ١٩٩٣ حوالي ٣,٠٨ مليون دونم من أرض الضفة والقطاع، وهو ما يشكل أكثر من نصف مساحتهما، انظر: **صوت الشعب**، ١٩٩٣/٧/١٧.

[١٣٥] استقال ستة أعضاء من أصل ١٨ عضواً من اللجنة التنفيذية للمنظمة في إثر اتفاقات أوسلو، وأقرَّت أموراً مهمة دون اكتمال النصاب القانوني لاجتماعها وهو ١٢ عضواً بمقاطعة آخرين لاجتماعاتها مثل فاروق قدومي، وعقدت اجتماعها في القاهرة يومي ٢١-١٩٩٥/٢/٢٢ بحضور تسعة من أعضائها فقط. وقد اعترض سليم الزعنون - رئيس المجلس الوطني بالإنابة (وهو من حركة فتح) على ذلك في مذكرة رفعها إلى ياسر عرفات في ١٩٩٥/٢/٢٧، وقال: إنه حسب المادة ١٤ ب من قانون المجلس فإنه إذا كانت الحالات الشاغرة ثلث أعضاء اللجنة التنفيذية أو أكثر يتم ملؤها من قبل المجلس الوطني في جلسة خاصة يدعى لها خلال مدة لا تتجاوز ثلاثين يوماً. انظر: **الأسواق**، ١٩٩٥/٣/٢٩.

[١٣٦] جريدة **الشرق الأوسط**، لندن، ١٩٩٥/٣/٦.

[١٣٧] **المرجع نفسه**، ١٩٩٤/٩/٢٤.

[١٣٨] **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/٢/١٥.

[١٣٩] **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/١/٨.

[١٤٠] **الحياة**، ١٩٩٥/٣/٧.

[١٤١] **الدستور**، ١٩٩٤/٩/٢٥.

[١٤٢] **الحياة**، ١٩٩٥/٨/٢١.

[١٤٣] **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/٣/٥.

[١٤٤] **ميثاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس)**، مادة ١، ٢. نشر ميثاق حماس في ١٩٨٨/٨/١٩.

[١٤٥] **المرجع نفسه**، مادة ٩.

[١٤٦] **المرجع نفسه**، المواد ١١، ١٣-١٥.

[١٤٧] **المرجع نفسه**، المواد ١٦- ٢١، و٢٥.

[١٤٨] **المرجع نفسه**، المواد ٢٣، ٢٥-٢٧.

[١٤٩] **المرجع نفسه**، مادة ٣١.

[١٥٠] **المرجع نفسه**، مادة ٢٢، و٣٠.

[١٥١] مثلاً: حصل مؤيدو حماس في انتخابات ١٩٩٣/١١/٢٧، في جامعة غزة على ٨١٪ من الأصوات، وحصلت فتح على ١٠,٦٪ انظر: **فلسطين المسلمة**، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٤.

[١٥٢] انظر: **فلسطين المسلمة**، شباط/ فبراير ١٩٩٥، وتموز/ يوليو ١٩٩٥.

[١٥٣] انظر: **المرجع نفسه**، حزيران/ يونيو ١٩٩٦؛ وجريدة **القدس العربي**، لندن، ١٩٩٦/٥/١٠.

[١٥٤] في انتخابات حزيران/ يونيو ١٩٩٥ تقاسمت حماس وفتح مناصفة ٧٨ مقعداً من أصل ٨١ مقعداً، وحصلت الكتلة المؤيدة للجبهة الشعبية على المقاعد الثلاث الباقية، وتوقعت حماس نصراً أكبر لولا اعتقال سلطات الاحتلال ٣٠٠ من أنصارها في الجامعة.. انظر: **فلسطين المسلمة**، تموز/ يوليو ١٩٩٥.

[١٥٥] انظر: عبد الجواد صالح، "استعراض وتقويم التجارب الانتخابية السابقة في الضفة والقطاع،" في جواد الحمد (محرر)، **انتخابات الحكم الذاتي الفلسطيني** (عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤)، ص ٣٠- ٣١. والنسب المشار إليها لانتخابات عقدت خلال السنوات الأربع الماضية، ولم يحدث تغيير ملحوظ في ميزان القوى حتى الآن.



[156] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٢٥-٢٧. وانظر أيضاً: عبد الجواد صالح، "انتخابات الغرف التجارية والصناعية مثلاً،" **الحياة**، ١٩٩٥/١/٢٧.

[157] انظر: عاطف عدوان وجواد الدلو، "توجهات الناخب الفلسطيني في الضفة والقدس والقطاع، العوامل المؤثرة فيها والنتائج المتوقعة في ضوئها،" في جواد الحمد (محرر)، **انتخابات الحكم الذاتي الفلسطيني** (عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤)، ص ١٢٦-١٢٧.

[158] انظر: **المرجع نفسه**، ص ١٢٤؛ وانظر ورقة عمل مقدمة من خليل الشقاقي بنفس العنوان في: **المرجع نفسه**، ص ١٤٣.

[159] **الرأي**، ١٩٩٥/٦/٢٤.

[160] مجلة **الدعوة**، ١٩٩٥/٥/١.

[161] **الحياة**، ١٩٩٥/٣/٥. التوكيد للباحث.

[162] انظر: **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/٨/٩، و١٩٩٥/١٠/٢٣؛ **الشرق الأوسط**، ١٩٩٥/١٠/٢٣؛ ومجلة **المجتمع**، الكويت، ١٩٩٥/١٠/١٧.

[163] انظر: **الشرق الأوسط**، ١٩٩٦/٥/١٠؛ و**الحياة** ١٩٩٦/٥/١٠. وفي ١٩٩٦/١٠/٩ رفض القضاء الأمريكي استئناف د. أبو مرزوق، وأكد على السماح بتسليمه للكيان الإسرائيلي، انظر: **الرأي**، ١٩٩٦/١٠/١١؛ وجريدة **السبيل**، عمّان، ١٩٩٦/١٠/١٥.

[164] انظر: **الأسواق**، ١٩٩٥/٨/١٠؛ و**الشرق الأوسط**، ١٩٩٦/٥/١٠.

[165] جريدة **الأردن**، عمّان، ١٩٩٦/٨/١٧.

[166] انظر: موسى الكيلاني، "الرقم الأصعب في المعادلة،" في **الدستور**، ١٩٩٥/٢/١. التوكيد للباحث.

[167] **المرجع نفسه**.

[168] **الدستور**، ١٩٩٣/٣/٣١.

[169] انظر: غسان دوعر، **موعد مع الشاباك: دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام ١٩٩٣** (لندن: منشورات فلسطين المسلمة، ١٩٩٥)، ص ١٥٧.

[170] **المرجع نفسه**، ص ١٦٨-١٦٩.

[171] **المرجع نفسه**، ص ١٧٢.

[172] **المرجع نفسه**، ص ٢٢٩.

[173] **الأردن**، ١٩٩٦/٨/١٧.

[174] غسان دوعر، **أسود حماس: حرب الأيام السبعة** (لندن: منشورات فلسطين المسلمة، ١٩٩٣)، ص ١٤.

[175] حول الشيخ أحمد ياسين، انظر: أحمد بن يوسف، **مرجع سابق**، ص ٧-٢١، و ٧١-٧٣، و٨٠، و٩٢.

[176] غسان دوعر، **أسود حماس**، ص ١١.

[177] انظر: **المرجع نفسه**، ص ١٤.

[178] انظر: غسان دوعر، **عماد عقل: أسطورة الجهاد والمقاومة** (لندن: منشورات فلسطين المسلمة، ١٩٩٤)، ص ٢٣.

[179] غسان دوعر، **أسود حماس**، ص ٢١-٢٢.

[180] **المرجع نفسه**، ص ٢٩-٣٠.

[181] **المرجع نفسه**، ص ٣٣-٤٢.

[182] **المرجع نفسه**، ص ٤٤.

[183] انظر: **المرجع نفسه**، ص٤٧؛ وقد غطى الإعلام بوسائله المرئية والمسموعة والمقروءة تفاصيل الإبعاد وأحوال المبعدين وعودتهم منذ إبعادهم وطوال عام ١٩٩٣. انظر مثلاً: أعداد مجلة **فلسطين المسلمة** لسنة ١٩٩٣.

[184] غسان دوعر، **موعد مع الشاباك**، ص ١٨٤، و١٩٢.

[185] **المرجع نفسه**، ص ٧٥–٩٠.

[186] **المرجع نفسه**، ص ٩٢–٩٥.

[187] **المرجع نفسه**، ص ١٢٦–١٢٧.

[188] **المرجع نفسه**، ص ١٢٧–١٣٠.

[189] **المرجع نفسه**، ص ١١٣–١٢١.

[190] **المرجع نفسه**، ص ٩٧–٩٨.

[191] غسان دوعر، **عماد عقل**، ص ١٨–١٩، و٢٢، و٢٤، و٢٧–٢٨، و٣٠، و٣٦، و٤٣.

[192] **المرجع نفسه**، ص ١٥٩.

[193] **المرجع نفسه**، ص ١٥٢.

[194] **المرجع نفسه**، ص ١٠٥–١٠٨.

[195] **المرجع نفسه**، ص ١٥٨.

[196] غسان دوعر، **موعد مع الشاباك**، ص ٣٧–٣٩.

[197] القرآن الكريم، سورة البقرة: ١٩٤.

[198] **الدستور**، ١٩٩٥/٩/٥.

[199] انظر: نص خطبة الجمعة التي ألقاها الشيخ يوسف القرضاوي، والتي نقلت على التلفزيون مباشرة في قطر، ١٩٩٦/٣/٩. ونشرت جزءاً منها مجلة **فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل ١٩٩٦.

[200] **الدستور**، ١٩٩٥/٩/٥.

[201] انظر: **فلسطين المسلمة**، أيار/ مايو ١٩٩٤.

[202] انظر: **المرجع نفسه**، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٤.

[203] حول ما سبق، انظر: **المرجع نفسه**؛ و**السبيل**، ١٩٩٤/١٠/١٨؛ و**الرأي**، ١٩٩٤/١٠/٢٠.

[204] **فلسطين المسلمة**، شباط/ فبراير ١٩٩٥.

[205] انظر: **الرأي**، ١٩٩٦/١/٧.

[206] **السبيل**، ١٩٩٥/١/٢٤.

[207] **الرأي**، ١٩٩٥/١/٢٩.

[208] **الدستور**، ١٩٩٥/٢/٢٨.

[209] **الرأي**، ١٩٩٦/١/١٣. ومن أسباب استقالته اتهامه بالتقصير جراء عملية اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين في ١٩٩٥/١١/٤.

[210] جريدة **البلاد**، عمّان، ١٩٩٥/٨/١٦.

[211] انظر: **الرأي**، ٣ و١٩٩٥/٤/٨؛ و**الدستور**، ١٩٩٥/٤/٤.

[212] انظر: **الرأي**، ١٩٩٥/٦/٢٧.

[٢١٣] انظر: **الحياة**، ٥ و١٩٩٥/٨/٩؛ و**الدستور** ١٩٩٥/٨/١١؛ و**فلسطين المسلمة**، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥.

[٢١٤] انظر: **الرأي**، ١٩٩٥/٨/٢٢؛ و**القدس العربي**، ١٩٩٥/٨/٢٢.

[٢١٥] **الدستور**، ١٩٩٥/٦/٣٠.

[٢١٦] **الأسواق**، ١٩٩٥/٨/٢٦.

[٢١٧] **الرأي**، ١٩٩٦/١/٧.

[٢١٨] **المرجع نفسه**، ١٩٩٦/١/٨؛ و**الدستور**، ١٩٩٦/١/٩.

[٢١٩] انظر: **الرأي**، ١٩٩٦/١/٩؛ و**الأسواق**، ١٩٩٦/١/١١.

[٢٢٠] **الرأي**، ١٩٩٦/١/٧.

[٢٢١] انظر: **المرجع نفسه**؛ و**الحياة**، ١٩٩٦/١/٧؛ و**الأسواق**، ١٩٩٦/١/٧.

[٢٢٢] انظر: **فلسطين المسلمة**، شباط/ فبراير ١٩٩٦.

[٢٢٣] انظر: **المرجع نفسه**، نيسان/أبريل ١٩٩٦؛ و**الرأي** الأعداد: ٢٦ شباط/فبراير – ١ آذار/مارس ١٩٩٦.

[٢٢٤] **الرأي**، ١٩٩٦/٢/٢٨؛ و**فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل ١٩٩٦.

[٢٢٥] **الرأي**، ١٩٩٦/٣/٤؛ و**فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل ١٩٩٦.

[٢٢٦] **الرأي**، ١٩٩٦/٣/٥؛ و**الحياة**، ١٩٩٦/٣/٩؛ و**فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل ١٩٩٦.

[٢٢٧] انظر حول المؤتمر ونصوص كلمات الوفود والبيان الختامي، في: **الرأي**، ١٩٩٦/٣/١٤؛ وانظر أيضاً: **فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل ١٩٩٦.

[٢٢٨] **فلسطين المسلمة**، نيسان/ أبريل ١٩٩٤.

[٢٢٩] انظر: **الرأي** ٢٣–١٩٩٥/١/٢٥.

[٢٣٠] انظر: **الدستور**، ١٩٩٥/١/٢٣؛ و**القدس العربي**، ٢٤ و١٩٩٥/١/٣٠؛ و**الشرق الأوسط**، ١٩٩٥/٢/٧؛ و**الوسط**، ١٩٩٥/١/٣٠.

[٢٣١] **الحياة**، ١٩٩٥/١٠/٣٠.

[٢٣٢] **الوسط**، ١٩٩٥/١١/٦.

[٢٣٣] **الرأي**، ١٩٩٥/١١/٣.

[٢٣٤] انظر: **الرأي**، ١٩٩٦/٣/٥؛ و**الحياة** ١٩٩٦/٣/٩.

[٢٣٥] **الوسط**، ١٩٩٥/١/٣٠.

[٢٣٦] **المرجع نفسه**، ١٩٩٦/٤/١.

[٢٣٧] عماد يوسف، **مرجع سابق**، ص ١٦٥–١٦٦، و١٩٩، و٢١٠.

[٢٣٨] داود سليمان، **مرجع سابق**، ص ٦٠.

[٢٣٩] انظر: جريدة **المحرر**، باريس، ١٩٩٥/٥/٨؛ و**المجتمع**، ١٩٩٦/٦/٢٥.

[٢٤٠] **الرأي**، ١٩٩٥/٥/٢.

[٢٤١] **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/٥/١٦.

[٢٤٢] **الشرق الأوسط**، ١٩٩٥/٣/٢٢.

[٢٤٣] جريدة **السياسة**، الكويت، ١٩٩٥/٤/٢٧.

[٢٤٤] **الحياة**، ١٩٩٥/٣/٥.

[٢٤٥] ما سبق هو ملخص يمكن استنتاجه من خلال الأدبيات المنشورة والمقابلات الصحفية لحماس خلال السنوات ١٩٩٣–١٩٩٦.

[٢٤٦] **الرأي**، ١٩٩٥/٨/٢٥.

[٢٤٧] داود سليمان، **مرجع سابق**، ص ١٣٥.

[٢٤٨] انظر: **المرجع نفسه**، ص ٧٥–٨٣؛ وانظر: تقرير منظمة العفو الدولية، محاكمة منتصف الليل: المحاكمات السرية والفورية والجائرة في غزة، حزيران/ يونيو ١٩٩٥، رقم الوثيقة MDE ١٥/١٥/٩٥.

[٢٤٩] انظر: تقرير منظمة العفو الدولية، محاكمة منتصف الليل، ص ٢٠؛ و**الحياة** ١٩٩٥/٥/١٦.

[٢٥٠] انظر: **فلسطين المسلمة**، تشرين الثاني/ نوفمبر، وكانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٤، وكانون الثاني/ يناير ١٩٩٥.

[٢٥١] انظر: **الشرق الأوسط**، ١٩٩٥/٦/٢٧؛ و**الرأي** من ١٩٩٥/٧/٢؛ و**فلسطين المسلمة**، آب/ أغسطس ١٩٩٥.

[٢٥٢] انظر: **المجتمع**، ١٩٩٦/٦/٢٩.

[٢٥٣] **الرأي**، ١٩٩٦/٤/١٨.

[٢٥٤] **الشرق الأوسط**، ١٩٩٦/٤/١٤.

[٢٥٥] انظر حول ما سبق: **الرأي** ٢–١٩٩٦/٨/٥؛ و**الحياة** ٤–١٩٩٦/٨/٥؛ و**السبيل**، ١٩٩٦/٨/١٣. وتوفي بعد ذلك خالد عبايل في سجن رام الله التابع لسلطة الحكم الذاتي، وسلمت جثته لذويه في ١٩٩٦/٨/١٧، انظر: **فلسطين المسلمة**، أيلول/ سبتمبر ١٩٩٦.

[٢٥٦] الوثيقة نشرتها **السبيل**، ١٩٩٦/٤/٢٣؛ ومجلة **الأسبوع العربي**، باريس ١٩٩٦/٥/٦.

[٢٥٧] حول ما سبق انظر مثلاً: **الدستور**، ١٩٩٥/٨/٣١؛ و**الأسواق**، ١٩٩٥/٩/٢٠؛ و**الرأي** ١١ و١٩٩٦/٤/٢٣.

[٢٥٨] **الحياة**، ١٩٩٥/٨/٢١.

[٢٥٩] **المرجع نفسه**، ١٩٩٥/٥/١٦.

[٢٦٠] **الشرق الأوسط**، ١٩٩٥/٨/١٧.

[٢٦١] **الأسواق**، ١٩٩٥/٩/٢٠.

[٢٦٢] عن تصريح مسؤول في حماس في ١٩٩٦/٤/١١، وبيان لحماس في ١٩٩٦/٤/٢٢، انظر: **فلسطين المسلمة**، أيار/ مايو ١٩٩٦.

[٢٦٣] انظر: **الوسط**، ١٩٩٥/١٢/٢٥.

[٢٦٤] **الرأي**، ١٩٩٥/٨/٢٧.

[٢٦٥] **الحياة**، ١٩٩٥/٩/٥.

[٢٦٦] **الدستور**، ١٩٩٥/٩/٦.

[٢٦٧] انظر: **الدستور**، ١٩٩٥/١٢/٢٣؛ و**الرأي**، ١٩٩٥/١٢/٢٤.

[٢٦٨] **الدستور**، ١٩٩٥/١٢/٢٣.

[٢٦٩] انظر مثلاً: مقابلة مع خالد مشعل في **فلسطين المسلمة**، آب/ أغسطس ١٩٩٦.

[٢٧٠] **الأسواق**، ٨–١٩٩٥/٣/٩.

[٢٧١] **الدستور**، ١٩٩٤/٨/٣٠.

[٢٧٢] **فلسطين المسلمة**، آب/ أغسطس ١٩٩٦.

[٢٧٣] **الحياة**، ١٩٩٥/٩/٢٣.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١. **القرآن الكريم.**

٢. **الوثائق:**

- **عن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦: وصف وأخبار ووقائع ووثائق**، إعداد مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي بمصر. القاهرة: اللجنة الفلسطينية العربية، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٦.
- **فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين**. الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٠.
- **ملف وثائق فلسطين**، الجزء الأول: ١٩٣٧–١٩٤٩، إعداد وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات. القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٦٩.
- منظمة العفو الدولية، **محاكمة منتصف الليل: المحاكمات السرية والفورية والجائرة في غزة**، حزيران/ يونيو ١٩٩٥. رقم الوثيقة MDE ١٥/١٥/٩٥.
- **ميثاق حركة المقاومة الإسلامية "حماس"**.
- **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني**، إعداد سمير أيوب. بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٤.
- **وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨–١٩٣٩**، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨.

٣. **المذكرات واليوميات:**

- أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**. بيروت: دار النهار، ١٩٦٩.
- أكرم زعيتر، **الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥–١٩٣٩: يوميات أكرم زعيتر**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠.
- حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، ط ٥. بيروت – دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٣.

- خليل السكاكيني، **كذا أنا يا دنيا**. دون مكان: دون ناشر، ١٩٨٠.
- زهير المارديني، **ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني**، دون مكان: دون ناشر، ١٩٨٠.
- عبد الله أبو عزة، **مع الحركة الإسلامية في الدول العربية**. الكويت: دار القلم، ١٩٨٦.
- **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ترجمة حرب عبد الحميد. القاهرة: دار الأنصار، ١٩٧٨.

٤. المقابلات الشخصية:

- مقابلة مع سليمان حمد. الكويت، ١٩٨٦/١/٢٥.
- مقابلة مع عبد العزيز علي. الكويت، ١٩٨٥/٩/٢٧.
- مقابلة مع كامل الشريف. عمَّان، ١٩٨٥/١٠/٢٨.
- مقابلة مع يوسف عميرة. الكويت، ١٩٨٥/١١/٦.

٥. المراجع:

- أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٠.
- أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦.
- أحمد بن يوسف، **أحمد ياسين: الظاهرة المعجزة وأسطورة التحدي**. عمَّان: دار الفرقان، ١٩٩٠.
- أرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني. بيروت: دار النهضة العربية، دون تاريخ.
- الأزدي، **تاريخ فتوح الشام**، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر. القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠.
- أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، **الانتفاضة: مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق**. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩.
- إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة دار المعارف، ١٩٨٣.
- إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٩.
- أميل الغوري، **فلسطين عبر ستين عاماً**. بيروت: دار النهار، ١٩٧٢.
- بسام العسلي، **صلاح الدين الأيوبي**. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣.
- البلاذري، **فتوح البلدان**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣.

- بهاء الدين بن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**. مصر: شركة طبع الكتاب العربية، ١٣١٧هـ.
- بولس حنا مسعد، **همجية التعاليم الصهيونية**. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٩.
- بيان نويهض الحوت، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧–١٩٤٨**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١.
- جميل العسلي، **أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة تاريخية لمقابر القدس وتربها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها**. عمَّان: مؤسسة آل البيت: المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨١.
- جواد الحمد (محرر)، **انتخابات الحكم الذاتي الفلسطيني**. عمَّان: مركز الدراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤.
- جواد الحمد، **عملية السلام في الشرق الأوسط: وتطبيقاتها على المسارين الفلسطيني والأردني**. عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٦.
- جوزيف نسيم يوسف، **تاريخ الدولة البيزنطية**. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، دون تاريخ.
- **حرب فلسطين ١٩٤٧–١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)**، ترجمه عن العبرية أحمد خليفة. قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤.
- حسان علي حلاق، **موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧–١٩٠٩**، ط ٢. بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٠.
- حسن البنا، **مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا**. القاهرة: دار الشهاب، دون تاريخ.
- خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨–١٩١٨**، سلسلة كتب فلسطينية، رقم ٤١. بيروت: مركز الأبحاث، ١٩٧٣.
- داود سليمان، **السلطة الوطنية الفلسطينية في عام ١٩٩٤–١٩٩٥**. عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٥.
- رشيد الدين فضل الله الهمذاني، **جامع التواريخ**، المجلد الثاني، ج ١، نقله للعربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد. الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة – دار إحياء الكتب العربية، دون تاريخ.

- زياد أبو عمرو، **الحركة الإسلامية في الضفة وقطاع غزة**. عكا، (فلسطين المحتلة): دار الأسوار، ١٩٨٩.
- زياد محمود علي، **عداء اليهود للحركة الإسلامية**. عمَّان: دار الفرقان، ١٩٨٢.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠.
- سليمان موسى، **أيام لا تنسى: الأردن في حرب ١٩٤٨**. الأردن: مطبعة القوات المسلحة الأردنية، ١٩٨٢.
- سميح حمودة، **الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القاسم ١٨٨٢–١٩٣٥**، ط ٢. عمَّان: دار الشروق، ١٩٨٦.
- السيد الباز العريني، **الشرق الأدنى في العصور الوسطى (١) الأيوبيون**. دون مكان: دار النهضة العربية، دون تاريخ.
- السيد الباز العريني، **المماليك**. بيروت: دار النهضة العربية، دون تاريخ.
- سيد قطب، **الجهاد في سبيل الله**.
- سيد قطب، **في ظلال القرآن**. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧١.
- شفيق جاسر أحمد محمود، **تاريخ القدس: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية**. عمَّان: دار البشير، ١٩٨٤.
- شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦.
- صالح مسعود أبو يصير، **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن**. بيروت: دار الفتح، ١٩٧٠.
- صبحي ياسين، **الثورة العربية الكبرى في فلسطين: ١٩٣٦–١٩٣٩**. القاهرة: وزارة الثقافة – دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.

- صبحي ياسين، **حرب العصابات في فلسطين**. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر – دار الكتاب العربي، دون تاريخ.
- ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، **فضائل بيت المقدس**، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام، رقم ٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥.
- ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم: ١٢٢٠ق.م.–١٣٥٩م منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي**. بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤.
- عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**. القدس: فوزي يوسف، ١٩٦١.
- عارف العارف، **النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧–١٩٥٢**. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٤.
- عبد الستار قاسم، **الشيخ المجاهد عز الدين القسام**. بيروت: دار الأمة للنشر، ١٩٨٤.
- عبد السلام هارون، **تهذيب سيرة ابن هشام**، ط ٢. بيروت – الكويت: مؤسسة الرسالة – دار البحوث العلمية، ١٩٧٩.
- عبد العزيز محمد عوض، **مقدمة في تاريخ فلسطين الحديث ١٨٣١–١٩١٤**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر – مكتبة المحتسب، ١٩٨٣.
- عبد القادر ياسين، **مجتمع الانتفاضة الفلسطينية**، سلسلة كتاب الأهالي، رقم ٤١. القاهرة، ١٩٩٢.
- عبد الله عزام، **حماس: حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين: الجذور التاريخية والميثاق**. بيشاور، (باكستان): مكتب خدمات المجاهدين، ١٩٨٩.
- عجاج نويهض، **رجال من فلسطين**. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١.
- علي حسين خلف، **تجربة الشيخ عز الدين القسام**. عمَّان: دار ابن رشد، ١٩٨٤.
- علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محيي الدين عبد الحميد. مصر: مطبعة السعادة، ١٩٤٨.
- علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، **الكامل في التاريخ**. بيروت: دار صادر للطباعة – دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- العماد الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القدسي**.



- عماد الدين خليل، **نور الدين محمود: الرجل والتجربة**. دمشق – بيروت: دار القلم، ١٩٨٠.
- عماد يوسف، **الانعكاسات السياسية لاتفاق الحكم الذاتي الفلسطيني**. عمَّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤.
- عمر سليمان الأشقر، **العقيدة في الله**. الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٤.
- عوني العبيدي، **ثورة الشهيد عز الدين القسام وأثرها في الكفاح الفلسطيني**. الزرقاء، (الأردن): مكتبة المنار، دون تاريخ.
- عوني العبيدي، **حزب التحرير الإسلامي**. عمَّان: دار اللواء، ١٩٩٣.
- غسان حمدان، **الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد**. الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩.
- غسان دوعر الجربان، **حرب الأيام السبعة: أسود حماس**. عمَّان: منشورات فلسطين المسلمة، ١٩٩٣.
- غسان دوعر، **عماد عقل**. عمَّان: منشورات فلسطين المسلمة، ١٩٩٤.
- غسان دوعر، **موعد مع الشاباك: دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام ١٩٩٣**. لندن: منشورات فلسطين المسلمة، ١٩٩٥.
- فايد حماد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي**. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨.
- كامل خلة، **فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢–١٩٣٩**. طرابلس، (ليبيا): المنشأة العامة للنشر، ١٩٨٢.
- كامل الشريف، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**. الزرقاء، (الأردن): مكتبة المنار، ١٩٨٤.
- لطفي الخولي، **الانتفاضة والدولة الفلسطينية**. القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٨.
- مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**. عمَّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣.
- محسن محمد صالح، **التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد ١٩١٧–١٩٤٨**. الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩.
- محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**. صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٢.

- محمد أمين الحسيني، **حقائق عن قضية فلسطين**. القاهرة: مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، ١٩٥٧.
- محمد الحسن، **موقف الإسلاميين من قضية فلسطين**. قطر: مكتبة الفتح ومكتبة الغزالي، ١٩٩٥.
- محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩.
- محمد سلامة النحال، **سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية**. بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١.
- محمد عبد الله الخطيب التبريزي، **مشكاة المصابيح**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥.
- محمد عثمان شبير، **بيت المقدس وما حوله**. الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩.
- محمد عزة دروزة، **فلسطين وجهاد الفلسطينيين: في معركة الحياة والموت ضد بريطانيا والصهيونية العالمية ١٩١٧-١٩٤٨**. القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٩.
- محمد عزة دروزة، **العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها**. بيروت: دار الكلمة، ١٩٨٠.
- محمد علي الزعبي، **دفائن النفسية اليهودية**. بيروت: دون ناشر، ١٩٦٨.
- محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**. بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١.
- محمد بن عمر الواقدي، **فتوح الشام**. بيروت: دار الجيل، دون تاريخ.
- محمد ناصر الدين الألباني، **تخريج أحاديث "فضائل الشام ودمشق" للربعي**. دمشق: المكتب الإسلامي، دون تاريخ.
- محمد نمر الخطيب، **من أثر النكبة**. دمشق: المطبعة العمومية، ١٩٥١.
- محمود سعيد عمران، **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١.
- محمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**.
- مصطفى السباعي، **الإخوان المسلمون في حرب فلسطين**. دون مكان: دار النذير، ١٩٨٥.
- مصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥.

- مصطفى مراد الدباغ، **القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين**. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩.
- مصطفى مراد الدباغ، **من هنا وهناك**.
- المناوي، **فيض القدير: شرح الجامع الصغير**. دون مكان: دار الفكر، ١٩٧٢.
- **الموسوعة الفلسطينية**، إشراف أحمد المرعشلي. دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤.
- وليم فهمي، **الهجرة اليهودية إلى فلسطين**. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

٦. مقالات وأبحاث في دوريات:

- إبراهيم الشيخ خليل، "رسالة من مجاهد قديم: ذكريات مع القسام،" مجلة **شؤون فلسطينية**، عدد ٧، آذار/ مارس ١٩٧٢.
- ربعي المدهون، "الحركة الإسلامية في فلسطين ١٩٢٨–١٩٨٧،" مجلة **شؤون فلسطينية**، عدد ١٨٧، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٨.
- فايز سارة، "الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الأيديولوجيا وانقسام السياسية،" مجلة **المستقبل العربي**، عدد ١٢٤، حزيران/ يونيو ١٩٨٩.

٧. مجلات ودوريات:

- جريدة **الأردن**، عمَّان.
- جريدة **الأسبوع العربي**، باريس.
- جريدة **الأسواق**، عمَّان.
- جريدة **البلاد**، عمَّان.
- جريدة **الحياة**، لندن.
- جريدة **الدستور**، عمَّان.
- مجلة **الدعوة**.
- جريدة **الرأي**، عمَّان.
- جريدة **السبيل**، عمَّان.
- جريدة **السياسة**، الكويت.
- جريدة **الشرق الأوسط**، لندن.
- جريدة **صوت الشعب**، عمَّان.

- مجلة **فلسطين المسلمة**، لندن.
- جريدة **القدس العربي**، لندن.
- مجلة **المجتمع**، الكويت.
- جريدة **المحرر**، باريس.
- مجلة **الوسط**، لندن.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

1. Unpublished Documents:

Despach, High Comissioner of Palestine to Secretary of State for the Colonies, 7/12/1935, Secret, C.O. (Colonial Office-London), 733/297/1.

2. Official Report:

Issued by Government of Palestine:

The Palestine Police Force, Annual Administrative Report 1935. Jerusalem: Government Printing Press, Undated.

3. Books:

- Brynen, *Rex, Echoes of Intifada: Regional Reburcusions of Palestinian Israeli Conflict*. U.S.A.: Westview Press, 1991.
- Cobban, Helena, *The Palestinian Liberation Organization: People, Power & Politics*. U.S.A.: Cambridge University Press, 1988.
- Cohen, Amnon, *Political Parties in the West Bank under the Jordanian Regime 1949-1967*. London: Cornell University Press, Undated.
- Hadas, Moses, *A History of Rome: from its Origin to 529 A.D.* U.S.A.: Peter Smith, 1976.
- Hart, Alan, *Arafat: A Political Biography*. Bloomington & Indianapolis (U.S.A.): Indiana University Press, 1989.
- Jones, A.H.M., *The Later Roman Empire 284-602*. Paltimore (U.S.A.): Johns Hopkins, 1986.

4. Articles:

Schleifer, S. Abdullah, “The Life and Thought of Izziddin Al-Qassam”, *The Islamic Quarterly*, vol. 23, no. 2, 1979.



إصدارات مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

أولاً: الإصدارات باللغة العربية:

١. بشير نافع ومحسن محمد صالح، محرران، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٥**، ٢٠٠٦.

٢. محسن محمد صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٦**، ٢٠٠٧.

٣. محسن محمد صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٧**، ٢٠٠٨.

٤. محسن محمد صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٨**، ٢٠٠٩.

٥. محسن محمد صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٩**، ٢٠١٠.

٦. محسن محمد صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠١٠**، ٢٠١١.

٧. محسن محمد صالح، محرر، **التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠١١**، ٢٠١٢.

٨. محسن محمد صالح ووائل سعد، محرران، **مختارات من الوثائق الفلسطينية لسنة ٢٠٠٥**، ٢٠٠٦.

٩. محسن محمد صالح ووائل سعد، محرران، **الوثائق الفلسطينية لسنة ٢٠٠٦**، ٢٠٠٨.

١٠. محسن محمد صالح ووائل سعد، محرران، **الوثائق الفلسطينية لسنة ٢٠٠٧**، ٢٠٠٩.

١١. محسن محمد صالح ووائل سعد وعبد الحميد فخري الكيالي، محررون، **الوثائق الفلسطينية لسنة ٢٠٠٨**، ٢٠١١.

١٢. محسن محمد صالح ووائل سعد، محرران، **الوثائق الفلسطينية لسنة ٢٠٠٩**، ٢٠١٢.

١٣. وائل سعد، **الحصار: دراسة حول حصار الشعب الفلسطيني ومحاولات إسقاط حكومة حماس**، ٢٠٠٦.

١٤. محمد عارف زكاء الله، **الدين والسياسة في أميركا: صعود المسيحيين الإنجيليين وأثرهم**، ترجمة أمل عيتاني، ٢٠٠٧.

١٥. أحمد سعيد نوفل، **دور إسرائيل في تفتيت الوطن العربي**، ٢٠٠٧، ط ٢، ٢٠١٠.

١٦. محسن محمد صالح، محرر، **منظمة التحرير الفلسطينية: تقييم التجربة وإعادة البناء**، ٢٠٠٧.

١٧. محسن محمد صالح، محرر، **قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها ٢٠٠٦-٢٠٠٧**، ٢٠٠٧.

١٨. خالد وليد محمود، **آفاق الأمن الإسرائيلي: الواقع والمستقبل**، ٢٠٠٧.

١٩. حسن ابحيص ووائل سعد، **التطورات الأمنية في السلطة الفلسطينية ٢٠٠٦–٢٠٠٧**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (١)، ٢٠٠٨.

٢٠. محسن محمد صالح، محرر، **صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية ٢٠٠٦–٢٠٠٧**، ملف الأمن في السلطة الفلسطينية (٢)، ٢٠٠٨.

٢١. مريم عيتاني، **صراع الصلاحيات بين فتح وحماس في إدارة السلطة الفلسطينية ٢٠٠٦–٢٠٠٧**، ٢٠٠٨.

٢٢. نجوى حساوي، **حقوق اللاجئين الفلسطينيين بين الشرعية الدولية والمفاوضات الفلسطينية – الإسرائيلية**، ٢٠٠٨.

٢٣. محسن محمد صالح، محرر، **أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان**، ٢٠٠٨، ط ٢، ٢٠١٢.

٢٤. إبراهيم غوشة، **المئذنة الحمراء**، ٢٠٠٨.

٢٥. عدنان أبو عامر، مترجم، **دروس مستخلصة من حرب لبنان الثانية (تموز ٢٠٠٦): تقرير لجنة الخارجية والأمن في الكنيست الإسرائيلي**، ٢٠٠٨.

٢٦. عدنان أبو عامر، **ثغرات في جدار الجيش الإسرائيلي**، ٢٠٠٩.

٢٧. قصي أحمد حامد، **الولايات المتحدة والتحول الديموقراطي في فلسطين**، ٢٠٠٩.

٢٨. أمل عيتاني وعبد القادر علي ومعين منّاع، **الجماعة الإسلامية في لبنان منذ النشأة حتى ١٩٧٥**، ٢٠٠٩.

٢٩. سمر جودت البرغوثي، **سمات النخبة السياسية الفلسطينية قبل وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية**، ٢٠٠٩.

٣٠. عبد الحميد الكيالي، محرر، **دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان**، ٢٠٠٩.

٣١. عدنان أبو عامر، مترجم، **قراءات إسرائيلية استراتيجية: التقدير الاستراتيجي الصادر عن معهد أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي**، ٢٠٠٩.

٣٢. سامح خليل الوادية، **المسؤولية الدولية عن جرائم الحرب الإسرائيلية**، ٢٠٠٩.

٣٣. محمد عيسى صالحية، **مدينة القدس: السكان والأرض (العرب واليهود) ١٢٧٥–١٣٦٨هـ/ ١٨٥٨–١٩٤٨م**، ٢٠٠٩.

٣٤. رأفت فهد مرة، **الحركات والقوى الإسلامية في المجتمع الفلسطيني في لبنان: النشأة – الأهداف – الإنجازات**، ٢٠١٠.

٣٥. سامي الصلاحات، **فلسطين: دراسات من منظور مقاصد الشريعة الإسلامية**، ط ٢ (بالتعاون مع مؤسسة فلسطين للثقافة)، ٢٠١٠.
٣٦. محسن محمد صالح، محرر، **دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس**، ٢٠١٠.
٣٧. مأمون كيوان، **فلسطينيون في وطنهم لا دولتهم**، ٢٠١٠.
٣٨. محسن محمد صالح، **حقائق وثوابت في القضية الفلسطينية: رؤية إسلامية**، ٢٠١٠.
٣٩. عبد الرحمن محمد علي، محرر، **إسرائيل والقانون الدولي**، ٢٠١١.
٤٠. كريم الجندي، **صناعة القرار الإسرائيلي: الآليات والعناصر المؤثرة**، ترجمة أمل عيتاني، ٢٠١١.
٤١. وسام أبي عيسى، **الموقف الروسي تجاه حركة حماس: ٢٠٠٦–٢٠١٠**، ٢٠١١.
٤٢. سامي محمد الصلاحات، **الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي**، ٢٠١١.
٤٣. نادية سعد الدين، **حق عودة اللاجئين الفلسطينيين: بين حل الدولتين ويهودية الدولة**، ٢٠١١.
٤٤. عامر خليل أحمد عامر، **السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه إفريقيا: السودان نموذجاً**، ٢٠١١.
٤٥. إبراهيم أبو جابر وآخرون، **الداخل الفلسطيني ويهودية الدولة**، ٢٠١١.
٤٦. عبد الرحمن محمد علي، **الجرائم الإسرائيلية خلال العدوان على قطاع غزة: دراسة قانونية**، ٢٠١١.
٤٧. محسن محمد صالح، **القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة**، ٢٠١٢.
٤٨. نائل إسماعيل رمضان، **أحكام الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي: دراسة فقهية مقارنة**، ٢٠١٢.
٤٩. حسني محمد البوريني، **مرج الزهور: محطة في تاريخ الحركة الإسلامية في فلسطين**، ٢٠١٢.
٥٠. غسان محمد دوعر، **المستوطنون الصهاينة في الضفة الغربية: الاعتداء على الأرض والإنسان**، ٢٠١٢.
٥١. محسن محمد صالح، **الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين**، ط ٥، ٢٠١٢. (نسخة إلكترونية)

٥٢. دلال باجس، **الحركة الطلابية الإسلامية في فلسطين: الكتلة الإسلامية نموذجاً**، ٢٠١٢.

٥٣. وائل عبد الحميد المبحوح، **المعارضة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) ١٩٩٤–٢٠٠٦: دراسة تحليلية**، ٢٠١٢.

٥٤. عباس إسماعيل، **عنصرية إسرائيل: فلسطينيو ٤٨ نموذجاً**، سلسلة أولست إنساناً؟ (١)، ٢٠٠٨.

٥٥. حسن ابحيص وسامي الصلاحات ومريم عيتاني، **معاناة المرأة الفلسطينية تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٢)، ٢٠٠٨.

٥٦. أحمد الحيلة ومريم عيتاني، **معاناة الطفل الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٣)، ٢٠٠٨.

٥٧. فراس أبو هلال، **معاناة الأسير الفلسطيني في سجون الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٤)، ٢٠٠٩.

٥٨. ياسر علي، **المجازر الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٥)، ٢٠٠٩.

٥٩. مريم عيتاني ومعين منّاع، **معاناة اللاجئ الفلسطيني**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٦)، ٢٠١٠.

٦٠. محسن محمد صالح، **معاناة القدس والمقدسات تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٧)، ٢٠١١.

٦١. حسن ابحيص وخالد عايد، **الجدار العازل في الضفة الغربية**، سلسلة أولست إنساناً؟ (٨)، ٢٠١٠.

٦٢. مريم عيتاني وأمين أبو وردة ووضّاح عيد، **معاناة العامل الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً؟ (١٠)، ٢٠١١.

٦٣. فاطمة عيتاني وعاطف دغلس، **معاناة المريض الفلسطيني تحت الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة أولست إنساناً؟ (١١)، ٢٠١١.

٦٤. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **معاناة قطاع غزة تحت الحصار الإسرائيلي**، سلسلة تقرير معلومات (١)، ٢٠٠٨.

٦٥. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **معابر قطاع غزة: شريان حياة أم أداة حصار**، سلسلة تقرير معلومات (٢)، ٢٠٠٨.

٦٦. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **أثر الصواريخ الفلسطينية في الصراع مع الاحتلال الإسرائيلي**، سلسلة تقرير معلومات (٣)، ٢٠٠٨.
٦٧. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **مسار المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية ما بين "أنابوليس" والقمة العربية في دمشق (خريف ٢٠٠٧ - ربيع ٢٠٠٨)**، سلسلة تقرير معلومات (٤)، ٢٠٠٨.
٦٨. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الفساد في الطبقة السياسية الإسرائيلية**، سلسلة تقرير معلومات (٥)، ٢٠٠٨.
٦٩. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الثروة المائية في الضفة الغربية وقطاع غزة بين الحاجة الفلسطينية والانتهاكات الإسرائيلية**، سلسلة تقرير معلومات (٦)، ٢٠٠٨.
٧٠. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **مصر وحماس**، سلسلة تقرير معلومات (٧)، ٢٠٠٩.
٧١. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة (٢٠٠٨/١٢/٢٧-٢٠٠٩/١/١٨)**، سلسلة تقرير معلومات (٨)، ٢٠٠٩.
٧٢. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **حزب كاديما**، سلسلة تقرير معلومات (٩)، ٢٠٠٩.
٧٣. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الترانسفير (طرد الفلسطينيين) في الفكر والممارسات الإسرائيلية**، سلسلة تقرير معلومات (١٠)، ٢٠٠٩.
٧٤. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الملف الأمني بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل**، سلسلة تقرير معلومات (١١)، ٢٠٠٩.
٧٥. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **اللاجئون الفلسطينيون في العراق**، سلسلة تقرير معلومات (١٢)، ٢٠٠٩.
٧٦. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **أزمة مخيم نهر البارد**، سلسلة تقرير معلومات (١٣)، ٢٠١٠.
٧٧. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **المجلس التشريعي الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٩٦-٢٠١٠**، سلسلة تقرير معلومات (١٤)، ٢٠١٠.
٧٨. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الأونروا: برامج العمل وتقييم الأداء**، سلسلة تقرير معلومات (١٥)، ٢٠١٠.

٧٩. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **دور الاتحاد الأوروبي في مسار التسوية السلمية للقضية الفلسطينية**، سلسلة تقرير معلومات (١٦)، ٢٠١٠.

٨٠. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **تركيا والقضية الفلسطينية**، سلسلة تقرير معلومات (١٧)، ٢٠١٠.

٨١. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **إشكالية إعطاء اللاجئين الفلسطينيين في لبنان حقوقهم المدنية**، سلسلة تقرير معلومات (١٨)، ٢٠١١.

٨٢. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **حزب العمل الإسرائيلي**، سلسلة تقرير معلومات (١٩)، ٢٠١١.

٨٣. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **قوافل كسر الحصار عن قطاع غزة**، سلسلة تقرير معلومات (٢٠)، ٢٠١١.

٨٤. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الاستيطان الإسرائيلي في الضفة الغربية ١٩٩٣–٢٠١١**، سلسلة تقرير معلومات (٢١)، ٢٠١٢.

٨٥. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **شاليط: من عملية "الوهم المتبدد" إلى صفقة "وفاء الأحرار"**، سلسلة تقرير معلومات (٢٢)، ٢٠١٢.

٨٦. قسم الأرشيف والمعلومات، مركز الزيتونة، **الموقف الإسرائيلي من ثورة ٢٥ يناير المصرية**، سلسلة تقرير معلومات (٢٣)، ٢٠١٢.

ثانياً: الإصدارات باللغة الإنجليزية:

87. Mohsen Moh'd Saleh and Basheer M. Nafi, editors, *The Palestinian Strategic Report 2005*, 2007.
88. Mohsen Moh'd Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2006*, 2010.
89. Mohsen Moh'd Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2007*, 2010.
90. Mohsen Moh'd Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2008*, 2010.
91. Mohsen Moh'd Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2009/10*, 2011.
92. Mohsen Moh'd Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2010/11*, 2012.
93. Mohsen Moh'd Saleh, editor, *The Palestinian Strategic Report 2011/12*, 2012.
94. Muhammad Arif Zakaullah, *Religion and Politics in America: The Rise of Christian Evangelists and Their Impact*, 2007.

95. Mohsen Moh'd Saleh and Ziad al-Hasan, *The Political Views of the Palestinian Refugees in Lebanon as Reflected in May 2006*, 2009.
96. Ishtiaq Hossain and Mohsen Moh'd Saleh, *American Foreign Policy & the Muslim World*, 2009.
97. Karim El-Gendy, *The Process of Israeli Decision Making: Mechanisms, Forces and Influences*, 2010. (electronic book)
98. Abbas Ismail, *The Israeli Racism: Palestinians in Israel: A Case Study*, Book Series: Am I Not a Human? (1), translated by Aladdin Assaiqeli, 2009.
99. Hasan Ibhais, Mariam Itani and Sami al-Salahat, *The Suffering of the Palestinian Woman Under the Israeli Occupation*, Book Series: Am I Not a Human? (2), translated by Iman Itani, 2010.
100. Ahmad el-Helah and Mariam Itani, *The Suffering of the Palestinian Child Under the Israeli Occupation*, Book Series: Am I Not a Human? (3), translated by Iman Itani, 2010.
101. Firas Abu Hilal, *The Suffering of the Palestinian Prisoners & Detainees Under the Israeli Occupation*, Book Series: Am I Not a Human? (4), translated by Baraah Darazi, 2011.
102. Mariam Itani and Mo'in Manna', *The Suffering of the Palestinian Refugee*, Book Series: Am I Not a Human? (6), translated by Salma al-Houry, 2010.
103. Mohsen Moh'd Saleh, *The Suffering of Jerusalem and the Holy Sites Under the Israeli Occupation*, Book Series: Am I Not a Human? (7), translated by Salma al-Houry, 2012.
104. Fatima Itani and Atef Daghlas, *The Suffering of the Palestinian Patient Under the Israeli Occupation*, Book Series: Am I Not a Human? (11), translated by Mohammed Ibrahim El-Jadili and Saja Abed Rabo El-Shami, 2012.

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine Since the Time of the Prophets until Late Twentieth Century

هذا الكتاب

فلسطين .. الأرض المباركة، ساحة الصراع الدائم بين الحق والباطل، منذ أن رفع إبراهيم عليه السلام راية الحق والتوحيد فيها وأجيال الأنبياء والصالحين والشهداء تتوارثها وتتداولها، تحافظ على هويتها وأصالتها. كلما أنّت الأرض المقدسة من وطأة الغاصبين كلما جاء من أهل الحق من يجلو عنها الظلام لتشرق من جديد بنور التوحيد.

هذا الكتاب .. يستعرض التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء إلى عصرنا (حتى سنة 1996)، يدرس الفتح الإسلامي لفلسطين، وتجربة تحريرها من أيدي الصليبيين والتتار، ويستقرئ واقعها الحديث والمعاصر منذ نهاية الدولة العثمانية، ويركّز على حركة القسام "الجهادية" والإخوان المسلمين مروراً بمعسكرات الشيوخ ووصولاً إلى الانتفاضة المباركة وحركة حماس والجهاد الإسلامي.

إنه دعوة لاحتفاظ الأمة بأصالتها والإصرار على حقها، وتأكيد على أن الكيان الصهيوني الغاصب إنما هو مرحلة من تاريخ الصراع وحلقة من سلسلته، وسيزول كما زال من سبقه من أهل الباطل، عندما تثوب الأمة المسلمة إلى رشدها وتستجمع عوامل قوتها ووحدتها ونهضتها.

هذا الكتاب .. يستجيب لرغبة الكثير من القراء في التعرف على مجمل تاريخ فلسطين وقضيتها من وجهة نظر إسلامية، وهو كتاب أكاديمي موثّق من الناحية العلمية، حافل بالمعلومات، ولكنه جاء سهلاً بعيداً عن الجفاف والجمود، كما سعى لأن يستلهم مواطن العبرة والعظة، دونما حاجة لخطابة عاطفية أو إنشاء.



مركز الزيتونة للدراسات والإستشارات

Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations

ص.ب.: 5034-14 بيروت - لبنان

تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+

info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net



مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت